تأريخ
يوسف بوسنايا

ܫܪܒܐ ܕܝܘܣܦ ܒܘܣܢܝܐ

بقلم
تلميذه يوحنا بن كلدون
(القرن العاشر)

ترجمه وعلق عليه
القس يوحنان جولاغ

بغداد ١٩٨٤

تأريخ
يوسف بوسنايا

ܡܪܝ ܝܘܣܦ ܒܘܣܢܝܐ

بقلم
تلميذه يوحنا بن كلدون
(القرن العاشر)

ترجمه وعلق عليه
القس يوحنان جولاغ

بغداد ١٩٨٣

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢١٥ لسنة ١٩٨٣

مطبعة واوفسيت المشرق ٨٨١٧٤٠

مقدمة المعرب

ليس خفيا على كل مُطّلع الدور الكبير الذي لعبته الاديرة في تاريخ هذا البلد الحضاري ، بعد انتشار المسيحية في الشرق ، وما قام به الرهبان من اعمال الترجمة والتأليف وجمع المخطوطات الباحثة في شتى مجالات العلم والمعرفة ، بحيث كان لأغلب الاديرة مكتبات عامرة بمختلف الكتب الدينية والفلسفية واللاهوتية والفلكية والطبية واللغوية وغيرها ، مما جعلها منتديات يقصدها كل طالب علم وفضيلة ، فيجد فيها مجالا واسعا لاستثمار مواهبه وقدراته ، في خدمة اخوانه البشر ، على ضوء التعاليم التي كانت الرهبنة ترشده بهديها ، فيصبح الدير وكأنه ذلك المجتمع الصغير الموحد القائم على تقاسم الخيرات المشتركة ماديا وروحيا ، بمحبة صادقة ، تعطي وزنا لمعنى المبادرة والحرية الشخصية ، في ظل نظام عملي متين ومرن ، يحدو بكل راهب الى بذل افضل ما لديه من مؤهلات في سبيل المصلحة العامة ، كما قال احدهم :«وكانوا جميعا .. .يؤلفون جسم الرهبنة الواحد المزدان بكمال الحب الالهي ومحبة البشرية» .

ان هذه الروح الانسانية العالية نشاهدها متجسمة في الاديرة كما يصغها لنا المؤلف في كتابه هذا الذي وضعه بالسريانية قبل ألف سنة .

مخطوطات الكتاب :— ورد ذكر الكتاب في جدول عبد يشوع الصوباوي (+ ١٣١٨) طبعة الحاقلاني (روما ١٦٥٣ صحيفة ١١٢) حيث يقول :«ان يوحنا بن كلدون وضع كتابا كبيرا في البوساني» . اما السمعاني (م . ش . جـ ٣ . ف ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦) فتوهم لدى قراءته «بوسنايا» فقرأها : بوحانا ، ومعناها الاسئلة .

وبعد قرون قام المستشرق يوحنا شابو بترجمة الكتاب الى اللغة الفرنسية ، ونشره اولا في مجلة الشرق المسيحي (١٨٩٧ — ١٨٩٩) . ثم في كتاب خاص سنة ١٩٠٠ ، مستخدما لترجمته نسخة نقلها له الاب شموئيل جميل في روما سنة ١٨٩٧ حيث كان نائبا بطريركيا للكلدان ، عن المخطوطة الفاتيكانية المرقمة ٤٦٧ والمكتوبة سنة ١١٨٦ [١] في دير مار ايليا الحيري [٢] ، وكانت منقولة عن نسخة ثالثة كانت في دير الربان هرمزد في جبل القوش ، وعليها رقم ١٥٥ حسب ترتيب الأب فوستي [٣] .

١—في المخطوطة مكتوب سهوا سنة ١٠٥٥ . (تصحيح شابو . ص ١١ من ترجمته)

٢—دير مار ايليا بالقرب من الموصل (القرن السادس) ويدعى ايضا بدير سعيد ، راجع بشأنه كتاب الرؤساء ص ٢٨ ، حاشية ١ . وص ٣٦ حاشية ٥ .

٣—لم أتمكن من الاطلاع على هذه النسخة في اديرة الكلدان ، ومن المعتقد انها مفقودة الآن

وفي مكتبة دير الكلدان في بغداد – الدورة – نسخة جديدة مكتوبة سنة ١٩٥١ بيد الراهب داد يشوع كيخوه (المرحوم الأب داد يشوع كيخوه) بحبر ازرق في دفتر يحتوي على ٢٩٣ صحيفة ، وفي كل صحيفة ١٩ سطرا ، ولا يذكر النسخة التي نقل عنها .

ومن حسن الحظ انني تمكنت من العثور على نسختين آخريين ، الاولى مكتوبة سنة ١٩٠٧ في قرية اشيثا (طياري) بقلم «هرمز ابن القس توما ابن الشماس هرمز ابن المرحوم باعوث» ، وتقع في ٢٢٠ صحيفة بحجم ٢٨ × ٢١ سم ، وتعود ملكيتها الى الشماس كوركيس من قرية كيرانجق (ناحية القوش) . لاحظت فيها بعض الاسطر ناقصة اغفلها الناسخ ، فكملتها على النسخة الثانية التي عثر عليها الأب يوسف توماس في بيت المرحوم القس نونا الالقوشي . وقد فقد منها عشرون ورقة في عدة مواضع ومن ضمنها اربع اوراق أخيرة ، فضاع علينا تاريخ كتابتها الذي يبدو من شكلها قديما جدا . وقمت باصلاحها مستعينا بالنسخة الاولى فجاء نصها كاملا . وتتكون من ٥٥٢ صحيفة بحجم ١٧ × ١٢ سم .

ترجمة شابو :– ان هذه المخطوطات السريانية تحمل كلها عنوان «قصة سيرة . .الراهب يوسف البوساني . . .التي كتبها تلميذه يوحنا بن كلدون» . لكن العلامة شابو وضع لترجمته عنوان «تاريخ الراهب يوسف بوسنايا . .» .

والواقع ان الكتاب لا يبحث فقط في سيرة الراهب يوسف البوساني ، لكنه يتطرق أيضا الى الحياة الرهبانية عموما ، كما عاشها رهبان كنيسة المشرق قبل الف سنة ، ويروي قصص رهبان كثيرين عاصروا الربان[١] يوسف او سبقوه بقليل . فالكتاب تاريخ رهباني ثمين ، وهو بمثابة وثيقة تراثية لا مثيل لها حتى الآن عن الحياة الرهبانية عندنا في القرن العاشر وما قبله . لقد تمكن العلامة شابو في ترجمته ، من تصحيح السنين التي وردت خطأ في الاصل السرياني ، بسهو من الكاتب او من النساخ . واضاف اليها هوامش عديدة ومفيدة . لكن ترجمته تفتقر بوجه عام الى الدقة في ابراز المعنى الذي يقصده المؤلف ، وخاصة في مقدمات الفصول حيث الاسلوب عويص والجمل متشابكة لا يسهل فهمها لاول وهلة . وقد نوه شابو في مقدمته بانه ترجم احيانا بتصرف تخلصا من المواضع التي يعتبرها لعبا على الكلمات من قبل المؤلف . ومثل هذه المواضع عديدة في ترجمته . فاكتفيت هنا بالاشارة اليها .

١– الربان معناه راهب او معلم

الكتاب :- يتألف الكتاب من مقدمة وتسعة فصول وخاتمة . ويستهل المؤلف كل فصل بمقدمة فلسفية رائعة تعبر عن محتواه . وبشكل عام لا يوجد تنسيق زمني بين الاخبار والقصص التي يذكرها . وكما يقول مرارا وتكرارا انه كتب تاريخه نثرا باسلوب السرد والحكاية ، مستندا إلى رواة ثقات يستحقون تصديقه ، وانه ليس اديبا ولا مؤرخا . واحيانا لا تخلو اخباره وقصصه من مغالاة متسمة بغرابة وفكاهة ، رغم اللهجة الجدية التي يسوقها بها ، مستشهدا بالمسيح على صحتها ، لان معظمها استقاها من معلمه الربان يوسف .

ولكن مفاهيمه غالبا ما تأتي مدعاة للتفكير والمقارنة مع خبرات علم النفس التحليلي والايحاء الذاتي وظواهر الحاسة السادسة وغيرها .

انشاؤه سلس والفاظه سهلة ، يسبكها في تعابير متقنة متساوقة دون تكلف او اقحام . وسياقُ الجمل صعب على الفهم احيانا وبخاصة في مقدمات الفصول حيث المعاني تحليقات فكرية في عالم الفلسفة اليونانية واللاهوت كما كتب فيه الآباء القدامى مستندين الى التفسير الحرفي والرمزي للكتاب المقدس . والكتاب مشحون بمتعة روحية وعمق فكري يضع القارئ على آفاق الذات الانسانية الشاسعة وما فيها من رغبات وامكانات هائلة تفوق حدود الحواس وتسمو بها فوق مداها المحدود ، نزوعا نحو الكمال عن طريق الزهد والتقشف . وعن مراتب هذا الكمال الرهباني يتحدث الكاتب بدقة وتفصيل لا يخلو من غموض ، حسب مفاهيم ذلك العصر .

المؤلف :- يتبين لنا من النسخ المذكورة آنفا ، ومن جدول الصوباوي ، وترجمة شابو ، ان المؤلف هو الراهب يوحنا بن كلدون ، تلميذ الربان يوسف البوساني . ونعلم من الكتاب ان يوحنا موصلي الاصل ، دخل دير باصياري[1] وهو في العشرين من عمره . وهناك تتلمذ للربان يوسف وصار معاونا له وكاتما لاسراره الى حين وفاته . وكان يجيد اللغة العربية التي تعلمها في الموصل قبل انخراطه في سلك الرهبنة . اما اللغة السريانية فكان له المام بها ، ثم اجادها هي الاخرى كما يبدو من مؤلفه هذا .

ولا نعلم متى دوّن يوحنا تاريخه هذا . ومما لا شك فيه انه كتبه بعد سنين لوفاة معلمه البوساني سنة ٩٧٩ - ويذكر مصدر آخر هو كتاب «سير أشهر شهداء المشرق» الذي طبعه المطران ادي شير في الموصل سنة ١٩٠٦ . جـ ٢ . ص ١٢٣ - ١٢٧ ان يوحنا بن كلدون اقبل الى دير مار ميخائيل[2] رفيق الملائكة بجوار الموصل بايعاز سابق من معلمه

١- سيأتي التعريف به .

٢-راجع بشأنه : تاريخ دير مار ميخائيل ، القس افرام رسام . الموصل ١٩٦١ .

يوسف ، فوجد فيه سبعة رهبان لا غير يعيشون بعوز شديد . وكان الدير خربا متداعيا . فضرف يوحنا اموالا طائلة على شؤون الدير من اموال ابيه الخاصة ، وساعده كذلك شخص يدعى عيسى بن سرون بمبلغ ٢٠٫٠٠٠ درهم . لكن يوحنا لقي معارضة شديدة من قبل بعض اهالي الموصل . فاضطر الى الفرار الى دير مار يعقوب الحبيس الواقع جنوبي سعرد على مسيرة ساعة منها . ومكث هناك نحو سنتين . ثم اصيب بمرض في مدينة الجزيرة حيث وافاه الاجل في اليوم الثامن من شهر آب[١] . وكان قد طلب ان يدفن في دير مار ميخائيل . وبعد اربعة اشهر بلغ خبر وفاته رهبان مار ميخائيل ، فنقلوه الى الدير ودفنوه إلى جانب قبر القديس .

ويقول الاب شموئيل جميل في تعليقه على جدول عبد يشوع الصوباوي صحيفة ٢٠٥ ، العدد ٢٥٥ (والكتاب مخطوط بالسريانية سنة ١٩٠٠ في دير السيدة – القوش –) ، ان مؤلفات يوحنا بن كلدون حرمت من قبل المجمع الذي عقد في ديامبير – ملبار – سنة ١٥٩٩ لفحص كتب المشارقة ، وأتلفت مع غيرها من المصنفات التي كانت تخالف العقيدة الكاثوليكية !

الربان يوسف :–مسقط رأسه قرية بوزان[٢] الحالية الواقعة في لحف جبل القوش الى جنوب شرقي دير الربان هرمز على بعد ٢ كم تقريبا ، وتسكنها عوائل يزيدية . تاريخ ولادته غير وارد في الكتاب . لكننا نستنتج من سنيّ عمره التي بلغت ١١٠ سنوات حسب قول المؤلف ، وكانت وفاته يوم ٤ أيلول سنة ٩٧٩ ، انه ولد لابويه يقيرا وعمرونه نحو سنة ٨٦٩ . وكان البكر بين اخوته الثلاثة واخته الوحيدة .

١– سنة وفاته مجهولة .

٢–ورد اسم هذه القرية في الكتاب عدة مرات بصيغة تصغير سريانية وهي «بابوسا» من «بوسا» وتعني لغة : طفل ، طفيل ، او حلقة من جلد تربط الفدان الى النير . ويبدو ان هذه التسمية السريانية طرأ عليها تصحيف فارسي او عربي فاضحت بوزان ، كما انها تلفظ في السورث حاليا بصيغة «بوزاي» . ويتضح من الكتاب ان القرية كانت مأهولة في القرن العاشر بعوائل مسيحية على المذهب النسطوري السائد في المنطقة في تلك العصور . ثم اعتنقت المذهب الكاثوليكي بتأثير رهبان دير الربان هرمزد في منتصف القرن السادس عشر . وجاء في مخطوط سرياني محفوظ في الدير المذكور عنوانه «اخبار يومية» وعليه رقم ١٠٨ حسب ترتيب فوستي ، انه في سنة ١٨٣٤ أرسل كاهن من دير الربان هرمزد لخدمة العوائل المسيحية الساكنة في بوزان .

ترهب في دير الربان هرمزد وهو في العقد الثالث من عمره . وبعد اربع سنوات من الابتداء عاش ناسكا في احدى صوامع الدير لمدة اثنتي عشرة سنة . وبعدما سلخ في دير الربان هرمزد قرابة ثلاثين سنة ، تحول الى دير باصّياري على طلب والحاح الرهبان ورئيس الدير الانبا[1] موسى . وكان اخوته الثلاثة قد لحقوا به قبل ذلك وصاروا رهبانا .

وهناك في دير باصّياري ، قضى بقية عمره المديد مرشداً وهادياً للرهبان لمدة خمسين سنة تقريبا .

وهذا الكتاب خير دليل على ما تحلّى به الراهب يوسف من حياة روحية عميقة وسيرة نسكية صعبة ، وبصيرة نافذة في امور الحياة الرهبانية وطرق الكمال التي يسلكها الرهبان في زمانه على ضوء ارشاداته الحكيمة .

دير باصّياري :- نستغرب جدا كيف ان كتب تواريخ الديارات ، مثل كتاب «العفة»(القرن الثامن) و «كتاب الرؤساء»(القرن التاسع) وغيرهما ، تهمل ذكر دير مار ابراهيم الناسك الملقب بدير باصّياري ، ولو لا تاريخ يوسف البوساني هذا ، لظلت معالم هذا الدير مجهولة لدينا تماما حتى اليوم .

فمن هذا الكتاب نعلم ان الدير أسسه مار[2] ابراهيم الناسك المتخرج من دير جبل الازل (قرب نصيبين) في زمن نجهله ، ولعله القرن السادس . ثم جدده الربان ابن يلدا والربان موسى في القرن العاشر ، واشتهر بعد ذلك باسم الربان موسى ، والمؤلف يروي عنه احاديث مستفيضة .

اما موقع الدير فيتضح من المواضع والامكنة التي يذكرها الكتاب ، منها :

١-قربه من قرية بامرني التي يسميها بيث موردني او موردني[3] ، وتبعد عنه شرقا مسيرة عشرين دقيقة لا غير .

١-الانبا لقب يعطى لرئيس الدير او لاحد مشاهير الرهبان .

٢- مار ، سريانية ، معناها قديس أو سيد .

٣-ويذكرها ياقوت الحموي في معجمه جـ ٢ . ص ٤٨ . باسم بامردني ، بامردن . وهنا تجدر الاشارة الى ان حرف با الذي ياتي في رأس بعض التعابير العربية هو تصحيف للفظة بيث السريانية ، ومعناها بيت او مكان او بنو . مثلا : بيث صياري معناها مكان او بيت الرسامين ، وكذلك باعذرا فهي مصحفة عن بيث عذري ، وتعني اما مكان العون او مزرعة الاشجار التي تستعمل سيقانها في تسقيف البيوت .

٢–الرحى التي بناها الرهبان في عهد الربان موسى رئيس الدير ، في وادي صبنا[١] ، وما زالت آثارها باقية حتى اليوم على مسافة نصف ساعة الى جنوب قرية تنا الحالية . وموقع الدير يبعد عن تنا شمالا بمسافة ٢ كم تقريبا .

٣–آثار الدير الباقية الى الآن في قرية زيوا بيرا موسى التي يسكنها الاكراد حاليا . ونعتقد ان تسمية بيرا موسى وتعني بالكردية الشيخ موسى منسوبة الى الانبا موسى رئيس الدير في عهد الربان يوسف البوساني . وهذا الاعتقاد يؤيده التقليد المحلي المتواتر وغير المنقطع لدى اهالي القرى المسيحية المتناثرة على سفوح جبل متينا في منطقة صبنا ، ومنها قرية اينشكي وارادن وتنا وداودية وغيرها ، ومعظمها يرد ذكرها في الكتاب .

٤–قربه النسبي من دير الربان يوسف في اينشكي ، وعلاقته به يقول المؤلف انه في عهد الربان يوسف مؤسس دير اينشكي ، كان دير مار ابراهيم الناسك قد خرب واقفر من الرهبان ، فأعاد بناءه وجدده الربان ابن يلدا والربان موسى في النصف الاول من القرن العاشر .

ونعتقد مع الاب حنا فيي (اثور المسيحية ٠٢ ص ٧١٢ – ٧١٣) ان الربان يوسف هذا ، اذا كان هو المذكور في كتاب الديورة رقم ١١٥ رفيقا للربان يعقوب (مؤسس دير مار ياقو حاليا) ، فيكون قد اسس ديره في القرن السابع . اذن لا بد من ان يكون مار ابراهيم الناسك قد شيد ديره هذا قبل ذلك التاريخ بكثير . لان المؤلف يقول عنه (نهاية الفصل السابع) : «وبعد وفاة مؤسسه بسنين غير معلومة »ويشير هنا الى تجديده في القرن العاشر .

٥–ان موقع باصياري لا يمكن ان يكون باصّيادي القرية التي جاء ذكرها في كتاب الاب فيي (اثور المسيحية ٠١ ص ١٦٥ و ١٧٣) والواقعة في منطقة شرقي اربيل ، وبدون تعيين . والاب فيي يرتئي الخلط بين الموقعين بدلالة الفرق الزهيد ما بين حرف الراء والدال في اللغة السريانية . لكن الشواهد التي أوردناها تنفي هذا الخلط ، وتؤكد ان موقع دير باصياري ليس الا الكوخ الصغير المتبقي منه الى هذا اليوم في قرية زيوا بيرا موسى ، وهو مزار ديني لدى سكان القرى المجاورة من اكراد ومسيحيين ، والى سنوات خلت كانت النذور التي ترد اليه

١–ويسميه الكاتب (الفصل السابع) : نهر صبنا ، والمقصود به المياه الجارية في وادي منطقة سرسنك غربا .

مقسمة خمس حصص ، الواحدة لاهالي قرية تنا المسيحيين ، والأربع الاخرى لاهالي بامرني المسلمين .

الترجمة العربية والعنوان :- استخدمت لترجمتي هذه نسخة القس نونا لانها اقدم النسخ التي اطلعت عليها . وحاولت جهدي ان تأتي الترجمة مشابهة جدا لاصلها السرياني بانشائها والفاظها وجملها ومعانيها . ولو انها قد تبدو ركيكة احيانا مقارنة بالادب المعاصر ، وبما تقتضيه الكتابة من فنون الفصاحة والبلاغة .

واضفت الى الترجمة الهوامش والتعليقات المفيدة ، مكتفيا بالضرورية منها لمعرفة الاشخاص والمواقع الواردة في الكتاب ، دون التوسع في تفاصيل التحقيق العلمي ، وهو عمل اختصاصيين ، متسعينا لذلك بترجمة الاب شابو ، وبالمراجع والمصادر التي تمكنت من الاطلاع عليها ، مفضلا العربية منها والاكثر انتشارا بين القراء .

اما العنوان فرأيت من المستحسن ان يكون «تاريخ يوسف البوساني . .» وليس «قصة سيرة . .» كما هو في الاصل ، وذلك للاسباب التالية :

١-لأن محتويات الكتاب لا تتضمن فقط سيرة الراهب يوسف البوساني ، بل وسير رهبان آخرين ، ولو بايجاز .

٢-لأن هذه المحتويات تعد وبحق تاريخا رهبانيا مفصلا حول الحياة الرهبانية عامة ، في ما بين النهرين قبل الف سنة . فكلمة تاريخ في رأس العنوان تعبر تعبيرا اصح وادق عن مضمون الكتاب .

٣-لأن جل ما سطره المؤلف في الكتاب ، استقاه من معلمه يوسف مباشرة ، ونادرا ما كان له مرجع او مصدر آخر غيره . بحيث يمكننا اعتباره كاتبا ليوسف وليس مؤلفا لقصة سيرته . وبعد ، فها انني اضع ترجمتي هذه بين ايدي القراء ، متقبلا منهم بشكر وامتنان ، كل نقد او تصحيح لما ورد فيها من اضافات وتعليقات ، وصولا الى اصدق المعلومات التاريخية وأدقها . كما أُسدي شكري الجزيل للاستاذ سعيد ميخا ، حفيد المرحوم القس نونا ، لانه اتاح لي فرصة الاطلاع على المخطوط واستخدامه في هذه الترجمة . اعاننا الله جميعا على بعث تراثنا التليد والنهل منه لخدمة بلدنا العريق .

القس يوحنان جولاغ
الموصل ١٩٧٩/٩/٤

*(استهلال)

بقوة ربنا يسوع المسيح نبدأ بكتابة قصة سيرة الرجل العجائبي ومآثره الباهرة الربان يوسف المدعو البوساني – نسبة الى قريته بابوسا – التي ألفها نثرا تلميذه يوحنا كلدون. يارب اعضدني برحمتك آمين[1].

(المقدمة). أكد احد ائمة الدين الخبراء بالأسرار الالهية، ودعم قوله بحجة قاطعة، أنّ كل عمل يريده الرب، فالخليقة كلها تعمل على تحقيقه؛ وأنّ العمل الذي لا يريده الرب، فالخليقة كلها آنذاك تعمل على نقضه.

فاذا كان هذا الامر صدقا كما هو صدق فعلا، وكما يجزم رب الكائنات بقوله: «بدوني لا احد يستطيع ان يعمل شيئاً[2]» فلا يوجد اذن من يستطيع ان يعترض ويحتج على هذه الحقيقة، اعني لا احد يمكنه مهما حاول ان يعطل ما يشاءه الرب، ولا ان يحقق ما لا يشاءه، مهما بذل من جهود.

وانا المسكين قد اختبرت هذا الامر بنفسي مرارا عديدة، ياصديقي الحميم الربان ايليا[3] الكاهن والراهب الفاضل، ذو الفكر النير، المزدان بكل الخصال الحميدة، المغني بالآلهيات والزاخر بالروحيات، المتنعم روحيا بالرؤى العلوية بلا شبع؛ اذ انني حاولت بمختلف السبل ان لا آخذ على عاتق ضعفي هذا العمل الجبار الذي طلبته مني.

منذ زمن طويل التمسني مرارا وتكرارا الطيب الذكر الربان ايشوع الكاهن والراهب الهمام الملقب بالنصيبيني، ان اطيع مجيبا الى طلبك، ولم البّ التماسه الغالي، لا بدافع الجسارة وعدم الطاعة، حاشا! ولكن لثقل العمل وسموه فوق طاقتي انا الشقي الكثير الذنوب؛ ولئلا اشوّه وادنّس سيرة رجل عظيم كهذا، باسلوبي الركيك انا الجاهل البليد.

---

* الكلمات بين قوسين من وضع المترجم.
١-يبدو ان هذا الاستهلال قد اضافه الى الاصل احد النساخ.
٢- انجيل يوحنا ١٥ : ٥.
٣-هو احد رهبان دير باصياري الذي كتب يوحنا تاريخه هذا بناءً على طلب منه.

عندما كان ذلك الساكن بين الابرار يلتمسني بحرارة المحبة ، للقيام بهذا العمل ، وكنت انا افكر في عظمته وسموه ، وفي انني لا املك مؤهلات ادبية مناسبة لهذه المهنة ، لا مواهب طبيعية ولا ثقافية ، وانني غير مستحق لمفعول النعمة التي في الانقياء تعمل لانجاز كل عمل ؛ فمن خلال هذه الاعتبارات كنت ارتجاه طالبا اعفائي من هذا العمل الكبير الذي لست اهلاله . وتماطلت طيلة ذلك الزمن دون ان استجيب الى طلبه .

وكثيرا ما كان يقول لاخجالي بدالّة المحبة : «أيها العبد البطّال والتلميذ الخائن الذي لا يعرف واجبات المحبة تجاه معلمه ؛ كيف لا تخجل من عقوقك هذا وقحتك!؟ ولا تتذكر حق التربية الذي له عليك هذا الاب الفاضل! ولكنك متشبث بالعناد ، وتعمل على ان تؤول الى النسيان والزوال ذكرى حياة معلمك وابيك ومربيك في امور الله!» . اما انا ورغم هذا كله لم اخضع له بسبب عدم كفاءتي وثقافتي ، وامتنعت عن القيام بهذا العمل الى الآن .

واما انت ياصديقي المخلص والموقر ، لكونك سمعتني كثيرا ، حينما كنا نجتمع معا او مع اخوتنا ، فأروي لكم امجاد هذا الأب الروحي محور بحثنا ، لاظهارها إن امكن ، فقد طلبت مني بالحاح مع اخوتي الطوباويين قائلا : «انك وإن لم تستجب الى طلب الربان ايشوع السعيد الذكر المحفوظ بين القديسين ، ولم تكتب له قصة سيرة معلمك ، الا انه كان له منها بعض السلوان ، لكونه اجتمع الى الربان (يوسف) مرارا عديدة ، وتنعم بالحديث معه ، وابتهج برؤيته البهية ، وكان مطلعا اطلاعا واسعا حتى على عظمته وسمو اعماله الجليلة . اما نحن الذين لم نحظ برؤيته ، فماذا نتعزى ، وكيف نقف على سيرته ، الا اذا سطرت لنا في كتاب ، صورة امجاده السنية ؟ لاننا وان كنا الان نلتذ بما تقص علينا شفويا ، ولكن بعد حين ، وعلى مر الزمن سيصبح طي النسيان ، وتمحى ذكراه عن الاجيال القادمة ايضا ، فنحرم نحن وهم معا من فائدة الاستماع الى سيرة هذا الاب ، ولا يليق بالابناء ان يتركوا للنسيان ذكرى ابائهم» .

لكنني رغما عن كل ما مر ذكره ، ولمعرفتي بنفسي بانني غير جدير بهذا العمل ، ولست كما يظن الناس فيّ ، لم البّ هذه الالتماسات . غير ان الرب الذي يفعل كل ما يشاء ، لا بل ان كل ما اراده يكون ، ولأن مشيئته كانت ان يتم هذا الامر ، لم يدعك تكف عن الطلب الي دائما بقولك : «لا جواب لك عن عدم طاعتك هذه !» . وقلت ايضا : «انني لا اريد فصاحة الكلام ، ولكن الّف لنا كتابا بلغة بسيطة حسب مقدرتك ، عن مناقب هذا الاب الروحي» . فلما وقفت على كثافة طلباتك ، وتذكرت

ما قلته قبل قليل ، ان دوافع كهذه ، هو الرب الذي يحركها لانجاز العمل الذي اراده ان يتم ، فكرت وادركت جيدا ، ان الانسان لا يمكنه ان يقاوم ارادة الله . وهزتني من الباطن دوافع ارغامية لا تقاوم ، ومن اختبرها هو عارف بها جيدا ، فاقدمت رغما عني على تحقيق هذا العمل حسب مشيئة (الله) المدبر . وتشجعت ايضا بقولك لي : «اننا نعرف قلة كفاءتك وضحالة معرفتك في الكتب» . فسمحت لي ان اخاطبكم في هذه القصة بأسلوب الحكاية البسيط . فاعددت فكري لألقي بنفسي الشقية في هذا البحر الممتد امامي والذي لايسبر غوره ، وان كنت غير ماهر بفن السباحة فيه ، معتبرا الافضل لي ان يأتيني اللوم من الحكماء وانا جاهل ، من ان اقاوم ارادة الله بعدم الطاعة . غير ان الحكماء في شؤون الرب ، لكونهم مطلعين جيدا على اسرار تدابيره الخفية ، لا يقذفون باللوم او بالتعبير غير اللائق ، ذاك الذي شاء الرب ان يتحقق عمل ما على يده وبواسطته ، وان كان جاهلا وغير مثقف ، لانهم عارفون ومدركون ان حالته هذه ليست بارادة القدوس ، لكن الرب هو الذي اراد ان يتم الامر هكذا ؛ وهم عارفون ايضا ان الانسان بمعرفته الجزئية ، لا يحق له ولا يليق به ان يعترض على الرب قائلا : لماذا يحقق اعمالا جليلة وسامية على ايدي اناس جهلاء ! اذ كيف يعترض الانسان على الخالق الذي يدبر بحكمته الذاتية خطط عنايته بحكمة ، فيقول ذلك الانسان : لمَ هكذا؟ ما هو السبب في كذا؟ ولماذا لم يكن كذا؟ .

اما العلماء الذين حصّلوا علما سطحيا من الكتب ، ولا يعرفون ولا يفهمون غير هذا العلم ، فانهم قد ينحون باللائمة والتعيير على الوسطاء الجهلاء ضعفاء المنطق الذين تستخدمهم العناية (الربانية) ، وذلك لأن لا معرفة لهم باسرار التدبير (الالهي) ، تلك الاسرار التي اطلع عليها اولئك الأولون المنزهون عن اللوم .

فلهذه الاسباب ، ولأن دوافع لا تقاوم كما قلت ، تهزني من الباطن وتحثني رغم ارادتي ، لأكتب قصة مآثر هذا الاب الربان يوسف العجيب بين القديسين ، لا اهتم بالانتقاد الذي يقذفني به الحكماء الاثمون ، ولكني اخضع في هذا الامر لأرادة الله ، واكمل العمل بمعونة المسيح الذي يقويني . وانا عارف ومتيقن بأن ثلاثة تدابير خفية تتحقق وتظهر في هذا العمل :
اولا : لكي لا يُنسى ويُمحى ذكر القديس ، فيُحرم الكثيرون من الفائدة المخفية في سيرته العجيبة ، الكثيرون من اولئك الذين سيطالعونها ويتاملون فيها بمحبة ومخافة الهيبة .

ثانيا : بما ان الرب شاء ورضي ان يكشف ويعلن جهلي وبلادتي امام الجميع ، لا قولا فقط ، ولكن بخط يدي ، لذا آمل ان لا يكون هذا خسرانا وخزيا كما استحقه ، بل عونا لشخصي المسكين ، لكي لا اتكبر بما يظنه الناس فيّ ، واعتبر نفسي ذا قيمة حقا ، كما يحدث عادة لدى الاطفال الاغبياء الذين يتعالون عن جهل عندما يُمتدحون على شيئ لا يملكونه ولا يخصهم بالذات . ان كثيرين والحق يقال ، يصابون عن جهل بهذا الغرور ، لانهم عندما يقول الناس عنهم شيئا ما ، وهم بالذات لا يعرفونه ، يستكبرون ظانين انهم كذلك . لهذا السبب ينظر الرب الذي يريد خير الجميع ، ويكشف احيانا عيوب الانسان الخفية ، لكي يستفيد ذلك الانسان استفادة عظيمة بالتواضع الذي يكتسبه من هذا الكشف .

ونظرا لقناعتي التامة بهذه الامور ، فأني بكل فرح اتقبل التأنيب من الرب ، معلنا غبائي بصوت عال امام الملأ ، لاني عرفت وتأكدت من ان هذا الامر هو بارادة الرب ، غير انه مكسب لي وليس خسارة او عقاباً ما ، حاشا !

ثالثا : اما التدبير الثالث في هذا العمل فهو ان يظهر الرب قوة قدرته وكثرة معونته التي اعتاد ان يظهرها في الضعفاء وغير الكفوئين ، بل وفي البهيمة العجماء والخلائق العديمة الحياة ، كما جرى ذلك في حادث بلعام وأتانه[1] ، وفي تلك الخشبة اليابسة التي اورقت واثمرت[2] ، وفي اشياء اخرى عديدة مشابهة . والان شاء الرب ايضا ان يفعل شيئا مماثلا . فها انه يسرد ويعلن امجاد القديسين بفم لم يتعود قط على الروحيات ، بل على الاباطيل والتفاهات .

فها انني اقْدم ، ورجائي بعونه تعالى ، على هذا العمل الجليل الرائع ، بالايمان الذي يوطد الرجاء ويعدّ العون ، سائلا بالايمان نفسه الرب المسيح منور الجهلاء ، ليعطيني لسانا جديدا وقلبا ينبض حسب مشيئته ، حتى اسرد مناقب هذا البطل ، واخبار قديسين اخرين ادرجها في هذه القصة ، على قدر ما يرشدني الرب حسب ارادة خطته الازلية ؛ وأضع اساساً لكلامي كما قلت ، ذلك الايمان الفريد من نوعه ، اعني لا ايمان عامة الشعب فقط ، ولكن ايمان المؤمن المتيقن من ان كل ما يريده يكون له ، وحتى الجبال يمكنه نقلها كما قال الرب[3] ، واشيّد بنائي على الرجاء الذي به الانسان يجعل اللاممكن ممكنا ، ويجعل الجدران مشابهة لاسسها ، واتخذ ملاذا لي في

١- سفر العدد ٢٢ : ٢٣ .
٢- سفر العدد ١٧ : ١-٨ .
٣- انجيل متى ٢١ : ٢١ .

تشييد هذا القصر الفخم العون المؤيد في الاولى والمساعد في الثانية ، لكي يتكلل بناؤه بالمحبة العظمى فائقة الكل التي هي الله محرك كل شيء .

وحريّ بي ان انّوه في هذه المقدمة ، بأني لا اكتفي بكتابة اخبار الربان (يوسف) ومآثره فقط ، بل وامجاد رجال قديسين عاصروه او سبقوه بزمان قليل ، اولئك الذين سمعت الربان يتحدث عنهم ، وهذا كما انت سمحت لي به يا اخانا الطوباوي ، لتصبح هذه القصة كفردوس زاه زاخر بالمسرات الروحية . وقد اوردت هنا هذه الملاحظة ، لكي لا ينتقدني امرؤ ما عندما يجد انني ادرجت في هذه القصة اخبار آباء اخرين ، وحتى يعرف ايضا انني فعلت ذلك على طلب الذين كلفوني بالكتابة ، بينما لم يكن هذا قصدي في اول الامر ، مثل من يعمل كل شيء حسب رغبة قلبه . ومع ذلك فلا نقص في هذا البتة ، بل فيه فائدة عظمى ومعونة لاولئك الذين سيجدون هذا الكنز الروحي . لانه كلما كثرت الأشجار المثمرة وذات الروائح الذكية اللذيذة الطعم والعطرة بشذاها الهنيء في هذا الفردوس المحسوس ، يتجلى رونقه ، والناس ايضا يلتذون ويتغنون بمباهجه ، وتزداد فوائده فعالية .

فاذا كان هذا الفردوس المحسوس يُمتدح على كثرة اشجاره ، فكم بالاحرى يُمتدح الكلام عن الفردوس الناطق ، فردوس تاريخ القديسين ، المكتظ باشجاره الناطقة المثمرة او ذات الروائح العطرة ، فبعضها يعطي طعما لذيذا حسب نوعه ، وللاخر عذوبة اخرى بحسب رائحته ، ولكل واحدة طعمها الخاص ورائحتها الفريدة بحسب صنفها .

فهذه القصة تشبه فردوساً رائع الجمال ، إن كان محسوسا فهي تشبهه بثمار اشجاره المتنوعة الطعم ، وان كان عقليا كفردوس الآباء القدامى[1] الذي سميته ناطقا ، لأن اشجاره الناطقة تخاطبنا بآلة المداد بواسطة اللسان عضو النطق .

ولو كان يليق بنا لقلنا ايضا ، ان المرء يستفيد باضعاف مضاعفة من فردوسنا هذا ، كاستفادته من فردوس الآباء الاقدمين ، الذين لما استحكم التهاون والاهمال في زمانهم ذاك ، وظهرت كل الدلائل المشيرة الى نهاية العالم ، وبطل الايمان وبردت المحبة ،

١-توجد عدة كتب بعنوان «فردوس الاباء» اشهرها كتاب بللاديوس المتضمن تراجم النساك الغربيين ، وكتاب يوسف حزّايا (الرائي) ويتطرق الى حياة النساك الشرقيين ، وكتاب عنانيشوع الأول (القرن السابع) الذي اخذه عنهما وعن غيرها من كتب الاباء . (الاب البير ابونا ، كتاب الرؤساء ، ص ٨١ ،٨٢ حاشية ٦ ؛ ادب اللغة الارامية ص ٢٨٨) .

برزوا هم كنجوم في وسط الظلام الدامس ، وكانوا كالقناديل ، فاناروا ظلمات زماننا المعتم . واعلم يا اخانا الطوباوي انني لا اذكر جميع مناقب القديس ، انما اكتفي بقسط زهيد كنقطة من بحر اعماله الجليلة ومآثره الفذة ، لانها تفوق الوصف ، وتخرج عن نطاق معرفتي انا الضعيف .

ولا انسى ايها الاخوة ان من يكتب سير القديسين، يحتاج الى الرؤية الروحية ، لكي يتمكن بها من معرفة اعمالهم وامجادهم بنظرة فكره ، من البداية وحتى النهاية ، وحينئذ يضعها في كتاب قدر المستطاع . اما انا الشقي المفتقر الى نظرة الفكر هذه ، فكيف لي ان أطّلع على خفايا رجل اليف سر المسيح لأكتب عنها ؟ . لذا يقتصر عملي على ما سمعته احياناً من الربان نفسه ، وما رايته فيه بام عيني حينما كنت مرافقا له . هذا ما اكتبه واضعه لمحبتكم . اما بقية التفاصيل التي جرت قبل تتلمذي له ، والتي عاشها بالخفاء مع نفسه ساكنا في صمته العميق ، والتي لم يحدثني هو عنها ، فهذه كلها ادعها لمعرفة المسيح ربنا ، الذي اتضرع الى رأفته سائلا طالبا لكي يساعد ويؤيد ويعضد ضعفي وعجزي بنعمته الازلية التي لا تغير فيها ، حتى اصل بأمان الى مبتغاي هذا . وليفض علينا رحمته هنا والى ان ينتهي بنا المطاف هناك ، بصلوات الربان وصلوات جميع القديسين آمين .

صلاة المؤلف

وقد اختلجت لا عن تحضير سابق كأنما هي طلبة ، كلا ، بل كما شاء مدبر الكل بكل ما هو الكل :

ايها الوجود المطلق اسمى الكائنات كلها ، وعلة الكل بما هو الكل ، الذي اظهر حبه للكل ، بما صنعه للكل ، بظهوره العظيم في بكر الكائنات طرا ، الذي يمنح من العلا ما هو خير للكل ، وبحبه الازلي خلق الكل ، وكوّن كل شيء بما هو الكل ، وجعل للكل شبها به في كل شيء عدا طبيعته فائقة الكل ، وبرأفته بالكل انحدر الى الكل ، وعلى يد واحد من الكل خلّص الكل ، ورفع واضعا الكل في مرتبة تسمو فوق الكل ، وكشف بحبه للكل قصده الازلي سابق الكل ، انت يارب الكل ، الثالوث الكلي قدسه ، هب لي انا اشقى واضعف الكل ، ان اعرف سر حبك الخفي عن الكل آمين .

بدفقة من حبك هذا تتقوى نفسي بائسة الكل ، فتنال دالّة تسألك بها يا محب الكل ، ان تريها آية حبك محب الكل .

اجل ايها المسيح مدبر الكل بما هو خير الكل ، علمني انت صلاة اسنى من الكل ، لأتوجه اليك يا عارف الكل قبل ان يكون الكل ، انت معلم صلوات الكل ، ومستجيب تضرعات الكل ، وانت الذبيحة فداءً عن الكل ، والكاهن مقرِّب قربان الكل ، انت علة كينونة الكل ، وانت مرشد الكل بما يحسن للكل ، وانت مُبلغ الكل الى ذلك العالم الشامل الفائق الكل ، وانت العالَم الشامل مجدد الكل ، انت مانح الكمال للكل بدون علة من الكل ، وفيك يقيم جميع الذين هم من الكل ، فيك نعيم الكل ، لأنك انت مُعد السعادة للكل في الكل ، انت يارب مأكل ومشرب الكل ، هنا الى ان نصل الى كمال الكل ، وهناك ايضا ايها المسيح رب الكل ، انت مأكل ومشرب الذين يقيمون فيك من الكل ، وللكل في الكل انت الكل في الكل .

سبحانك من الكل في الكل ، لأن حبك محب الكل ، جذب عقلي من الكل ، اليك انت المقيم في الكل .

رأيتك بنورك يارب ، كيف انت مقيم في الكل وتعمل في الكل ، وكيف ان الكل فيك يقيم وبك يتحرك في الكل ، فانذهل بك عقلي المسبي الى الكل يا مريد الكل ، فعدلت حينذاك عن الكل ، متجها نحوك يا مجدد الكل ومحب الكل .

انت الشاهد العارف الكل في الكل عندما كان الكل ، تشهد يا اصدق الكل ، انني لم اكن ناويا قول هذا الكل ، عنك انت العجيب في الكل ، يا محيي الكل ، الى ان لا يبقى شيئ من الكل ، لا يحيا ويتنعم فيك في الكل ، وانت كما انت في الكل ، والكل في الكل واحد انت كما يشهد الناطق باسمك الصادق في الكل[1] .

لك المجد من الكل مدى الزمن يا محرر الكل ، وحينما تتم الوحدة الكلية في الكل ، آمين من الكل في آمين من الواحد الذي من الكل آمين . اي نعم يا ربنا والهنا ، أسألك متضرعا قدامك ، ان تكون انت رفيقي في طريقي هذا نحو هدفي المنشود . ونجني يا رب من الاعداء الكامنين فيه المتربصين العابثين الراغبين الابادة في كل سانحة ، اقصهم يا رب عن مبتغى قلبهم ، وساعدني في الوصول الى مرمى كلامي ، فاعود وملءُ فمي مجد ولساني حمد ، عن العون الغزير الذي اناله منك ، بانقاذي من الارواح الشريرة وإنجاز عملي حسب مشيئة رحمتك . انت يا رب عارف بضعفي في الحالتين ، انت ساعدني في كليتهما آمين .

١– يوحنا ١ : ١٥ .

ربي والهي ، قلبي الصواني واقسى من الصوان ، ليّنه بماء معرفتك منيرة الكل . ليستفيض بكلام مشيئتك مع القديسين آمين . ايها الرب الاله ، انت المعتاد على اظهار عجائب حكمتك بانواع مختلفة ، انت برأفتك اظهر عظمة حكمتك بجهالتي ، اذ لا شيءٌ فيّ يشبه حكمتك قط آمين .

يا رب على رجائك ابدأ ، لكي انجز حسب ارادتك آمين . ربي والهي اجعلني آخذ بقوتك مما هو خاصتك في القديسين ، وان كان بحجم نقطة صغيرة ، فهي قادرة لأنها منك ، على ان تبرد غليل الكثيرين ، وتروي النفوس منعشة مسمِّنة . اعطني يا رب بطلب منك ان اخذ بك منك ، كسرة صغيرة من مائدة قديسيك ، لأشبّع بك الجياع انت الخبز الحي آمين . انا عارف يا رب ، ان كل ما هو خاصتك ، هو لك بدون علة ، ولست بحاجة الى الصلاة التي تضعها انت على فم الطالبين ، الا لأن حبك هكذا شاء وأمر ، ان يقدّم لك مسبقا ما هو من خاصتك ، وحينئذ تمنح انت بخاصتك ما هو من خاصتك ، وهذه ايضا علامة مؤشرة الى حبك الازلي . اذن اعطني يا رب من خاصتك ما فيه ما هو من خاصتك ، اعطني ما هو مثل خاصتك ، لاقدّم لك من خاصتك ، ولآخذ بخاصتك من خاصتك آمين .

ربي والهي وانا عارف ايضا انه بدونك ليس احد قادرا بقواه الخاصة على عمل شيء البتة ، لان كل شيء انت تعمله كما تشاء وكما عرفت منذ الازل . نعم يا رب كما تعرف وتريد انت ، لا بل كما عرفت وشئت حسب ازلية علمك وارادتك ، ألاضع بالفعل ما اردته ، لانني لا اعرف ماذا اسأل ولا كيف . يا رب سامح عبدك واغفر له برحمتك لانه تجرأ وتكلم قدامك .

– انتهت الصلاة –



الفصل الاول

في بلد الربان يوسف ، ومسقط رأسه ، والوالدين المؤمنين اللذين انجباه ورbياه ، وسلوكه في العالم ، وخروجه الى الرهبنة . يارب ساعدني واعضدني برحمتك امين .

من سار في طريق غير سالكة يلقى معاثر جمة ، وقد لايصل الى الوجهة التي يقصدها . اما من سار في طريق سالك طرقه كثيرون فاطلعوا على سبله المختلفة ، تكون اثار اقدامهم بمثابة اضواء له . فيسير وكأنه بصحبتهم وهم له دليل ، فيصل دون عناء التيه الى الموضع الذي ينشده ، والذي من اجله يتحمل تعب الدرب .

وكما ان جميع الذين سلكوا سبيل تأليف القصص ، تراهم يتكلمون اولا عن بلد ذلك الشخص وقريته ووالديه ، مثلما تعلموا هم بدورهم من الكتب المقدسة ، كذلك ينبغي لنا نحن ايضا ، وارتأينا ان نبدأ الكلام عن بلد الربان وقريته ، والوالدين اللذين انجباه وعلى يدهما تربى ، لئلا نشوه هذه القصة ، اوشيئا من مآثر والديه المؤمنين الحقيقيين . ولايعني هذا اننا بذكر البلد اوالقرية نحظى بمكافأة اكبر عند الله ، اونكون منه اقرب او ابعد ، انما هكذا شاء مدبرنا الكلي الحكمة ، اذ ان موطننا واحد جميعا ، ذاك الذي منه خرجنا ، وفيه نسير ونوجد ونقيم ونحيا ونتحرك ، [١] واليه نعود لنبقى فيه . قلت الذي منه خرجنا ، وليس من الطبيعة ، كما يدعي الاشرار اتباع فيثاغورس اليوناني ، [٢] كلا ! ولكن من موطن الله السني ، الذي اليه يعود كل شيء اينما هو ، وفيه يقيم الكل في الكل . ومن يقرأ فليفهم .

والان نتكلم عن بلد الربان وقريته كما قلنا .

في بلد معروف باسم باعذرا [٣] ، يوجد قرية مشهورة في المنطقة كلها تدعى بابوسا ، كانت مزدحمة باناس مؤمنين واتقياء ، ومزدانة بالفضائل الالهية والايمان

١- اعمال الرسل ١٧ : ٢٨ .

٢-احد حكماء اليونان (القرن الخامس ق.م) قال بتناسخ الارواح .

٣-قرية تبعد حوالي ٣ ساعات الى شرقي ناحية القوش ، سكانها يزيديون.والكاتب يذكرها هنا نظرا لاهميتها على الصعيد الديني اكثر من القوش في القرن العاشر . وفي مقدمتنا راينا ان بابوسا هي بوزان الحالية .

القويم ، وجميلة جداً بالمناظر الطبيعية ايضا . ولم يدخل اليها شيئ من ظلام الضلال القائل بالكذب عن الله .[1] اما والده فانه بسابق علم الله الذي يعرف كل شيئ قبل ان يكون ، وعرف الثمار التي سيعطيها ، وانه مزمع ان يكون بايمانه مكرما حقا عنده تعالى ، فكان يدعى يقيرا (كريم) هذا الاسم الذي يليق به ويحق له . فانه كان كريما بالحقيقة وكريما حقا . وبمن يليق هذا الاسم ياترى الا بمثل يقيرا هذا ، الذي كان مزدانا باعمال الصلاح . وقد ترك في هذا العالم ثمارا كريمة عند الله ، كنوزا ناطقة وثمينة ، اضحى بها كريما في هذا العالم وفي العالم الاتي .

اما والدته فكانت تسمى عُمرونا ،[2] هذه التسمية التي اتتها هي الاخرى بتدبير الهي . لانها كانت بحق عمرا (مسكنا) مزدوجا ، عمرا للايمان القويم ، وعمرا للاعمدة النيرة التي اشرقت منها وظهرت في العالم ، وسطع نورقناديلهافي الكنيسة المقدسة .

طوبى لك ياعُمرونا ، وطوباك حقا ، لانك كنت مسكن الصديقين الذين ولدوا منك باتحادك مع زوجك السعيد يقيرا الكريم عند الله ، الذي بسابق علمه وحكمته غير المتناهية وحّد بينكما لتكونا معا .

كان هذا الرجل والمرأة بارين قدام الله ، عائشين في القداسة بلا لوم . ولم تثنهما مودة العالم عن ممارسة الفضيلة . وكانا في العالم بحكم اقامتهما فقط . اما في سلوكهما فقد اقتديا بالاباء الابرار والصديقين . وكانت افكارهما مافوق العالم متعلقة بالله ، ودأبهما محبة المساكين والترويح عن المتضايقين بكل مخافة الله التامة . اذ من هو الفقير الذي لم يشبع جوعه من زادهما؟ اومن هو المرهق والكئيب الذي لم يجد في دارهما الراحة والسلوان؟ .

ان الربان كان يروي لي عنهما امورا كثيرة مدهشة قائلا انه لم يدخل الى القرية شخص وله حاجة ما الاوكانا يسدان حاجته ، ويوزعان القوت على جميع فقراء قريتهما . وتربطهما في هذا العمل محبة صادقة واتفاق تام . كما انهما كانا يقتاتان من اشغالهما كاحد الفقراء والمساكين .

وكانا يقومان بجميع حاجات كنيسة القرية ، كالقمح وزيت القناديل وغيرها . كما ان اقامة الكاهن والمعلم في القرية كانت بضيافتهما وفي دارهما . وفي موسم جمع الغلات

١-يشير الكاتب هنا الى مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح .

٢ -عُمرونا سريانية ، وهي تصغير عومرا : مسكن ، عمر . وفي الأصل وردت خطأ ، والصحيح ان تكتب بضم العين وتسكين الميم ووضع الالف مكان الهاء : عومرونا .

الى البيد رصيفا ، كان والده يقيرا ينتقي بيديه سنابل الحنطة ويدقها وينقيها فوق بساط خاص ، ويخزن منها للكنيسة الكمية اللازمة لطول السنة .

وحكى لي الربان مايلي : كان لهم كوارة كبيرة يضعون فيها الحنطة التي كان والده يفركها بيديه ويعدّها لخبز القربان كفاية للسنة كلها . وكان يقوم بهذا العمل بحرص بالغ ، لئلا يؤخذ لخبز القربان من الحنطة التي تدوسها الدواب .

وقال لي الربان : عندما كان والده يريد طحن الحنطة لخبز القربان ، كان يصطحبه معه الى الرحى ، وحال خروجهما من باب الدار ، يأمره ليبدأ بتلاوة المزامير ،[1] ولاينقطعان عن التلاوة طوال الطريق . وحين وصولهما الى الرحى ، يأمره بالوقوف على رجليه وهو يرتل المزامير ، ولايدعه يجلس اويستريح قليلا . اما هو فكان ينظف جوانب حجر الرحى ، ويسكب الحنطة في الدلو ، ويجمع الدقيق ، دون ان يسمح لاحد بالدنو منه بتاتا . وبعد تعبئته في الجوالق كانا يرجعان الى البيت بتلاوة المزامير ايضا طوال الطريق . يالحرص هذا البار والصدّيق ، وعنايته باحترام الاسرار المقدسة .[2] وروى لي الربان عن يقيرا ايضا انه عندما كان يدخل الى الكنيسة لصلاة العصر والليل والقداس ، كان يقف خاشعا في وسط الهيكل ، ولايقترب من الجدران ، بل يسند ابهام رجله اليمنى على ابهام الرجل اليسرى ، ويستمر على هذه الحال اثناء صلاة العصر اوالقداس اوالليل مهما طالت ، وخاصة في الاعياد والتذكارات ، دون ان يحوّل هذه الابهام عن الاخرى حتى نهاية الصلاة . وبهذه الصورة اللائقة كان يقف امام الرب ، مقربا له بقلب نقي افضل ذبائح شفتيه .

نعما لجهود هذا الصديق كم انها عظيمة ، وكم كان يقظا متهيئاً حين مناجاته الله بلغة صلاته ، حتى ان كثيرين من الرهبان المجدّين كانوا يتصاغرون ازاء هذه اليقظة ومافيها من عناء .

من كان يطيق الصبر على عناء كهذا في صلاته ، اذا لم يكن اثناءها مأخوذا بالله ومشدود النظر اليه دون انتزاع ! .

١-المزامير : مفردها مزمور ، وهي اشعار دينية نبوية رائعة عددها ١٥٠ مزمورا ، تنسب معظمها الى داود النبي (القرن التاسع ق.م) وتشكل سفرا من اسفار الكتاب المقدس العهد القديم . وتتلو منها الكنيسة في صلاتها يوميا .

٢-الاسرار المقدسة مصطلح ديني مسيحي يراد به هنا الخبز الذي يقدسه الكاهن اثناء صلاة القداس ، على مثال السيد المسيح (راجع انجيل متى ٢٦ : ٢٦-٢٨ . مرقس ١٤ : ٢٢-٢٤ ؛ لوقا ٢٢ : ١٩-٢٠ ؛ اولى قورنثية ١١ : ٢٣-٢٥) .

وحكى الربان اعجوبة مذهلة اجراها الرب على يد هذا الرجل وهذه المرأة المباركة اللذين باركهما الرب ، فقال : في سنة من السنين حدث قحط في البلد ، بحيث ان كثيرين ماتوا جوعا . اما والده فكان يتألم جدا من اجل الفقراء ، فقدم للجياع كل ما كان لديه من مؤن ، ولما لم يبق له شيءُ سوى ان ياخذ من حنطة خبز القربان ويطعم الجياع ، دعا يوما قرينته المباركة وقال لها : «ان السبت جُعل للانسان وليس الانسان للسبت»[1] . كما ان القرابين والذبائح من اجل الناس تقرب ، وها انك تشاهدين بعينيك ضيق الناس من الجوع ، فاسرعي ياختي الى حنطة خبز القربان المحفوظة في الكوارة وأتي منها بخمسة اكيال لنطحنها للفقراء . فذهبت المؤمنة الواثقة برجائها الراسخ واخذت من حنطة الكوارة خمسة اكيال واعطتها لقرينها البار . ثم طلب منها خمسة اكيال اخرى فأتته بها . وطلب مرة ثالثة . وكررا العمل عدة مرات . اما المرأة المؤمنة ذلك الايمان الذي ينقل الجبال ، فكانت في كل مرة ترسم على الكوارة علامة الصليب المظفر قبل ان تأخذ الحنطة ، وبعدئذ تأخذ الكمية المطلوبة ، وفي كل مرة كانت تجد الكوارة ممتلئة لم ينقص منها شيءُ . وحدث هذا مرارا وتكرارا . اما زوجها فلما رأى ان عدد اكيال الحنطة ارتفع جدا ، وان امرأته لاتبوح له بشيءُ سوى انها تأتيه بالكمية التي يطلبها ، ذهل لهذه الظاهرة ايما ذهول ، وعلم ان في الامر اعجوبة ، وان يد الله تضع البركة في الحنطة لكي يقتات منها الفقراء والجياع على يد هذا البار ، فدعا زوجته وقال لها : ماهذا الامر العجاب الذي اراه في الحنطة؟ ان الكوارة تسع كمية معلومة ، وها انك اخرجت منها اضعاف ماتسع ، ماذا حدث؟ اطلعيني! . فقالت له زوجته : لاتسأل عن شيءُ . ولاتضطرني في الامر على كشفه! اطلب كمية الحنطة التي تريدها ، وانا آتيك بها . فاردف زوجها : يامرأة لاتخافي من ان تبوحي لي بحقيقة الامر ، لأن الرجل وامرأته جسد واحد كما يقول المخلص ،[2] فاطلعيني على حقيقة الحادث لكي نتخذ فيه الاجراء اللازم . حينئذ اطلعته على ما كان يجري ، وكيف ان الرب وضع البركة في الحنطة ، بحيث انها مهما اغترفت منها كانت تجد الكوارة ممتلئة ثانية . فتعجب بهذا ومجد الله الرحمن على موهبته . ثم قال لزوجته : احفظي هذا السر ، واحمدي الله على نعمة الوافرة لنا . وقد مر ذلك الشتاء الذي استحكم فيه القحط ، وهما يوزعان على المحتاجين من حنطة البركة هذه ، حتى ان اهالي القرية كانوا يتعجبون ويتساءلون : من اين ليقيرا كل هذا القمح الذي يوزعه ويطعمه للفقراء .

١- مرقس ٢ : ٢٧ .
٢ - متي ١٩ : ٥ .

وهذه القصة سمعها الربان من والدته بعد وفاة والده ، لانه عقب موت والده ، بنى لاخوته دارا كبيرة واسعة ، وفيما هم يحوّلون الاثاث قال الربان : دخلت الى الغرفة التي كانت فيها كوارة الحنطة ، فدحرجها والقاها ارضا ، فلما رأت والدته انه ينوي كسرها ، صرخت بصوت عال وقالت له : الويل لنا يابني! ماذا فعلت ، كأنك اليوم اقدمت على جريمة قتل! . فقال لها الربان : ولماذا؟ قولي لي الحق ، والاحطّمتها تماما! . حينذاك كشفت له والدته على مضض السر الذي كان في حادث تلك الكوارة .

اما انا الشقي ، فالرب شاهد عليّ انني كتبت هذه الاعجوبة التي اجراها على يد هؤلاء الناس المؤمنين ، كما سمعتها من فم الربان نفسه . ولكن ايها الاخوة ، ماالفرق بين هذه الأعجوبة ، وتلك التي اجراها الرب في ايام ايليا النبي ، [1] حينما جعل القمح لاينقص في جرة الارملة التي كانت تطعم النبي . وان جاز لنا القول لقلنا ان هذه الاعجوبة هي أعظم من تلك من حيث نوعها . لان تلك الاعجوبة جرت على يد نبي الروح ، وفي زمان كانت تظهر فيه الآيات . اما هذه فقد تمت على يد اناس منشغلين بالارضيات ومرتبطين بالعالم وتربية البنين ، وفي زمان خلا من الآيات . ولايغيب عن ذهني ، بمقتضى اسلوب الكتابة أن يأتي كاتب القصة بمدح مابعد كل خبر يذكره ، وبأمثلة من كتب القديسين التي تعقّب بتقريظ لائق على كل خبر توردهو ويأتي ايضا من الكتب المقدسة بتشابيه مناسبة له . غير اني لم استعمل هذا الاسلوب لسببين : الاول هو انني والحق يقال ، لااملك فصاحة الكلام ولا الثقافة الكافية . والسبب الثاني ، لئلا تطول القصة وتخرج عن الحد المعين لنا وهو ان نكتبها بايجاز . ومن يريدها مفصلة ، فيمكنه الاطلاع عليها في قصص سابقة الّفها كتاب ملافنة وادباء . اما نحن فلاحاجة لنا بكتابة ماكتبه اخرون قبلنا . غايتي هي كتابة سيرة القديس ، ومناقب قديسين اخرين عاصروه . ولانروم كتابة غيرها والتباهي بها . نحن نتكلم كلاما بسيطا مع بسطاء مثلي . فمن راقت له قصتنا فليقرأ فيها . ومن كانت معرفته اسمى منها ، فليدعها للجهلاء مثلي ، وليصلّ من اجلنا بمحبة .

ونعود الان الى سياقة كلامنا ، ونسير في الطريق الذي حدنا عنه . فمن هذين الوالدين البارين نبت هذا الفرع المبارك الذي نتحدث عنه . وكان لوالده يقيرا اربعة بنين وبنت واحدة ، وكان الربان أكبرهم سنا . وقد اعتنى والده بتنشئته كل العناية

١- سفر الملوك الثالث ١٧ :٨-١٦ .

المتوجبة على الاباء في تربية اولادهم. وخصص له معلما ماهرا يقيم معه في البيت لكي يثقفه ثقافة عالية. فتفرغ له المعلم، الى ان تخرج وتثقف واضطلع واستنار في العلوم الدينية كلها.

اما والده فقد نقله الله حسب مشيئة رحمته من الموطن الذي ليس موطنه الى الموطن الحقيقي، وترك اخوة الربان اطفالا بأمس الحاجة الى معيل يهتم بهم. واذ كان الربان اكبرهم سنا، فقد اخذ على عاتقه مسؤولية تربيتهم واعالتهم، والقى بنفسه في ميدان العمل والكد الكثير، ورباهم في مخافة الله، الى ان اصبحوا شبانا قادرين على العمل لكسب معيشتهم.

وكانت شقيقتهم أصغرهم سنا، مزدانة بمخافة الله والعفاف. وكان الربان يحبها حبا جما نظرا لمحبتها للفقراء. وحين كان والدها بعد على قيد الحياة، لم تكن تكتفي بما كان يعمله لهم، بل كانت تأخذ بالخفاء مايقع تحت يدها، وتعطيه لأخيها لكي يوزعه عليهم.

بعدما وصل الربان بأشقائه وشقيقته الى سن البلوغ، تحركت في قلبه الدوافع الصالحة التي طبعها الباري تعالى في طبيعتنا، والتي بايحاء منها نحب الخير ونكره الشر. واشتدت وطأتها عليه بحيث مقت العالم وكل مافيه، حتى انه نحّى عن فكره اخوته وامه. فدنا منها وقال لها: اماه، هاان ابناءك اضحوا رجالا بعون الله. فانا اريد الآن ان انطلق الى دير الرهبان وارتدي ثوب الرهبنة.

بكت امه في الحال وقالت له بكآبة: مادمت على قيد الحياة، لا ادعك يابني تقدم على هذا العمل!. اما هو فسكّن من روعها. منتظرا فرصة مؤاتية لنيل مبتغاه. وبما انه كان يلهج بشغف في وصايا شريعة الرب الروحية. ويفكر متأملا بقوله القائل: «من لا يترك الوالدين والاخوة..»[1] كان يشتد ويضطرم فيه لهيب النار الالهية التي القاها الرب يسوع[2] في قلوب محبيه، ولم يقدر على مقاومتها، فخرج ليلا دون علم احد، وصعد الى دير القديس الربان هرمزد. ولما علم شقيقه الاصغر منه واسمه جبرائيل بما فعله الربان، وكان هو الاخر قد شبت في نفسه نار يسوع، فرّ وراء اخيه الى الدير، وسبقه ودخل الى غرفة المطبخ.[3] فلم تقو والدتهما الارملة الأن اسرعت الى الدير باكية

١- لوقا ١٤: ٢٦.

٢- لوقا ١٢: ٤٩.

٣-كان يفرض على طالب الدخول الى الدير. الاقامة ٥٠ يوما في غرفة المطبخ دون ان يخالط الرهبان، كما سياتي ذكره.

منتحبة ، وهي تنتف شيبها ، حزنا على هذين النسرين الجبارين الذين طارا من يديها . ولما وصلت الى الدير امسكت بالربان بكلتا يديها وبكت بكاءً مرا امام ذلك الجمع المبارك كله ، ملتمسة اشفاقهم عليها . في هذه الحال طلب الرهبان من الربان ان يرجع مع والدته البائسة المهملة . وهو بدقة بصيرته وصفاء ذهنه لم يستحسن ترك والدته على تلك الحال من الضيق والكآبة العميقة ، فنزل عند طلب الرهبان وعاد مع والدته الى القرية . غير ان جبرائيل اخاه لم يركن الى ملتمسها ، لكنه مكث في الدير مع المبتدئين ولبس ثوب الرهبنة المقدس . وقد تعزت والدته بهذا ، لانها وجدت عونا لها بابنها الاكبر الذي رجع معها . ورغم ذلك لم ينقطع عن الصلاة طالبا من الله ان يضع في قلبها فكرة السماح له بالانطلاق الى الرهبنة . والرب العارف بمستقبل هذا الرجل ، وبانه اناء منتخب لوقار اسمه القدوس ،[٤] القى على والدته خوفا عظيما لم تتمكن من مقاومته ، وخشيت جداً من حكمه ، ولم تعارض مشيئة الله . فأنها بعد عودتهما من الدير بايام قليلة ، استيقظت في احدى الليالي مرتجفة مضطربة تحت وطأة الخوف الذي القاه الرب عليها ، ودنت من حيث كان الربان نائما ، وايقظته حالا قائلة له بوجل : قم يابني واذهب الى الدير بسلام ، والرب الاله يكون معك ويسهّل الطريق قدامك ، ويصل بك الى مقصدك المبارك الذي تبتغيه ، ويعينك ويؤيدك ويساعدك جميع ايام حياتك ، وانا الكئيبة الروح يعزيني برجائه ويعطيني الصبر على هذا الألم القاسي الذي اعانيه بفراقكما عني .

فنهض الربان وعانقها بفرح عظيم واسرع بالذهاب الى الدير ، شاكرا الله ومتعجبا مما جرى .

ولدى دخوله دير القديس الربان هرمزد ، قبله ذلك الجمع المبارك بكل ترحاب . فباشر مدة الابتداء حسب القانون ،[٢] وانكب على حياة الجد والنشاط بكل همة وتيقظ ، طيّعاً بمخافة الله لكل ماكان يؤمر به ويقال له .

وكان في الدير شيخ مشهور بسيرته الفاضلة وسجاياه الحميدة العالية ، وخبير بارز بفنون الحرب التي يشنها الاعداء الكامنون في الحياة الرهبانية ، اسمه الربان مارن زخا ،[٣] فتقدم الربان يوسف من هذا الشيخ الطوباوي ، وسلّم بيديه زمام نفسه الزكية ، لكي يوجهها حسبما ترشده النعمة المدبرة لكليهما ، وتتلمذ عليه واخذ يسلك

١- اعمال الرسل ٩ : ١٥ .
٢ -كانت مدة الابتداء سنتين او ثلاثا . وقد تمتد الى اربع سنوات كما تقتضيه حالة المبتدئ حسب رأي المرشد .
٣- مارن زخا سريانية تعني الرب انتصر .

حسب امره . لان الربان مارن زخا قبله بكل فرح وقرّبه منه ، وعلّمه كيف يجب عليه ان يسير في طريق الابتداء ، وكيف يضع الاساس لبناء برجه ، اعني على الطاعة البسيطة التي تلد التواضع المزين بكل الفضائل ، والتي بدونها ليست الفضائل فضائل . ثم ارشده وزوّده بالصلوات وارسله الى قسم الابتداء . ولم يحد الربان يوسف عن وصية الشيخ ، حتى في الامور التي تعتبر صغيرة . وقضى مدة الابتداء كاملة بكل مقتضياتها وقوانينها الجميلة . فاكتسب الطاعة الكاملة ، بحيث انه لم يكن يطيع ذوي الامر والوكلاء فقط بل والصغار ايضا ، والذين كان أقدمهم في الابتداء . فمن كان يأمره بشيء ، كان هو يستبق الامر الى تنفيذه بكل وداعة وتواضع وهدوء رزين . وعوّد نفسه على مخاطبة الجميع بلين الكلام . ولم يكن يسمح قط لنظره بأن يطيش هنا وهناك . وكانت مشيته هادئة متزنة . ولم يمدد جسمه ابدا على الارض لينام ، بكل كان يسند ظهره الى الجدار ، وبهذا الشكل يخطف غفوة قصيرة من النوم .

لم يره احد فرحا خلاف الاصول ، ولاحزينا جدا. تعوّد على الصوم الدائم ، الصوم حتى العصر ، وحينها يتناول شيئا قليلا من طعام بسيط . ولم يتخلّ عن زهده من يوم دخوله الابتداء . ولم يزهد فقط في الاطعمة الدهنية ، بل زهد في الطبيخ العادي والخضر ايضا .

وكان معنيّا بالصلاة ليلا ونهارا دونما انقطاع ، ينفرد وحده في الليالي ويصلي ساهرا الى ان يحين وقت الصلاة الجماعية في الابتداء .

وحكى لي الربان انه في ليال عديدة كان يريد ان يصلي وحده ، فينتحي هذه الجهة اوتلك من الدير ، فحيثما يتوجه كان يلقى مبتدئا واقفا يصلي ؛ فيدخل حتى بين الثيران ، وهناك ايضا يجد مبتدئا واقفا يرتل . فكان يضطر احيانا الى الخروج من الدير الى القفر ليكمل صلاته وسهره . وكانت بغية الربان من سرد هذه الاخبار ، الاشادة بتقوى المبتدئين ، وبحماسهم في ذلك الزمان . وكانوا جميعا متعلقين به ، فيلقنهم المزامير والتسابيح . وكل من يلقنه شيئا كان يبادره مسبقا بهذه الكلمة : سامحني ! وبعدئذ يعلمهم باهتمام بالغ ومحبة صادقة .

على هذا المنوال ختم عمله في الابتداء ، واضاف على السنين القانونية الثلاث المقررة سنة اخرى حسب وصية الشيخ معلمه .

كان جميع الرهبان مسرورين ومعجبين به ، ويباركونه قائلين : ترى ماعساه ان يكون رجل الله هذا .

حين دخل الابتداء كان في العقد الثالث من عمره . وبعد ماكمل سعي السنين لاربع في الابتداء ، سمح له مرشده بالخروج الى الصومعة . فاستعد لها كما اوصاه الشيخ .

الفصل الثاني

في خروج الربان من دير الابتداء الى الصومعة ، وذهابه الى الربان ايشوع الكوماتي ،[١] ومثابرته على العلوم الدينية ، وكيف اختير عدة مرات لدرجة الاسقفية فامتنع . اشفق يارب بصلواته على الكاتب الشقي .

ان الله صنع الانسان هذا الاناء العجيب الناطق صورة الخالق له السجود ، صنعا مزدوجا ، اي من عنصرين غير متشابهين ، هما الجسد الاعجم والنفس الناطقة العاقلة ، وجعله في العالم كصورة الملك التي توضع في عاصمة مملكته ؛ الى ان يصبح شبيها بنموذجه ، وحينذاك لايعود بعد صورة ، بل انه صورة في النموذج ونموذج في الصورة ، وذلك عجبٌ عجاب لايمكن تفسيره ولامعرفته .

لذا فقد سنّ الله للبشر شرائع وقوانين لكي يسلكوا بموجبها ، فيصبحوا حقا على صورة خالقهم ومثاله ، لابل ابناءه ، ابناء ميراث يسوع المسيح ربنا والهنا .[٢]

وبما ان الانسان مركب كما قلت من الجسد والنفس ، فهو على صعيدين من العمل ، وضعتهما له الشريعة الروحية والوصايا الالهية ، التي بها يصبح رجل الله كاملا وبالغا الى ملءِ قامة المسيح ربنا[٣] .

فالصعيد الأول الذي يرفع الانسان الى المرتبة الثانية في الكنيسة هو العمل في العلوم الدينية حبا بالمسيح .[٤] يقول الرسول القديس[٥] (بولس) : «وضع في كنيسته اولا رسلا وانبياء ، وبعدهم معلمين . . .» .

اما الصعيد الثاني فهو حياة الصمت والصومعة في عزلة تامة ، هذه الحياة التي تسمو بالانسان فوق كل المراتب ، وتمزجه بالمسيح ربنا . فيصبح الانسان ، المسيحَ الذي ضحى بذاته قربانا لله ابيه من اجل العالم كله .

١- سيأتي الكلام عنه في الصحائف التالية .

٢- رومية ٨:١٧ .

٣- افسس ٤:١٣ .

٤-حسب فكر المؤلف ، العمل اليدوي هو المرتبة الاولى في الكنيسة .

٥- اولى قورنيثة ١٢:٢٨ ، بتصرف .

لكن العمل على الصعيد الاول صعيد العلم ، فهو مرشد وطريق يوصل الى الثاني اعني الصمت في الصومعة .

وهذا الوصول لايتسنى للكل ، انما قلة هم اولئك الذين وُجدوا بين الأباء كاملين على الصعيدين ، اعني في العلم والعزلة التامة . ومن وُجد في كليهما فقد دعي كاملا . ولست اقول ان المرء لايمكن ان يكون كاملا في العزلة بدون العلم ، انما اقول في كليهما يدعى كاملا . كيف اجرؤ على هذا القول ، في حين ان معظم الاباء كانوا قليلي المعرفة واميين في علم الكتب ، كالانبا انطونيوس ،[١] والانبا مقاريوس ،[٣] والانبا بولس .[٣] واخرون امثالهم ، اولئك الذين بلغوا الكمال في بساطتهم ، بروحية عميقة تفوق العلم كله والعالم وكل مافيه . ولكني اسمي كاملا ذاك الذي هو على الصعيدين تماما . كما سمي الاباء القديسون الذين وُجدوا هكذا . كالقديس اواغريس ،[٤] والانبا مرقس المتوحد[٥] الذي كان الملاك يناوله القربان من المذبح اجلالا لعظمته . وكأمثال مارغريغوريوس[٦] ومارباسيليوس ،[٧] ومار يوحنا ،[٨] ومار المفسر ،[٩] اعمدة الكنيسة هؤلاء الملافنة العظام والرهبان الكاملين المجدين والبارعين على كلا الصعيدين . فمن اهّله الله لكليهما ، يحمل في ذاته الوزنات العشر بعددها الكامل ،[١٠] التي ربحها بجهود مضاعفة ، مضيفا خمسا على خمس ، والناتج عشر (وزنات) هذا العدد الكامل والمتمَّم .

١-هو القديس انطونيوس الكبير ابو الرهبان (+ ٣٥٦) ولد في مصر ، وتنسك في الصعيد . وسن قانون الحياة النسكية المعروف باسمه .

٢-ناسك مصري شهير في القرن الرابع الميلادي .

٣-بولس هو معلم انطونيوس الكبير.

٤-ناسك مصري آخر في القرن الرابع الميلادي .

٥-مرقس المتوحد عاش في برية نيترية بجوار الاسكندرية في نهاية القرن الرابع .

٦-مارغريغوريوس ملفان الكنيسة وبطريرك القسطنطينية ، عاش حياة نسكية (+ ٣٨٩) .

٧-هو القديس باسيليوس (٣٢٩-٣٧٩) اسقف قيصرية قباذوقيا ، من اباء الكنيسة ومعلميها العظام ، اسس الحياة الرهبانية المشتركة في الشرق .

٨-مار يوحنا فم الذهب (٣٤٧-٤٠٧) اسقف القسطنطينية ومعلم الكنيسة القديس ، اشتهر بخطبه ، مارس مدة الحياة النسكية .

٩-المفسر هو تاودورس المصيصي (+ ٤٢٩) ولقب بالمفسر لانه كتب شرحا للكتاب المقدس ، ووضع واحدا واربعين كتابا . (البير ابونا ، كتاب الرؤساء ص ٢٢١ حاشية ١) .

١٠- متي ٢٥ : ١٤-٢١ .

تذكّر ماقلته سابقا ان الانسان مزدوج في خلقته ، لذا فأن انسان الله يعمل في العلوم الدينية بالحواس الخارجية الى ان تبلغ الكمال ، وتقرب للملك الذي هو في باطن الذهن بمثابة الله الساكن فيه ، وكل هذا يتم في حياة العزلة والصمت في الصومعة ، فيعمل الانسان روحيا بالحواس الباطنية ، الى ان تؤلف الخمس والخمس عقدا واحدا ، فيصبح الذهن الهاً ، ويقرّب (لله) الذي في باطنه قرابين وذبائح لامن البهائم ولامن الحواس الخارجية ، ولكن قرابين وذبائح فكرية وروحية وفائقة الطبيعة .

فلعقد الوزنات العشر الكامل هذا ، اختار الله بسابق علمه المطلق هذا الرجل العجيب الذي نتحدث عنه ، واعده للعمل على كلا الصعيدين اللذين يوصلان الى الكمال ، حسبما شاء الرب وعلم ان ذلك يكون خيرا له .

فلما انهى الربان سعيه في الابتداء كما قلت اعلاه ، واراد الخروج الى الصومعة ، قدّم قربانا لله الذي قوّاه ، واقام صلاة السهر ، وطلب الصلاة من ابائه واخوته الروحانيين ، وتزود من صلواتهم بكل المعونات ثم انطلق الى صومعته .[1]

في تلك الايام انتقل الشيخ المبارك الربان مارنزخا من الحياة الزمنية الى جوار ربه الذي ارضاه ، وهو متوج بتاج الكمال الروحي ، ومزدان بكل الفضائل الالهية ، وتوفي في شيخوخة عميقة عن عمر ناهز المئة والخمسين سنة ، طيب الله ذكره ، وصلواته علينا جميعا امين .

فلما رأى الربان يوسف انه قد حُرم من معلمه الوقور الشيب ، لم يرد ان يدير نفسه بنفسه ، لكنه بعد ايام قليلة قصد الربان ايشوع المعروف بالكوماتي ، وكان هذا الطوباوي احد تلاميذ الربان يوحنا الخلفتي ،[2] وقد تتلمذ للحياة الرهبانية في دير الربان هرمزد . ولما توفي الربان يوحنا معلمه ، الذي سنأتي على ذكر مآثره ، خرج

١-في مكتبة دير السيدة (القوش) وحاليا في دير الرهبان الكلدان - بغداد ، الدورة . كتاب من تأليف شمعون طيبوثه ، رقمه ٢٣٧ حسب ترتيب فوستي ، يبحث في تفسير اسرار الصومعة ، ويحتوي على صلوات خاصة كانت تتلى لدى مباشرة الناسك حياة العزلة في الصومعة .

٢-خلفتا هي خلفت الحالية ، الواقعة شرقي الخازر على نحو ٢٥ كم غربي عقرة .

الربان ايشوع من الدير ، وذهب الى احد الجبال الشمالية المسمى «كومتا»[1] والذي باسمه دعي الربان يشوع الكوماتي ، اعني باسم الجبل الذي كان ساكنا فيه ، واقام هناك سنين عديدة . ولما شاخ ووهنت قواه ، نزل الى دير القديس الربان افني مارن ،[2] وهناك انهى شوط سعيه المجيد .

فقصد الربان يوسف هذا الاب الروحي ، واطلعه على شؤونه كلها ، وطلب منه المشورة لكي يقيم في الخلوة .

وكان الربان ايشوع قد اعتاد على ان يقول لمن يستشيره في امر من الامور : «انتظر يابني ريثما اصلي ، وما يأمرني به المسيح اقوله لك» وبهذا القول عينه بادر الربان يوسف . فلما قدّم الربان ايشوع الصلاة ، اوحي اليه من قبل الرب ، ان الربان يوسف إناء جدير للعمل على صعيد العلم والعزلة كليهما على حد سواء ، وان مشيئة الرب هي ان يعمل اولا في علم الكتب الدينية ، وبعد ذلك يدخل في العمل الكبير ، اي الصمت المغلق . فقال له الربان يشوع : يابني ليكن معلوما لديك ان المسيح يريد ان تكتسب العلوم الدينية اولا ، وبعد ذلك تدخل حياة الصمت في الصومعة .

واذ خشي الربان يوسف من ان انشغاله بالعلم قد يثنيه عن العزلة ، قال للربان يشوع : سيدي ، انني اطلب الاقامة في الصمت ، فكيف تأمرني بالدراسة ايضا ، هذا مالايتفق وسيرة الصمت» .

١-كومتا ، سريانية ، معناها اما الحبة السوداء (من التوابل) واما مؤنث اسود ، وهذه بالسوادية . ولعل جبل كومتا قسم من جبل كارا الواقع الى جنوب العمادية . وكان هناك دير يذكره ياقوت الحموي (١١٧٩-١٢٢٩) في معجمه جـ ٢ ص ٦٦٠ حيث يقول : «دير كومَ قريب من العمادية من بلاد الهكارية من اعمال الموصل ، بالقرب منه قرية يقال لها كومَ نسب اليها الدير وهو عامر الى الان» . وفي المنطقة حاليا قريتان اسمها مشتق من كومَ ، احداهما قرية كوماني (كواني) الحالية الواقعة على بعد ٣كم الى شرقي العمادية . والى جنوب كوماني مباشرة وعلى بعد ٧كم تقريبا تقع قرية اخرى تدعى ديرش ، وهذه صيغة كردية معناها : الدير الاسود . يسكنها اكراد وفيها صوامع منقورة في الجبل ، يطلق عليها اهالي القرى المسيحية هناك اسم «مارساوا» والى هذا اليوم يزورون هذا الموقع في شهر تموز من كل سنة . (هذه المعلومات افادني بها اهالي كوماني . راجع ايضا كتاب : شهيد الاتحاد ، لمؤلفه المطران رافائيل ربان ١٩٥٥ ص ٩٠ حاشية ٩١) .

٢-يقع هذا الدير الى الجهة الجنوبية من جبل بيخير بالقرب من قرية كولي الحالية في منطقة السلفاني ، بناه الربان افني مارن في القرن السابع ، ويدعى ايضا بدير الزعفران . (انظر : الأب حنا فيي ، اثور المسيحية جـ ١ ص ٧٤٢ ؛ البير ابونا ، ادب اللغة الآرامية ص ٢٩٤ ؛ الديورة ، ايشوع دناح ، عدد ٩٤) .

فاجابه الربان يشوع : لاتخف! ان هذا الامر من الرب أعطي لك لاعانتك ، فاذهب واثقا بالله دون خوف ، وانا اؤكد لك ان رغبتك في الصمت تتحقق فعلا ، وتقيم في صومعتك ، وستثمر جهود الصمت التي تبذلها فيها . ثق يابني انني كلمتك من فم الرب .

ثم اسعفه بالصلوات فعاد الربان مسرورا الى ديره ، عملا بوصية القديس . ونظرا لكونه متضلعا من العلم كما مر ذكره ، فقد حقق رغبته تلك بعد فترة وجيزة .

وكان في الدير شيخ تقي مسن يدعى الربان سركيس . وقد شغل كرسي التعليم زمانا طويلا في دير ماركبرئيل[1] في الموصل . وبعدما مارس التعليم لمدة سنين عديدة وافاد كثيرا ، اراد الخروج الى العزلة ، فقصد الى هذا الدير (دير الربان هرمزد) بمعية تلميذه المدعو الربان شليمون الممتاز بالعلم هو الاخر . وقبلا كلاهما في الدير ، وسُر الرهبان بهما سرورا عظيما ، واعتبرا في الدير مثل كنز لاتقدر قيمته بثمن . وفي العزلة ايضا بلغا كلاهما الى مرتبة القديسين العليا .

فتقرب الربان يوسف من هذين الطوباويين . وانكب على العلم تحت اشرافهما . حتى اكتمل في العلوم الدينية كلها . وتفوق بعلمه على ملافنة كثيرين . فقد كان يتلو شفويا الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . كما وتلا مقالات القديس (تاودورس)[2] المفسر الثلاث والثلاثين تلاوته للمزامير . وماقوله ، يشهد لي المسيح باني سمعته من فمه . في يوم من الايام ، بينما كنت جالسا قدامه استمع الى كلماته الطيبة ، تلا من اشعيا النبي نصوصا عديدة ، فاندهشت به وقلت لنفسي : اعرف ان الراهب عندما يصل الى مرتبة النفس ويمارس مسلك الفكر ، لايمكنه ان يقرأ في الكتاب . فكيف اذن تمكن هذا الشيخ الذي ارتقى الى مرتبة الروح ايضا ، من حفظ هذه النصوص عن قلبه! وكنت اظنه قد بلغ الى مرتبة النفس منذ اربعين سنة تقريبا . فقلت له : سيدي اعرف انك لم تقرأ في الكتب منذ اكثر من اربعين سنة ، فكيف اذن بقيت هذه النصوص محفوظة في قلبك؟ .

١-نجهل تاريخ ومؤسس هذا الدير ، الا انه عرف باسم دير مار كبرئيل او الدير الاعلى . وقد اشتهر بمدرسته الذائعة الصيت حتى انها لقبت ب «ام الفضائل» ومن المرجح جدا ان كنيسة الطاهرة للكلدان في الموصل هي من بقاياه الباقية الى اليوم . (كتاب الرؤساء ص ٢٣١ حاشية ٥ ؛ الاب د . يوسف حبي : الدير الاعلى وكنيسة الطاهرة ١٩٦٩ الموصل)

٢-ورد التعريف به صحيفة ١٢٨ حاشية ٩ من الكتاب .

فاجابني قائلا : لعلمك يابني ، انني منذ اكثر من خمسين سنة لم اقرأ في الكتاب (المقدس) ، لكن هذه الكلمات مطبوعة في فكري لكثرة تلاوتها . لعلمك يا ابني ، لقد تلوت الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، وانا واقف امام الصليب، كما تتلى المزامير، وبعد كل نص كنت اردف : هللويا . وتلوت ايضا مقالات القديس المفسر الثلاث والثلاثين ، ومقالة مارديودورس[1] في العناية الربانية . كنت اعيد قراءة كل فصل ثلاثين مرة ثم اتلوه .

فقلت له : وكيف كنت تحتاج مع حدة ذكائك ، الى قراءة الفصل ثلاثين مرة؟ . فقال : كلا يابني . بل كنت استوعب الفصل غيبا بعد قراءته للمرة الخامسة . وكنت اعيد قرأته مرارا وتكرارا لكي ينفذ في العظام بالتكرار كما هو حرفيا ، ولئلا يمحى من القلب .

مرة اخرى اشهد بالمسيح على نفسي ، انني سمعت هذه (الاخبار) من الربان ، وقد قصها عليّ بلطفه . وانا بدوري ايها الأخوة كشفتها لمحبتكم ، لتعلموا اية جهود بذل وتحمل هذا الطوباوي في علم الكتب الدينية حبا بالمسيح ، وكيف انه تمكن من القيام باعباء هذا العمل الشاق العسير ، ورغم تفرغه هذا للعلم ، لم ينقطع عن اداء فرائض الصلوات القانونية ، بل وكان يقوم بتأدية الصلاة على احسن وجه ، في اوقاتها السبعة كما سنها الأباء ، مع السهر المضني ومافيه من وقوف طويل الأمد ، مع السجدات ورفع اليدين في الصوات ، والانحناءات الدائمة والمديدة . وزيادة على هذه كلها كان يتلو الكتب المقدسة امام الصليب كما قلت ، وبعد كل جملة يردف : هللويا اثناء صلاته ، وبين كل قسم وجزء من المزامير ، كان يقوم بانحناآت حادة ومتكررة ، وبحركات سريعة وحارة ، برفع اليدين ، مع سجدات عديدة لفترات طويلة كما ذكرت . ولم يلغ صيامه حتى العصر ولازهده مطلقا . ولم يتساهل مع نفسه ولا مع الاخوة في الدخول والخروج بين الصوامع ، عدا ذهابه الى الربان سركيس والربان شليمون . ومن هنا يتضح ان الطوباوي كان معنيا بالعمل الجاد المضاعف .

سبحان القوة الضابطة الكل! كم ان قدرتها عظيمة . حتى لتعطي الأمكانية للضعفاء البشر ، حتى يطالوا مافوق الطبيعة بجرأة وبطولة .

بعد وفاة الربان سركيس . طيّب الله ثراه . اضطر الربان (يوسف) للذهاب الى دير ماركبرئيل في الموصل . وغالبا ماكان يقصده لزيارة الربان الشهير عبد يشوع الملقب

١-ديودورس (٣٨٧-٤٢٨) اسقف طرسوس ومن كبار مؤيدي نسطوريوس في تعليمه .

ب«عون» الذي كان هو الملفان في ذلك الوقت ، فيمكث عند اياما عديدة ثم يعود الى صومعته . وبما انه كان يمارس الزهد التام بحيث لايملك شيئا قط ، وينوي احيانا تقديم هدية ما اكراماً للملفان ، كان يحمل على ظهره . كما حكى لي ، حزمة خشب من الجبل ، لاتقل كثيرا عن حمل الحمار ، من دير (الربان هرمزد) والى الدير الاعلى ، فيقدمها للملفان . لقد كان قوي البنية ومكتمل الهيئة . واذا دخل الدير والملفان جالس على الكرسي يعلّم ، فيقال له : قدم الربان يوسف البوساني! كان يسكت ولايواصل الدرس ريثما يدخل الربان يوسف صومعته ، خشية ان يسمعه وهو يدرّس .

الى هذه الدرجة من الرقي والسعة في العلم ارتفع الربان . ولكثرة اتعابه اصيب بالم شديد في الكبد ، فتحمّل الالم الى ان ختم علم الكتب الدينية كله ، وآداب الكنيسة المقدسة ، فنال بذلك قصب السبق على جميع ملافنة عصره . كم من مرة رشحه رعاة الكنيسة والمؤمنون ليرتسم ويقام رئيسا في الكنيسة فامتنع ، لااستخفافا بموهبة الرعاية التي هي قدوة بالرسل وزمالة معهم . بل لأن تواضعه لايدعه يرفع نفسه اويعيرها اعتبارا ما ، اوكأنه جدير بعمل كبير ومرموق ، كما وأن الموهبة التي تعطى للرهبان المقيمين في خلوة صوامعهم ، لايمكن الحصول عليها في الخارج وسط ضجيج العالم وفي التعاطي مع الناس ، وبقية الشؤون المتعلقة بالرئاسة . كما وأن لكل واحد قد اعطيت موهبة (خاصة) من قبل الله ، فهذه من نوع ، وتلك من نوع آخر.[1]

في عهد الربان موسى ،[2] طُلب اليه ان يقام رئيسا لأساقفة مدينة نصيبين فرفض . وانتخب مرة اخرى لاسقفية مدينة الحديثة ، وكان المؤمنون فيها مصرّين على ان لايقام رئيس لهم الا الربان نفسه . فبعث رئيس اساقفة الموصل بعدة رسائل في طلبه بواسطة مار عبد يشوع الجاثليق[3] حينما كان اسقفا لمعلثاي ،[4] واستشهده باسم الله ان يأتيه الى الموصل . اما الربان فبفطنته المعهودة لم يعص الامر الكنسي ، لكنه

١- اولى قورنثية ٧:٧ .

٢ -كان رئيس دير باصياري حين تحول اليه الربان يوسف .

٣-انتخب مار عبد يشوع اسقف معلثاي بطريركا باسم عبد يشوع الاول سنة ٩٦٣ . (راجع ابن العبري ٢ ص ٢٥٢ ؛ الاب يوسف تفنكجي ، الكنيسة الكلدانية ٩١٣ (ص ٢٤) والجاثليق يونانية تعني الرئيس الديني الاعلى لطائفة .

٤ -تقع معلثاي في لحف الجبل الى جنوب غربي دهوك الحالية . وفي اعالي الجبل اثار اشورية يسميها الاثاريون «ملثايا» وهي مصحفة عن معلثايا .

خضع لطلب الاسقف وللامر الذي أمر به ، وسافر مع الاسقف الى الموصل . فطلب منه رئيس الأساقفة واهالي الحديثة والموصل ان يتحمل اعباء مهمة الاسقفية الثقيلة . غير انه لم يرضخ . فناشده الحبر بقانون كلمة الله لكي يقبل ويقدم نفسه لهذا العمل الذي اختير له . حينذاك بكى الربان قدام الحبر والمؤمنين الحاضرين وقال لرئيس الاساقفة : اذا ارغمتني على هذه القضية ، فانا مُقدم على احد أَمرين : فاما أن افر اذا سنحت لي الفرصة ، الى مكان لايراني فيه بشر ، واما ان القي بنفسي في نهر دجلة لاختنق ، وفي الحالتين يطالبك الرب بهلاك نفسي! . فلما راى الحبر ماهو ناو القيام به ، صرفه بسلام ليعود الى صومعته .

وانتخب مرة ثالثة من قبل اهالي نوهدرا اعني معلثاي ، فانهزم واختبئا في جبل دير شمرخ [1] دون ان يعلم به احد لفترة ما ، الى ان اقيم اسقف للبلد (المذكور) .

١- ما تزال شمرخ معروفة بهذا الاسم ، وتقع في واد جنوب مانكيش وراء الجبل . وفيها اثار دير مار ابراهيم بردشنداد . (كتاب الرؤساء ص ٢٧٠ حاشية ٤) .

الفصل الثالث

في اقامة الربان يوسف في الصومعة . وممارساته فيها ، وتردده على (الربان) شوحا ليشوع ،[1] وكيف ان اخوته وامه ارتدوا هم ايضا الثوب المقدس . عونك يارب امين .

لما اراد الله بارينا المجيد ان يوجد بحكمته خليقة ناطقة ، خلقها وكوّنها بنوعين مختلفين كما حسن لديه . فالبعض منها خلقها روحية وبلا جسم ، والاخرى صنعها جسدية مرتبطة بهذا الجسد الثخين . والاولى هم الملائكة القديسون الذين اقامهم الله باريهم في العلى ، في مكان مجيد ، وجعلهم فوق كل المقومات الجسدية ، بحيث يطيرون بلا اجنحة ، ويقفون بلا وقوف ، ويمشون بلا ارجل ، ويرون بلاعيون ، ويسمعون بلا آذان ، ويشمون بلا مناخر ، ويتكلمون بلا فم ، ويذوقون بلاحنك ، ويلمسون ويعلمون بلا أيد ، ويمجدون بلاصوت ، ويرتلون بسكوت ، ويهللون بسكون اسمى من الصوت ، ويتعارفون بلا اسماء ، ويسجدون بلا ركوع ، ويقومون بلا قيام ، ويقيمون في مكان لامكان فيه ، روحيون واحياء ولايموتون ، لايتزوجون اذ ليس فيهم والد اومولود . لا ياكلون ولايشربون ، لأن وسم صيام لايزول مختوم على فمهم الذي ليس فماً . لايرقدون ولاينامون . لأن لهم يقظة غير خاضعة لهذه كلها ؛ وجعلهم خداما يعملون بمشيئته ، ولهم القدرة على تنفيذ اوامره .[2] اما النوع الثاني فهو نحن البشر الذين وضعنا الله خالقنا في الدنيا على الارض ، كما حسن لحكمته الشاملة ، وكما عرف بسابق علمه ماهو خيرنا . وشدّ النفس الى الجسد بوثاق لاينحل الى دهر الدهور ، وان كانا ينفصلان بالموت لمدة قصيرة .

وخلق النفس ناطقة وغير مائتة وشبيهة بالملائكة بكل الصفات التي ذكرناها اعلاه . وشدّها كما قلت الى جسدها الذي يجذبها بثقله الى اسفل . فصار الانسان هذا الاناء العجيب المزدوج الأجزاء شقيا ، خلافا لما هو (بفطرته) وذلك بسبب هذه الاضداد المذكورة سابقا ، وهذا الى وقت ما وفي الزمن ، الى ان يبلغ عالم الكمال ذاك .

١- سريانية معناها : المجد ليسوع .

٢- عبرانيين ١ : ١٤ .

ثم ان جميع صفات النفس الذاتية مقيدة فيها ، بسبب كثافة الجسد . لذا فالانسان يتزوج ويأكل ويشرب ، ويخضع للنوم ، لأنه كثير الاهواء ومدفوع بشهوة الرذائل .

وبما ان قصد الله كان ان يرفع طبيعتنا الى مرتبة الألوهة السامية ، هنا بصورة جزئية ، وهناك بشكل تام وكامل وغير ناقص ، فقد سبق ووضع في طبيعة النفس منذ خلقتها ، خلجات تنشط للخير وتحب الصالحات وتشتاق الى الروحيات . واعطاها ، ولم يضع فيها ، ثلاث قوى رئيسية للنفس ، بها تتحرك للخير او للشر وهي :

الشهوة الطبيعية ، والغضب ، والفهم . وهذه تسمى ايضا صفات النفس. وبما ان النفس تبعت الجسد واقتيدت من قبله عنوة نحو الميول السيئة بسبب الخطيئة الساكنة في الانسان[1] منذ معصية ادم الأول ،[2] استخدمت النفس صفاتها خلافا للطبيعة ، وشوهت خواصها الذاتية ، وعميت بصيرة الانسان ، فراح يستخدم قواه استخداما سيئا باقتراف الشرور خلافا للطبيعة ، في حين انه مطالَب باستخدامها استخداما صالحا بدافع من الخير المغروز في طبيعته .

هذا هو واقع الناس جميعا وبدرجات متفاوتة ، عدا قلة منهم اولئك الذين سطعوا كالنجوم في ظلمات العالم .

فلما ظهر المسيح ربنا شمس البر المشرقة في العالم ، بدد ظلماته كلها وملأه انوارا . وجعل المظلمين منوَّرين بنوره المقدس ، وقضى على الخطيئة ودحر الشيطان ، وعوّض عن المعصية ، وألقى نار حبه ومودته في قلوب خاصته . فاستنارت بشعاعه المقدس قوة الفهم في النفس ، وتحرك الغضب والشهوة حسب فطرتهما ، وبُعثت فينا القوى الاولى الفطرية ، وبمعرفة طبيعتنا ثانية والخفية في كيان المخلوقات ، انكشفت لنا المعرفة الاولى لهذه الطبيعة ، فعاد الانسان الى خلقته الفطرية ،[3] وارتفع بالمسيح الهنا الى مرتبة تفوق هذه ، ونال الذهن دالّة لينطلق مع الملائكة في روى هنا وهناك . واخذ يتحرك حسب صفاته الذاتية الفائقة الطبيعة ، تاركا الى اسفل ماهو تحت الطبيعة ، وارتقى الى فوق ، وتحرر بفضل المسيح نوره ودليله مما هو غريب عن الطبيعة .

فلقد اضطرمت نار المسيح هذه في البشر ، فاستنارت الخليقة كلها بالقديسين والأباء الطوباويين ، واشتاق بنو البشر الجسدانيون والحسيون الى التشبه بالملائكة ،

١-رومية ٧: ٢٠ .

٢- سفر التكوين ٣: ١-١٩ .

٣-الترجمة في هذا المقطع بشيء من التصرف ايضاحا لغموضه في الاصل..

وان كان جزئيا هنا ، الى ان نصل الى التشبه الكلي الكامل وغير الناقص ؛ فبذلوا مختلف الجهود بغية الوصول الى روحنة كيان خلقتهم ، ونورتهم نعمة المسيح ربنا مرشدة ليختاروا العزلة طريقا لهم وفيها يجدون مايبتغون . وقد اقتبسوا طريق العزلة هذه من ربنا بالذات . اذ انه لما اراد ان يني الدين المترتب على طبيعتنا ، خرج الى القفر وحده ، وهناك في الصمت كمّل صومه المقدس .[1] وفي اوقات الصلاة كان يعتزل ضجيج العالم ويصلي مختليا وحده . فتعلّم الأباء القديسون هذه الطريقة واختاروا العزلة لأنفسهم . اذ فيها يتمكن الانسان من ان يصير شبيها بالملائكة على قدر طاقته ، فيتحول الانسان من صورة الى صورة مجاهدا ليطبع في ذاته سمات الملائكة حسب امكانه ، بالصوم والصلاة كل حين ، وبالسهر اليقظ المستمر ، فيتشبه بالملائكة ، ويصبح عوض الاكول صيّاما ، وعوض الشريب قنوعا ، وعوض النوام متيقظا وعوض البطال مزمرا ومهللاً بتسابيح لاتنقطع ، فيتحكم بافكاره ويتجنب الاهواء ، ويرتفع من مرتبة ورؤئ تأملية الى مرتبة ورؤئ تأملية اخرى ، ومنها الى غيرها ، الى ان يصبح الذهن شبيها بالملائكة ، لابل بالمسيح اله الكل باتحاده معه .

وبما ان الربان يوسف الذي نتحدث عنه ، كان مطّلعا على هذه كلها ، فقد اشتهى الروحيات واشتاق اليها من بدء تتلمذه . ففضّل العزلة على جميع الجهود التي تبذل في الفضائل الخارجية .

ولما قصد الى الربان ايشوع واطلعه على ماقام به ، وكيف انه ثابر على اكتساب العلوم الدينية حسب امره حبا بالمسيح ، طلب منه مشورة وامرا ليقيم مختليا في صومعته .

اندهش الربان ايشوع ايما اندهاش بالأتعاب التي تحملها عملا بامره ، وفي سره اثنى عليه وشكر الله وحمده على قدرة قوته القدوسة ، وعلى ان مشيئته تكمل في مايريده دونما عائق ؛ وقدّم الصلاة من اجله ، وسمح له بالدخول الى بوتقة الصومعة التي تمحص وتصقل الذهب فتعيده ابريزا . وكما ان بوتقة القيامة بسعيرها تجعل البشر الجسدانيين آنية روحية ، كذلك بوتقة الصومعة بسعيرها تحيل المثابرين المقيمين فيها حقا ، الى روحانيين ومافوق الجسد ؛ ودلّه بوضوح على الطريق كله ، وسنّ له قوانين يلتزم بها في ممارسته العلم في صومعته ، وانه من الافضل له ان يستخدم طريقة الأباء البسيطة ، دون ان يجهد نفسه بترديد التراتيل التي تشوش الافكار ، بل ان يصب جل اهتمامه في جمع الافكار وربط العقل بالله .

١- متى ٤ : ١٠

فسأله الربان (يوسف) قائلا : كيف وبماذا اذن اؤدي فريضة صلاة الساعات؟ .[1] واذ اراده الربان ايشوع متضعا لئلا يفتخر بعلمه قال له : أدِّ فريضة صلواتك كلها ب«ايها الشهداء القديسون صلوا من اجل الأمن ، لكي نحتفل مسرورين باعيادكم»[2] . فتعجب الربان من هذا الجواب ، وعلم السر الكامن فيه ، فاطاع وصيته . ثم قال له الربان ايشوع : يجب عليك يابني ان تستشير ايضا الربان شوحا ليشوع بحر الارشاد - بحرا كان يسميه - وتطلب صلاته ، وتأخذ رأيه حول مقصدك ، لأنه رجل متضلع من فن العزلة هذا ، وخبير في مسلك الصمت .

ثم زوده بالصلوات فعاد الربان الى ديره .

بعد ايام سافر الربان (يوسف) بصحبة اخوة اخرين الى دير القديس الربان يشوعياب ،[3] لزيارة الربان الشيخ شوحا ليشوع . ولما دخلوا سلموا عليه ، فسُرَّ جدا بقدومهم . وحال دخولهم اليه عرف القديس برؤيته الفكرية الثاقبة من هو الربان (يوسف) وماخبره ، دون ان يكون له معرفة سابقة به . فسألهم كمن لايدري شيئا وقال لهم : ماخبر الربان يوسف البوساني وماعمله؟ . وللحال قفز الربان يوسف منحنيا قدامه وقائلا : سيدي هاأنذا يوسف عبدك! فصافحه ثانية وعانقه قائلا له : هلم بسلام يابني ، هلم بسلام ، الرب يمهدلك السبل في هذه الطريق التي تنوي السير عليها ، ويوصلك بها الى مبتغاك الجميل برحمته امين .

ثم ارشده في جميع مقتضيات هذه الطريق ، كاشفا له بالكفاية كل مافيها من مستلزمات ، واسعفه بالنصح والصلوات ثم اطلقه بسلام الى صومعته .

فلما عاد الربان الى الدير . دخل صومعته واوصد الباب . ولم يوصد الباب الخشبي فحسب ، بل واوصد بحرص باب القلب ايضا . وكان كوخه صغيرا وضيقا جدا ، وهو عبارة عن مغارتين منقورتين في الصخر أمامهما فسحة صغيرة .

١-مصطلح خاص بالاديرة ، يراد به الصلوات التي يتلوها الرهبان خلال ٢٤ ساعة وهي مقسمة الى سبعة اوقات ابتداء من صلاة العصر-رمشا- ؛ صلاة الستر : الحفظ-سوتارا- ؛ صلاة الليل ، او صلاة منتصف الليل ؛ صلاة الصباح-صبرا- ؛ صلاة الساعة الثالثة (من النهار) ؛ صلاة الظهر ؛ وصلاة الساعة التاسعة (من النهار) .

٢-مستهل صلاة الشهداء ليوم الاحد في طقس كنيسة المشرق .

٣-هو الدير المعروف الآن باسم دير مار ياقو الواقع في الجبل الى غرب دهوك فوق قرية شيزي - شيوز - اسسه مار يشوعياب في منتصف القرن السابع (الديورة عدد ١٣٩ ؛ اثور المسيحية جـ ٢ ص ٧٠٧-٧١٦ ؛ كتاب الرؤساء ص ٦٤ والحاشية ٢) .

ومنذ ذلك الحين شرع يكد بجهود مضنية عسيرة ، ليس بوسع القلم وصفها . فقد استبدل صومه حتى العصر بصيام لمدة ايام ، بحيث انه لم يكن يذوق شيئا الامرة اومرتين في الأسبوع ، وهذا ايضا بكمية زهيدة ولسد الرمق لاغير .

اما الصلاة فقد مدد وقتها ايما تمديد وخاصة اثناء الليل . فأنه كان يسهر الليل بطوله في الصلاة حتى الفجر حين لايبقى من الليل الا هزيع قصير ، فيسند ظهره الى الجدار ازاء الصليب ، ويختلس قسطا من النوم . ولم يرقد على الارض بتاتا .

وكان اثناء صلاته في النهار والليل ينحني ويبسط يديه مرارا وتكرارا بحرارة وحمية ، ويركع ركعات مديدة ، تاليا كل فصل من فصول المزامير وكل قسم من اقسام الصلوات الطقسية .

ولم يكن يتحدث الى بشر بتاتا حتى ولا من الكوة كما هو المعتاد . وعندما يحل صومه ليلا ، يتناول قليلا من الخبز اليابس . وكان يطبخ مرة واحدة لعدة ايام طبيخا بسيطا وبلادهن . كانت صومعته خالية من كل مايحتاجه المرء . بحيث لم يكن يتيسر له ماهو بحاجة اليه . واذا اراد ان يعد له طعاما ، لايجد مايضعه فيه سوى قليل من السعتر ، بديلا عما يتناوله الاخرون .

مكث متجلدا في هذا الكوخ الضيق مدة اثنتي عشرة سنة كيوم واحد . وقال الربان : وحياتك يابني ، انني لم اخطُ في حوشه الاعلى ممرين : الواحد يؤدي الى الباب ، والاخر الى الخلاء .

انظروا ايها الاخوة الى التجلد الذي حبا الله به هذا الطوباوي ! اذا صبر المرء اثني عشر يوما دون ان يخطو في حوش صومعته لكان الامر عجيبا ، فكيف اذا كانت المدة اثنتي عشرة سنة !

هذا كان صبره واعتصامه في صومعته ، وهذه كانت جهوده البطولية ! . فتنقت نفسه وعادت الى خلقتها الفطرية ، وارتقت من مرتبة الى مرتبة ، ومن تأمل رؤيوي الى اخر ، ومن النقاء الى الصفاء ومن الصفاء الى حال الصلاة الروحية ، ومنها الى مافوق الصلاة .

كان الربان يذهب مرتين في السنة ويلتقي بالربان ايشوع والربان شوحا ليشوع ، ويكشف لهما اسراره واعماله الزهدية التي يمارسها في صومعته . فكان عمودا النور هذان يقوّمان خطواته على السبل المستقيمة في كل ماتوصل اليه من مراتب الكمال والتأمل الرؤيوي .

وصعد الى الدير ايضا شقيقا الربان الاخران وهما الربان شوحا لمارن[1] والربان بريخيشوع ،[2] واتشحا بثوب الرهبنة المقدس . ولقد اشتهرا وشقيقهما الربان جبرائيل بالصلاح ، وساروا في طريق الرب سيرة البر والقداسة ، وكانوا مزدانين من الباطن والظاهر بكل الفضائل الالهية . وكانوا في الدير قدوة يحتذى بها .

وكان الربان جبرائيل ملفانا عظيما حاذقا ومرموقا في الكنيسة ، فصيح اللسان ، بليغ الكلام وسريع الخاطر في احارة الجواب ، بحيث لايقوى احد على مناظرته في الجدال . وقد اصبح رئيسا في دير باصياري .

اما شقيقتهم ، فقد شاء الرب ، ولمّا تزل بعد في عنفوان شبابها بكرا طاهرة ، ان ينقلها الى موطن البتولات القديسات . ولما توفيت ذهب الربان (يوسف) لحضور مراسيم دفنها . وروى لي انه لدى انزالها الى القبر ، اراد ان يودعها بنظرة اخيرة ، فرفع الكفن عن وجهها ، فرأى محياها مغطى بعرق غزير ، مشعا كقنديل من نور ، فاندهش بها ، وبالعرق المتصبب من وجهها كحبات مرجانية . وحدث هذا بسبب نقاوتها وبتوليتها ومحبتها ، المحبة التي تفعل في المؤمنين اكثر من هذا الذي حدث . ولبست والدتهم العجوز هي الاخرى ثوب الرهبنة . فأسكنها الربان كوخا في الدير بأمر من الربان ايشوع وبسماح الرهبان . وكان اولادها يقومون بخدمتها . انها اكتسبت نقاوة القلب . وكانت الشياطين تظهر لها في رؤىً غير مجسمة . وعلى ماروى الربان عنها ، حينما كان يتفقدها ، كانت تبادره قائلة ببساطتها : يابني انني ارى الشياطين واقفة قدامي ، فارسم علامة الصليب بيني وبينها فتتوارى . سبحان من يغدق مواهبه بسخاء وبدون علة استحقاق! كم انه سكب بركاته على اسرة يقيرا وعلى الثمار التي اعطتها .

اما الربان فلم يكن يسمح لاحد ولا لأشقائه ايضا بالدخول اليه في الصومعة . ولم يدخل اليه بشر قط خلال سني تجلده الاثنتي عشرة في كوخ صراعه . لامن اخوته ولا من الرهبان .

المجد الدائم لله الذي سنده في جهاده ونصره في معركته ، الآن وفي كل آن والى دهر الدهور امين .

١- سريانية ، معناها : المجد للرب .

٢- سريانية ، تعني : مبارك يسوع .

الفصل الرابع

في انتقال الربان يوسف الى دير مار ابراهيم باصياري .
عونك يارب .

رغم ان الله لاعلة له في جميع تدابيره ، بمقتضى لاسببية وجوده المنزه عن كل العلل ، الا انه يعدّ مسبقا ويضع العلل لجميع خططه . لان حكمته الفائقة كل عقل ، هكذا شأت ان يحرك بعلة مخططه ، العلل التي اعدها لتحقيقه .

وهذا الامر واضح وجلي ويعرفه حق المعرفة ، المستنيرون اتباع ربنا وحدهم . فالعلل مرتبطة بالخطط وليست الخطط مرتبطة بالعلل ، وان كانت الخطط تسمى عللا ايضا من قبل الخبراء بامور الخطط (الالهية) الحكيمة ، وذوي النظرة البصيرة في تأمل وحدانية حب الله رب الكل وللكل .

فعندما تريد الحكمة مدبرة الكل بحكمة ، ان يحدث ويكتمل أمر مافي اي عمل كان ، فان علة مناسبة تظهر اولا ثم يحدث ذلك الامر ويكتمل . فاذا ماقام امرء لعمل ما باستمرار وتعقل ، فاعلم ان هذا الامر هو من الله ، وهو الذي يحركه في الخفاء كما تشاء حكمته ، ولايمكن مقاومتها ولاابطالها ، بل ان كل شيئ يعمل على اكتمالها ، سواء أكان ذلك بالانتقال من بلد الى اخر ، او من دير الى دير ، او بالبقاء في المكان عينه . وان في كل واحدة من هذه الحالات ، حركة تدفع الانسان ، ولايمكنه مقاومتها ، سواء في نفسه او في الاخرين الذين يحركونه . لان الانسان اينما كان ويكون ، فهو تحت عناية الله ، وهو مقيم فيه بلاتحديد . ولهذا السبب يتحول رهبان كثيرون بمخطط الهي وبعنايته ، من دير الى دير بعلل مختلفة ، دون ان يتحولوا مطلقا عن الله . وهذا لايتم عبثا ومصادفة ، بل على أمر الله وحسب مخططه .

كما حدث للربان (يوسف) الذي انتقل من ديره حسب المخطط الالهي . ولم يتم له ذلك عفويا وبسهولة ، ولكن بتدخل رجل تقي خبير بالروئ التأملية في الخطط الالهية وعلى يده .

فلما سلخ الربان يوسف في ذلك الكوخ الضيق ، اثنتي عشرة سنة ، كما ذكرت آنفا ، صابرا متجلدا على كل ذلك الصبر المذهل ، وحريصا كل ذلك الحرص والصون الذي يتخطى المقدرة ، اجبره اخوته على التحول الى صومعة اخرى . فنزل عند طلبهم وعمل حسب رغبتهم . ولكنه لم يتحول عن مسلك الصمت وجهاده فيه ، وعن اختلائه مع نفسه واعتزاله البشر ، ولم يغير فيه شيئا . بل انه يوما بعد يوم ، وفي كل مرتبة يرتقي اليها ، كان يضاعف جهودا على جهود ، وتيقظا على تيقظ .

ومكث في دير القديس الربان هرمزد قرابة ثلاثين سنة . اما شقيقه الربان جبرائيل فقد ارتحل كما قلت الى دير باصياري ، وظل هناك رئيسا للدير زمانا طويلا . ولما دنا اجله وارتحاله من هذه الحياة التعيسة ، ارسل الربان موسى (رئيس الدير آنذاك) في طلب الربان (يوسف) . فخضع الربان لامر القديس وسافر مسرعا اليه .

وفي تلك الايام رقد الربان جبرائيل ودفن باحتفال لائق به . اسعد الله ذكره آمين . حينئذ لملم الربان موسى الشيوخ حول الربان (يوسف) ، فالتمسوا اليه مع القديس ليبقى عندهم . واعطوه صومعة اخيه . فقبل الربان التماسهم واعدا بتحقيق رغبتهم . ثم رجع الى ديره ريثما يرتب شأن صومعته ، فيعود اليهم ثانية . لكن التحول صعب عليه فلم يتسرع .

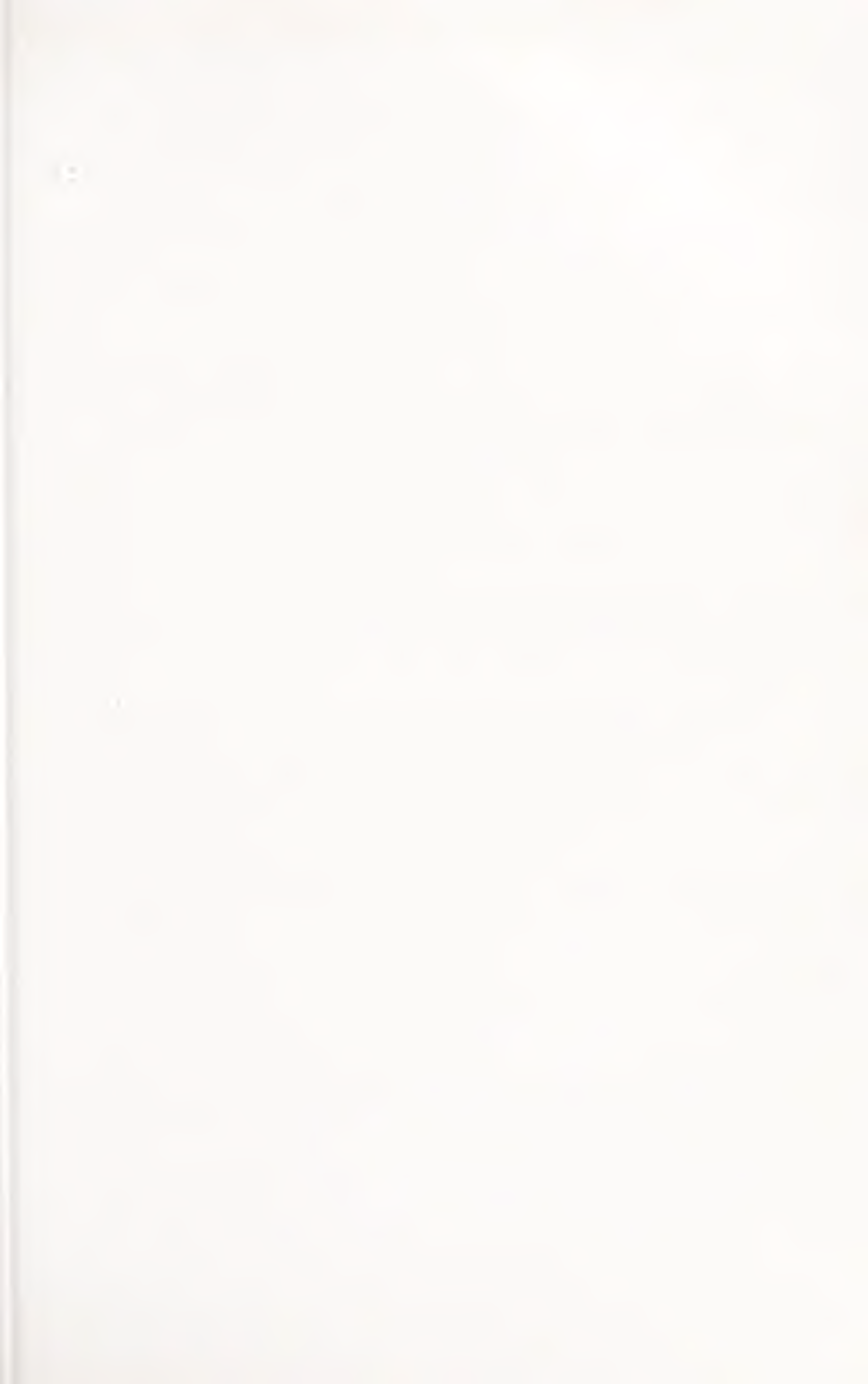
وبعد ايام عديدة ، اضطر القديس الربان موسى على السفر الى دير باقوقا[1] بسبب خصومة جرت فيه . وعلى طريق العودة ، بعد انهاء مهمته اسرع بالصعود الى دير الربان هرمزد . فالتم الرهبان احتفاءً به . وطلبوا منه ان يدخل احدى الصوامع . اما القديس فقال : اريد ان ادخل الى صومعة الربان يوسف البوساني! لكن الربان يوسف لتعوده على الخروج احيانا من صومعته الى الجبل ، وهناك يمكث اياما في مناجاة الله ، دون ان يعلم به احد ، لم يكن آنئذ في صومعته ، لأنه كان في الجبل كعادته . فدخل الربان موسى وحل في صومعته . وامر اخوته بدالّة المحبة ان يعدّوا طعاما في الصومعة ، وقال لهم : لدى قدوم الربان يوسف قولوا له : اننا عملنا ماكان واجبا علينا بمودة المحبة ، والان بُرّ بوعدك انت ايضا بالمحبة نفسها . فلما اتى الربان اخبره اخوته بما جرى وبما قاله الربان موسى . ومع ذلك لم يقر رأي الربان على التحول . وبعد سنة على وعد الربان (يوسف) ارسل الربان موسى رسولا اليه بصورة عجيبة تنطوي على سر

١-يقع هذا الدير على الزاب الكبير الى الجنوب الغربي من اسكي كلك الحالية في الموضع المسمى ملاعمر اسسه الراهب سبر يشوع في القرن السابع (كتاب الرؤساء ص٢٢ حاشية ٣) .

الهي . فقد بعث باحد المبتدئين يدعى موسى ابن صيادي ، صغير السن وقصير القامة ، وأمره بان يعمل بالربان عملا غريبا . فلما اقبل المبتدئ الى الدير ، قرع باب صومعة الربان قائلاً انه مبتدئ الربان موسى . فلما سمع الربان قفز بسرعة وفتح له الباب وادخله عنده ، وصلى كالمعتاد ، ثم جلس على كرسيه والمبتدئ امامه . فسأل المبتدئ الربان قائلا له : هل معك احد في الصومعة ياربان؟ فاجابه الربان : كلا يابني! ثم اعاد المبتدئ السؤال مثنى وثلاثا . فتعجب الربان بهذا وقال له : قلت لك يابني ، لايوجد احد معي في الصومعة! حينئذ وثب المبتدئ وتعلق برجلي الربان وألقاه عن كرسيه . فنهض الربان مبهوتا ، ظانا انه قد يكون شيطاناً غرر به . فبكى المبتدئ قائلا للربان : اغفر لي سيدي ، ولاتغضب عليّ ، لأني بهذا العمل نفّذت امر الربان موسى . حينذاك فهم الربان ماذا جرى ، وعلم انه ليس شبحا . فقام لتوه ورتب شأن صومعته ، وخرج مع المبتدئ وسارا معا على الطريق قاصدين باصياري . فلما وصلا الى الدير ، دخلا عند القديس الربان موسى ، فرحب القديس بالربان مستبشرا مسرورا . ثم قال المبتدئ للربان موسى : ألستَ أنت الذي امرتني ياراهب ان اتعلق برجلي هذا الشيخ؟ . فاجابه الربان موسى : ان المسيح يابني هو الذي سحب رجلي هذا الشيخ كما اراد هو وليس انت .

اما الرهبان فقد فرحوا به فرحا عظيما ، واعطوه صومعة اخيه (جبرائيل) مع اثاثها . فاوصد الربان الباب ودخل في عزلة اعمق صمتا . وكان يتردد دائما على الربان موسى في الليالي ، وينعم بالسمر معه ، ويسأله عن رؤيا التأملات الروحية ، وممارستها الفكرية في كل المراتب . وكان الربان موسى يطلعه عليها بوضوح .

وجرى الحديث بينهما عن اسرار عديدة ، نتكلم عنها قليلا من كثير ، حينما يصل اليها مقالنا الضعيف .



الفصل الخامس

في كيف ان الربان موسى ألّح عليه جدا ليأخذ على عاتقه مهمة الارشاد الثقيلة ، وكيف ان الله ارغمه على قبولها ، وكيف انه بعدما قبل هذه الوزنة ، عمل فيها بكل همة ونشاط ،. وربح فوقها اضعافا مضاعفة قدام الله . عونك يارب آمين .

ان محبة الله بارينا واحدة لعامة الناطقين الذين خلقهم جميعا بمحبته ، واراد ويريد خيرهم جميعا ، بمقتضى وحدانية محبته التي بها اوجد وجودهم ، وصنع لهم جميعا جسما واحدا مركبا . وان الاشخاص البارزين فيهم هم بمثابة الأعضاء (الرئيسية) من الجسم .

فلهذا السبب ومن اجله ، عهد بخدمة خاصة الى كل فئة وصنف من الناطقين ، لصالح المجموع كله . فعهد الى الطغمات العلوية بخدمة كل مايلزم لنا نحن البشر ، وبحراسة كل واحد منا ، وكل ماهو لنا ايضا . هذا مايقوم به الملائكة في خدمتهم ، ويتحملون التعب الذي فيها ، إن وجد فيها تعب ، من اجل خيرنا نحن البشر الاعضاء في هذا الجسم العجيب الشامل لهم ولنا .

قال بولس (الرسول) : «أو ليسوا جميعهم ارواحا خادمة ، تُرسل للخدمة من اجل المزمعين ان يرثوا الخلاص»[1] كذلك نحن البشر ايضا ، فأن كل فئة منا تكمّل بخدمتها احتياجات الجسم الشامل . فالبعض رسل ، والبعض مبشرون ، والبعض خدام ، والبعض صانعو قوات ، والبعض مترئسون ، والبعض مرشدون ومعلمون . فالبعض بهذا النوع والبعض بنوع اخر ، ولكننا جميعا نخدم الجسم الناطق العام[2] . فهناك من هو بمكانة العينين وآخر الاذنين وآخر الشم وآخر اليدين ، والرجلين . .الخ . ويوجد من هم بمكانة الاعضاء الرئيسية ، كالمخ والقلب والكليتين والكبد .

فعندما لايطاوع الانسان بارادته ماينا سبه ، فان النعمة (الالهية) تحث وتوقظ آخرين غيره ليحثوه ويوقظوه بل ويضطروه ، الى ان يمتثل لارادة الله . لأن الله لاينظر الى خير انسان واحد فقط ، ولكنه يريد خير الجميع على حد سواء . وكذلك المواهب يمنحها الله بفضله لكل واحد منا ، ويمنحها لتكون في صالح المجموع .

١-عبرانيين ١ :١٤ .

٢-اولى قورنثية ١٢ :٤ - ٣٠ .

وبما ان موهبة الهنا المسجود له فاضت على هذا الشخص المبارك الذي نتحدث عنه ، فقد شاء الله بمحبته ان تعم الكثيرين موهبة من المواهب التي منحت له لخيره وخير الكثيرين ، وان يؤدي الخدمة المتوجبة عليه للجسم العام .

فحينما كان الربان (يوسف) مقيما في صمت صومعته العميق كما قلت ، دون ان يخالط الناس بتاتا ، كان القديس الربان موسى يلتمس اليه ليخفف قليلا من عزلته ، ويسمح لنفسه برد الجواب للاخوة الذين يستشيرونه ، لكي لايكون هو الوحيد المستفيد من جهوده . اما الربان فلم يقبل هذا (الالتماس) .

غير ان الربان موسى ، لعلمه بجدارة الربان لمهمة الارشاد ، لكونه قد اكتمل بالمعرفة منذ زمن طويل ، فاستنار وتنقت بصيرته ، واضحى خبيرا في حرب الشياطين ومكائدها ، وفي حركة الافكار اليمينية او اليسارية[1] ، واختبر بنفسه كل التقلبات الطارئة على طريق العزلة هذا ، وتمرس في سبل جميع المراتب ، ورأى بعين نفسه الاسرار الخفية في تأمل الاجسام ، وارتقى تماماً من هذه الى تلك ارتقاء روحيا ، واكتملت معرفته بتأمل الثالوث الاقدس ، وتمرن ذهنه بالتأمل في العناية الالهية والدينونة ، فلهذه الكفاآت وبها هو قدير جدا على ارشاد الاخوة وهدايتهم في الحياة الرهبانية هذه ، كان (الربان موسى) يلقي عليه دائما بثقل التماسه قائلا له : ان هذا الامر هو بارادة الرب . فلامفر لك من تقديم ذاتك لمهمة الارشاد العظيمة ، لان الروح القدس فرزك له حسب مشيئة رحمته ، فلاترفض لانك لاتقدر على مقاومة ارادة الله .

وكان دائما يبعث اليه المبتدئين ليجيبهم بكلمة ، ويأمره باعطاء ذخائر القديسين[2] لمن يطلبها منه .

وفي احدى الليالي دخل الربان موسى الى صومعة الربان وبيده صرة من ذخائر القديسين ، فوضعها فوق الانجيل وقال له : لعلمك انها ارادة الرب ان تعطي ذخائر القديسين ، واني آمرك كما من فم المسيح ، ان تعطي لمن يطلب منك ولاتخاف .

اما الربان فبرغم هذا كله لم يقبل المهمة . لكن الربان موسى الذي كان يحثه عليها ، لم يتوقف عن حثه .

١-كناية روحية مقتبسة من انجيل متى ٢٥ : ٣١ - ٤٦ .

٢-بالسريانية : حنانا ، او : طيبوثا ، وهي جبلة من زيت مكرس وماء وتراب بقايا من رفات قديس تعطى كبركة للمرض وغيرهم .

ولما دنا يوم وفاة القديس الربان موسى ، كشف ايضا عن رغبته تلك من طرف خفي ، حذرا من حسد الحساد ، ولم يشر علنا الى الربان ، لئلا يثير غيرة عليه . فترك الامر لله لكي يقيّض اسبابا تحققه كما يشاء . فلما سأل الشيوخ والاخوة الربان موسى قائلين : لعهدة من تتركنا ، والى من تأمرنا بالذهاب للاسترشاد؟ . اجابهم الربان موسى قائلا : الى ذاك الذي فرزته النعمة (الالهية) لهذه المهمة . اما الان فاسترشدوا لدى الربان عبد يشوع الشيخ ، ريثما تكشف النعمة ذلك (الرجل) .

وبعد وفاة الربان موسى ، السعيد الذكر ، ازداد الربان (يوسف) توغلا في عمق عزلته . وأصمّ اذنيه بارادته دون ان يكون فيهما عاهة ما ، بحيث لم يكن يجيب من يطرق بابه .

لكن الرب الذي يريد خير الناس جميعا ، لم يدعه على رغبة قلبه ، بل كان يأتيه بدوافع ربانية ، توقظه الى مايشاؤه الرب . فكانت هذه الدوافع تأتيه من كل جانب ، تارة بامراض الجسد تنخسه ليقبل مشيئة الله ، وطورا بطلبات الاخوة المنهالة عليه من كل صوب . وكانت النعمة تضطره وترغمه دائما على هذا الامر ، وتكلمه في رؤى مكشوفة ، محذرة لئلا يقاوم ارادة الله . حتى انه حينما كان يقف احد الاخوة على باب صومعته كانت تكشف له مايجب ان يقوله للاخ ، وتعطيه الدالّة لكي يسأله بلاخوف ، ويجيب عن اسئلة الاخوة .

الربان مار اثقن والربان بابي صديقه[1] .

كان في دير (باصياري) شيخ فاضل ومتمرس اسمه الربان مار اثقن ، طرأ عليه قلق مافي صومعته ، دون ان يعرف ماسببه . فاضطرب فكره وتشوش ، ولايدري لمن يبوح بشأنه . وكان له صديق شيخ وقور مهيب اسمه بابي . فطلب الربان مار اثقن من الربان بابي ان يصلي (لاجله) لكي يلهمه المسيح لمن يكشف افكاره . وحدث هذا في بداية الاسبوع . ولما انتهى الاسبوع ، اتى الربان بابي الى الربان مار اثقن وقال له : ان المسيح ألهمك ويامرك بان تطلع الربان يوسف على شأنك ، وله تكشف افكارك . فاجابه الربان مار اثقن : حقا هكذا امرني المسيح ، بان اذهب اليه ، وله اكشف امري واسلك واحيا حسب مشورته . فتعجبا كلاهما مما جرى ، وعلما انه بتدبير الهي .

فقام الربان مار اثقن وذهب ليلا الى الربان (يوسف) . وحين بدأ يكشف سره ، منعه الربان عن الكلام . فقال له الربان مار اثقن : كنت طيلة الاسبوع اطلب من الله

---

١ - العناوين الصغيرة من وضع النساخ ، ولم اعرب إلا المهمة منها .

ليلهمني لمن اكشف افكاري . فأمرني بأن آتيك واطلعك على اموري . فاسمعني اذن كما هي ارادة المسيح في هذا ، ولاتقاوم ارادته . بل اجبني بما يوحيه المسيح اليك . فلما سمع الربان ماقاله (مار اثقن) تركه على بابه ، وولج داخل صومعته ، وصلى يسأل الرب . فامره المسيح ان يستمع الى الشيخ ويجيبه . ثم طلع اليه وسمعه وردّعليه جواب الحل لصعوبته .

وكان راهب اخر يدعى اسرائيل ، قد كدّ هو ايضا واجتهد في سعيه . وجرى له امر مافي عزلته . فاتى الى الربان . ولما شرع يطلعه على امره ، اسكته الربان . فقال له الاخ : ان كنت لاتسمعني وتجيبني ، فالمسيح يطالبك بهلاك نفسي .

حينئذ دخل الربان الى داخل (صومعته) وقدم الصلاة كعادته ، فلم يأته اي جواب من الرب ، وبينما كان يخرج ليصرف الاخ بدون جواب ، وقبل ان يصل الى الباب ، والاخ في وسط الحوش ، أمرته النعمة ليستمع الى الاخ ويجيبه الجواب الشافي . فخرج اليه وسمعه مقدما له المشورة التي تناسبه كما امره المسيح . فعاد ذلك الاخ مسرورا الى صومعته .

وبعد ايام سافر هذا الاخ لزيارة الربان بنيامين الذي كان مقيما في الجبل في بلد المرج [1] . وكان هذا الرجل فاضلا عظيما قد ذاع صيته في ذلك البلد كله . وكان قد اكتسب رؤية الفكر الروحية . فلما راى الشيخ (بنيامين) هذا الاخ ، وقبل ان يفتح فاه بشيء ، بادره الشيخ الربان بنيامين قائلا له : لماذا يابني حمّلت نفسك مشقة هذه الطريق كلها؟ الا يكفيك ماقاله لك الربان يوسف ، الذي حين دخل داخل كوخه وصلى من اجلك ، لم يأته اي جواب ، الى ان خرج الى وسط حوشه ، وهناك سمحت له النعمة ان يستمع اليك ويجيبك؟ .

بمثل هذه الدوافع كانت النعمة تحرك الربان ، الى ان قدم نفسه وارخى كاهله للمشاق ، للعمل الذي اعطى بجهوده الروحية ثمارا ومكاسب من التقى فاخرة وافرة .

ومنذئذ كان جميع الاخوة يقرعون بابه لينالوا منه عونا وقوة الهية ، ويتعلموا كيف يسيرون في طريق الرهبنة الوعر . فانتشر خبره في جميع اديرة المنطقة برمتها ، وبلغت اخبار شهرته وامجاده الى البلدان القاصية والاديرة التي فيها .

وكان يتهافت اليه الرهبان من كل صوب ، والعلمانيون من مسيحيين وغير مسيحيين ، متشفعين بصلواته . وكل من كان يقصده ، كان ينال مطلبه من الرب

1- بلد المرج هو المنطقة الواقعة مابين نهر الزاب الكبير غربا ونهر الخازر ورافده الكومل شرقا ، وتشكل مثلثا متساوي الضلعين .

بصلواته . ولم يرجع احد الا وقد تمت طلبته وتحققت رغبته . ولما كثر عدد الناس القادمين اليه ، رهبانا من جميع الاديرة ، ومؤمنين من كل بلد ومدينة وقرية ، لم يتمكن من مجابهة الحال لشدة الازدحام ، فاتخذ له تلاميذ يقومون بخدمة زواره .

وكان ياتيه كثيرون حتى من مدينة السلام بغداد ، لان صيته طار الى كل حدب وصوب كما قلت . والذين لم يتمكنوا من زيارته ، كانوا يسألون حاجاتهم برسائل يبعثون بها اليه على يد وفود ، فينالون مطلبهم وكأنهم بالقرب منه . كما كان يتصل به على هذا النمط ايضا ، مار عبد يشوع الجاثليق[1] السعيد الذكر[2] . فيبعث اليه برسائل موفدة ، يطلب فيها صلواته من اجل كل قضية تهمه ، ويسأله عن كل صعوبة يلاقيها .

وكذلك الفقهاء المسيحيون في مدينة السلام ، كانوا يتوسطون لدى الجاثليق ليكتب الى الربان في قضاياهم ، نظرا للصداقة والمودة التي كانت تربطهما من قبل . وكان يقصده الرهبان ايضا من دير مار يوحنا الديلمي[3] .

ان المسيح ربنا والهنا ، الذي اختار بسابق علمه ، هيكل النعمة هذا ، وجعله قيّما على خزانته الزاخرة ، وعهد اليه بمهمة توزيع مواهبه على الجميع ، كان يمنح برأفته الكثيرة ونعمه الغزيرة ، طلبات جميع المتشفعين بصلوات مؤتمن الروح القدس هذا .

فازدهر الدير بالاخوة المتوحدين ، كما في عهد القديس الربان موسى ، وكان فيه ماينيف على المئة والخمسين حبيسا .

سبحان الله الذي نصرهم ، وعلينا رحمته ورأفته آمين .

١–ورد التعريف به صحيفة ٣٣

٢–من هنا نفهم ان المؤلف وضع كتابه هذا بعد سنة ٩٨٦ وهي سنة وفاة مار عبد يشوع الاول الجاثليق (ذخيرة الأذهان جـ١ ص٤٢٩) .

٣–مار يوحنا الديلمي اصله من الحديثة . ترهب في دير باعابي (عقرة) بنى ديرا بالقرب من قرية اركن شمالي العراق . ثم أخذ اسيراً الى منطقة الديلم جنوب غربي بحر قزوين (الديورة ١١٧ ، كتاب الرؤساء ص٩١ – ٩٣) .



الفصل السادس

في الايات والعجائب التي اجراها الرب على يد الربان . وفي الرؤية الالهية التي منحت له . وفي صبره وثباته وتواضعه ومحبته المتدفقة ورأفته الغزيرة .

ان الباري الحكيم خلق النفس بالفطرة ، ناطقة وعاقلة وروحية ومنزهة عن الاهواء التي تعمي الرؤية الالهية . ولنا مثال على ذلك في المرآة الجلية وغير الملوثة التي لها صفاؤها وجمالها في طبيعتها . وكما ان المرآة تتلطخ بغضن يصيبها من الخارج فيتشوه صفاؤها ، كذلك النفس الواضحة الرؤية ، صدئت بدنس الخطيئة بالمعصية الاولى[1] . ولكن من خارج وليس في طبيعتها . لأن الخطيئة لاقدرة لها مع ذلك ، على ان تفسد وتغير طبيعة النفس ، بل انما تلوثها من خارج تلوثا (عرضيا) لاكيان له ولا اقنوم[2] . وتبقى الرؤية الروحية التي لطبيعتها الفطرية ، منحجبة فيها دون ان تزول عنها ، كما ينحجب جمال المرآة فيها .

فمن ادرك ذلك جيدا ، وترك العالم تلبية لنداآت الخير الفطرية ، واحب العزلة حبا بالخير الاول ، يصب كل اهتمامه في تنقية مرآة نفسه وتطهيرها من صداءها البغيض الذي به عميت عين بصيرتها الثاقبة . ويضع ارشادات الشيوخ وتوجيهاتهم على سطح المرآة كأدوية تبدو في الظاهر وكأنها تزيد المرآة تشويها ، ألا وهي التقشفات الجسدية التي مع مايرافقها من صراعات ، تضبط النفس ، وتعتبر في الظاهر وكأنها مشوهة لها .

واذا ماسعى الانسان جاهدا زمنا ما مثابرا على التقشفات الجسدية في مرحلة الجسد[3] ، فباستمراره عليها تبطل الصراعات وتنطفئ الاهواء . وكما ان جمال المرآة ينجلي بعقار يابس يجلوها ، كذلك الجهود الفكرية يصفها المرشد لمن يرشده في

١-المعصية الاولى ، اوالخطيئة الاصلية (سفر التكوين ٣ : ١ - ١٩) .

٢-ان الكائن حسب الفلسفة اليونانية التي يتبناها المؤلف ، مركب من جوهر وعرض ، وله طبيعة واقنوم أو شخص .

٣-ان مراتب الكمال الرهباني عندهم كانت على ثلاث مراحل ، اولاها مرحلة الجسد ثم مرحلة النفس ، واخيرا مرحلة الروح اوالفكر . ولكل مرحلة اساليبها وتوجيهاتها وممارساتها الخاصة بها . هذا مايفصله لنا الكاتب في الفصل الثامن من الكتاب تفصيلا دقيقا .

طريقه ، لكي يضعها على مرآة نفسه ، فتعيد الانسان الى طبيعة خلقته الاولى وهي مرتبة النفس . وفي هذه المرحلة تجري العجائب والايات وشفاء المرضى ، ويجريها المخطط (الالهي) من اجل الذين لايؤمنون ، كقول المبشر الصادق[1] .

وكما ان المرآة تصفو بالعقار اليابس الذي يصقلها ، فتعود الى طبيعتها الاولى نقية لا درن فيها ، كذلك النفس الناطقة المعنيّة بالجهود الفكرية في مرحلة النفس ، تزداد نقاءً كلما ثابرت على بذل هذه الجهود ، الى ان ترتفع فوق مرتبة الانسان الاول ، الى معرفة الطبيعة من جديد ، كما يسميها العلماء ، تلك المعرفة التي تحصل عليها في مرحلة النفس ، ومنها تدخل النفس في مرحلة الروح التي تجلت في المسيح ربنا ، لأنها كانت وقفا عليه منذ البدء . ولايصح القول اخوتي ان المعرفة الاولى للطبيعة تعطى (للنفس) بواسطة الذهن المتمعن ، كلا! لأن الحصول عليها لايتم بجهود (بشرية) بل باحسان (من الله) . وحينئذ يصبح الانسان عوض صانع قوات رائي الاسرار الالهية ، ولايدعى بعد صانع قوات ، ولارائيا ايضا ، بل عالما حقيقيا ، لأن الرؤية التي تمنح في هذه المرتبة ، تكتمل بالمعرفة التامة .

اما في مرتبة النفس ، ولئن كانت تعطى فيها رؤية ومعرفة ، الا انها جزئية ، وليست المعرفة كلها ، كما هي في هذه المرتبة العالية . لذا فالعجائب والآيات تعطى وتجرى في المرتبة الاولى والثانية . فالرؤية (تعطى) في مرتبة النفس ، وهي جزئية وقليلة في المرتبة الاولى (مرتبة الجسد) . أمّا المعرفة التي تحتوي على الرؤية ايضا فتعطى في مرتبة الروح بفضل (من الله) ، وان كانت جزئية في سابقتها وزهيدة في الاولى . فالرؤية اذن افضل من صنع العجائب ، كما ان المعرفة اسمى من الرؤية . قال رجل عالم متشح بالمسيح[2] مايلي : ليس كل راءٍ عالما ايضا ، وكل عالم راءٍ ايضا . كما ان كل صانع قوات ليس رائيا ايضا ، وكل راءٍ صانع قوات ايضا ، ولهذا السبب قلت وبكل حق ان الرؤية اعظم بكثير من صنع القوات ، لان تلك تحتوي على هذه ايضا .

فلهذا السبب عينه لايتفرغ قط الراهب العالم لصنع العجائب بدون ضرورة اضطرارية ، لانه قاسى المشقات من اجل المعرفة وليس لصنع القوات . وبهذه المعرفة المحتوية لكلتيهما اعني الرؤية وصنع العجائب ، لايكون المرء شبيها بالانسان ، بل بالله ، خاصة بالله ، كما ان رأفته ومحبته ليستا مغرضتين ، بل فياضتين على كل فرد

١- يوحنا ٢٠ : ٣١ ؟ .

٢- رومية ١٣ : ١٤ ، غلاطية ٣ : ٢٧ .

وللجميع ، مثل الله الذي يحب الجميع ويرحم الجميع بدون علة البتة . كما وان ذلك المرء يقدم ذاته طوعا ذبيحة من اجل الكل ، قربان مصالحة لله . وبالتواضع المسيحي يعطي ذاته لكل انواع الآلام عوض كل فرد ، محبة بكل فرد ، ويصبر على كل شيئ ويحتمل كل شيئ بمحبته الالهية . ولايعز عليه حتى وان قدم ذاته للنار بدافع محبته للجميع . وهذا يعرفه جيدا ذاك الذي اختبره بنفسه ، واكتسبه احسانا ، بالمعرفة الكاملة .

هذه هي حقا الدرة الثمينة ، وهذا هو الكنز الثري المطمور والمخفي في باطن النفس ، بفضل الله ، في باطنها ولايوجد خارجا عنها . وهذا هو ايضا ملكوت السماء المقيم في باطن النفس[١] ، ولايتحول عنها ، وفيها يسكن ويعمل . وبهذه المعرفة ينال المرء دالّة البنين ، التي بها يدعو الله ابا ايها الآب[٢] ، ويصبح وارث مجده وشريك ميراث ربنا يسوع المسيح . وبهذه الدالّة يقدم اتعابه واعمال ابنائه الحسنة قربانا لله ذبيحة حية[٣] . ويقول مطمئنا بدالّة البنين نفسها[٤] : «ها انذا يارب والبنين الانقياء وغير المدنسين الذين اعطيتنيهم رائحة عرف ذكية لمرضاة ارادتك» .

فالى هذه الدرجات والمراقي ارتفع هذا الرجل العجيب الذي نتحدث عنه . وتمرس في هذه المراتب ومافيها من روئ تأملية ، الى ان وجد في حقل نفسه هذه الجوهرة اليتيمة ، اعني الى ان استقرت نفسه في خلقتها الفطرية الاولى . وفيها وجد المعرفة الاولى للطبيعة ، فاضحى عالما ورائيا وصانع قوات معا . واكتسب الحنو والحب الشامل والنزيه ، والتواضع والصبر والرأفة التي لاتعرف حدا ، على مثال المسيح ربنا .

وهو ذا انا البليد متأهب باسلوبي الركيك ، لأروي في هذا الفصل على قدر طاقتي ، نتفا من العجائب والايات التي اجراها الرب على يده . واتكلم ايضا عن رؤية الفكر الروحي التي اكتسبها ، والتي تفوق جداً صنع الايات كما قلت ، ذاكرا قلة منها كما نوهت ، مما كنت لها شاهد عيان وسمعتها منه احيانا ؛ وعن تواضعه وصبره ومحبته ورأفته . عن هذه كلها والحق يقال ، اذكر ان امكن ، نقطة من بحر ، لانني لم ارافقه منذ البداية ، ولم اقف على كل ما اجراه المسيح على يده .

وذوو الالباب يكتفون باقل من هذه ، ليفهموا ويعرفوا ويدركوا عظمة رجل الله هذا .

١- لوقا ١٧ : ٢١ .

٢-رومية ٨ : ١٥ .

٣-رومية ١٢ : ١ .

٤-اشعيا ٨ :١٧ - ١٨ .

(في دير الربان هرمزد)

حدثني الربان انه اثناء اقامته في دير الربان هرمزد ، كان يخرج من عزلته الى اجتماعات ايام الآحاد والاعياد والتذكارات ، حسب نظام الصمت انذاك ، فيرى اعجوبة باهرة ، على الصورة التالية :

لدى دخوله الهيكل ، ووقوفه الوقفة التي ارادها لنفسه بين صفوف الاخوة المرتلين في تأدية الصلاة كالمعتاد ، كان يسمع صوت ملاك مرتلا مع الجوقتين[1] ، فتارة يسمع صوته مع هذه الجوقة ، فينجذب عقله بعذوبة صوت الملاك ، فيميل اليه بوجهه وبجسمه كله ، وطورا ، اذ يتلقف الاخوة اللحن في الجوقة الاخرى ، يسمع فيها ذلك الصوت العذب ، فيميل بوجهه نحوها ، فتصدر منه حركات مضطربة تقلق الاخوة ، فيقولون له بحدة : ترى مابك مضطربا مبلبلا؟ ألست في اجتماع الرهبان؟ قف حسنا وتعقّل! ، اما هو فلم يكن يقوى على السكون لما يحدث ، بل ينغلب له ، فيخرج من الهيكل مسرعا الى صومعته .

يجد صليبا

في يوم من الايام ولمّا يزل بعد في دير الربان هرمزد ، خرج كعادته الى الجبل للصلاة ، فوجد مغارة دخل فيها فرأى صليبا صدربا معلقا بعروته على الجهة الشرقية من المغارة . فصلى واخذ الصليب وقبّله فاشتم منه رائحة ذكية اطيب من كل العطور . ولما عاد الى صومعته وضعه في علبة صغيرة وخبأها في المخزن اي في المخبأ الذي كان له . واوصد باب المخبأ فرحا مسرورا بالكنز الذي لقيه . وبعد ايام دخل في ذلك المكان ليقبّل الصليب ، وفتح العلبة فلم يجد فيها الصليب . فتعجب بهذا وحزن جدا ، وصلى طالبا من المسيح ليطلعه على امر الصليب ، فقال له ملاك العناية الالهية الذي كان يرافقه : لاتطلب ماليس لك ، فقد اتى صاحب الصليب واخذه! فتضايق الربان مما جرى ، وطلب من الرب ان يعيده اليه . ولا اعلم كيف وبأية طريقة اعاد الرب الصليب اليه بعد زمن ، لانه كان معلقا على صدره الى يوم وفاته .

١ــجرت العادة في الاديرة وفي كنيسة المشرق عامة على تأدية الصلاة الجماعية بجوقتين ، منذ عهد الجاثليق مار شمعون برصباعي (+ ٣٤١) .

رؤياه في عهد الربان موسى

روى لي الربان الرؤيا التي رآها في عهد الربان موسى حول نهاية العالم وهي : في احدى الليالي بينما كان في صومعته واقفا على رجليه في وسط الحوش ووجهه نحو المغيب ، راى في كشف الهي قرص الشمس واقفا في مداره نحو المغيب ، على بعد قامة واحدة عن الجبل الذي كان يغيب خلفه . وكان بين الشمس ونقطة المغيب ظلام دامس مشوب بحمرة قائنة يعجز اللسان عن وصفها . فاضطرب جدا من هذا المنظر ، وقال للملاك الذي بمعيته : ماهذا المنظر المخيف والغريب؟ فقال له الملاك العامل في المنظر : ان الله اراد في ماتراه الان ، ان يطلعك على نهاية العالم ، لعلمك ، ان ماتراه باقيا من النهار ، وهذا الظلام المدلهم الذي تشاهده في مدار الشمس نحو المغيب ، يشير الى الضيقات والاهوال والتغيرات التي تنتاب البشر في نهاية العالم .

وبعدما استفاق من الرؤيا وغاب عنه المنظر ، ذهب الربان الى القديس الربان موسى ، واخبره بالرؤيا التي رآها . فلما سمع الربان موسى ماحكاه له الربان ، سالت دموعه على خديه وقال للربان : اعلم ان الله لم يكشف لك كل الحقيقة ، لانك غير قادر على تحملها ، انما كشف لك قليلا مما سيقاسيه البشر من ضيقات رهيبة لاتوصف ، ستحدث منذ الان وحتى نهاية العالم .

وعقب مرور زمان قصير على المنظر الذي رآه الربان ، بدأت تغيرات محزنة ومختلفة تطرأ على العالم . ومع تقدم الزمن كانت الكوارث والصعاب تتفاقم على الناس . وكان الربان يتنهد دائما مما سيعانيه البشر في هذا الزمان اللاخير ، قبل قدوم ذلك الفارسي او الديلمي المدعو فناخسرو[1] . وكان خلال اربع سنوات يتحسر دائما بصوت عال قائلا : سبحان الله على ماسيحدث للناس والاديرة والقرى والمدن! . وكثيرون سمعوه يردد هذا القول ، متألما من شدة وضيق ماكان يراه ، ويصرخ دون وعي متنهدا باعلى صوته ، ويمجد الله على ماسيصيب العالم ، وعيناه تذرفان الدموع الغزيرة .

وبعد هذه السنين الاربع التي ذكرتها ، اقبل ذلك الملك الى هذه البلاد في نهاية

١ـ فناخسرو هو جد بني بويه القاطنين في بلاد الديلم جنوب غربي بحر قزوين ، ولهذا لقبت دولتهم بالديلمية . (تاريخ الموصل . القس سليمان الصائغ جـ١ . ص١٠٩) .

سنة ٣٦٧ هجرية[١] . فاخذت الاضطرابات والشدائد تنتاب البشر[٢] . فقال الربان : ها قد حل الغضب ، والله يعلم اين تكون نهايته ، لكنني طلبت من المسيح ليصرفني عنه ، لكي لاارى بعيني ماسيحدث من دمار للناس والاديرة .

وعقب سنة واربعة اشهر على قدوم هذا الملك ، انتقل الى جوار ربه كما طلب منه[٣] لكي لايرى خراب الاديرة والكنائس وتشتت الاخوة والمؤمنين الذين فيها .

وكثيرا ماكان يتنبأ بالانحطاط الذي اصاب دير باصياري ، قائلا باسلوب رمزي : «وانت ياكفرناحوم التي ارتفعت الى السماء ، ستهبطين الى الجحيم» .[٤] لكنه في عهده لم يشهد اي انحطاط فيه .

وكان الربان يطلعني سريا على الحوادث التي جرت في دير الربان هرمزد . كما سبق واطلعني على خراب بلد داسن [٥] قبل حدوثه بزمان . وكان يقول لي : سيأتي من عند الله خراب بلد داسن ، ويتشتت سكانه ويقتل منهم عدد لايحصى بيد الاشرار المقيمين فيه . وبعدما يزول الغضب عنهم يتعمر ويزدهر من جديد . وقد تم هذا فعلا ، ورأيناه باعيننا .

مثل هذه المعرفة السابقة اعطيت من قبل الله لهذا الطوباوي ، وبها كان يرى الامور المستقبلة ، فيسبق ويخبر بها كأنما في نبوة .

قصة مار عبد يشوع الجاثليق

حينما كان مار عبد يشوع الجاثليق اسقفا على امعلثاي، اراد ان يستقيل من الاسقفية . ولكونه صديق الربان وبينهما مودة حميمة ، اقبل الى الربان يستشيره في القضية . فاطلعه عليها ناويا تقديم الاستقالة خطيا . وطلب اليه الصلاة من اجله . فقال له الربان : نعم اصلي ، وماتكشفه لي النعمة اقوله لك . فصلى الربان من اجله . وفي

---

١ -سنة ٣٦٧ هجرية بدأت في ١٩ آب سنة ٩٧٧ ميلادية .

٢ -جرت هذه الحروب بين فناخسرو وابي تغلب بن ناصر الدولة الحمداني (المصدر السابق جـ٢ . ص١٢١) .

٣ -فقد توفي الربان يوسف اذن في مستهل سنة ٣٦٩ هجرية التي بدأت في ٢٩ تموز سنة ٩٧٩ ميلادية .

٤ -كناية مقتبسة من انجيل متى ١١ : ٢٣ .

٥ -بلد داسن هو المنطقة الواقعة الى شمال شرقي العمادية .

تلك الليلة كشفت للربان النعمة مرشدته ان مار عبد يشوع مزمع ان يصبح بطريرك المشرق. فجاءه صباحا قائلا له بسرور : السلام عليك سيدي الجاثليق! اعلم ان المسيح سيقيمك على رأس كنيسته ويرفعك الى سدة البطريركية! . وقد تم ذلك فعلا بصورة مدهشة وعجيبة. لانه عندما اجتمع الاباء لانتخاب الجاثليق ، اتفقوا بعد فترة من الاختلاف على كتابة اسماء من يرونهم جديرين لهذا المنصب. فكتبوا ست اوراق ، وارادوا جعلها سبع. فقال احدهم على حين غرة : اكتبوا اسم عبد يشوع (اسقف) معلثاي. فكتبوا. وبعدما قدموا الصلاة طالبين من الله ان يكشف من هو الجدير بالمنصب وقعت القرعة عليه ثلاث مرات. فكتبوا الى المؤمنين في الموصل واخبروهم بماجرى. واخذوه عنوة وبعثوه الى مدينة السلام. وبضغوط كبيرة قبل كرامة البطريركية. بينما كان الكثيرون منهم يسعون جهدهم للحصول عليها. فتمت فيه نبؤة الربان فعلا.

قصة صخرة في صومعته

كان الربان يتحدث عن تجلده وسيرته التقشفية الرفيعة كما يلي : كان في صومعته صخرة كبيرة كأنها قطعة من جبل ، اراد ان يكسرها لتوسيع فناء الصومعة. ولعله اراد اجهاد نفسه بهذا العمل. فصنع مطرقة ثقيلة تزن ثلاثة التار[1] من النوع الكبير. وشرع بالعمل في بداية سابوع الرسل[2] القديسين. وكان يعمل فيها طيلة النهار دون ان يرتاح قليلا حتى ولاوقت الظهيرة ، ويواصل الشغل في الليل ايضا. واستمر على هذا العمل المضني دون ان يحل صومه ، ولم يذق شيئا البتة لمدة ثمانية ايام. ولكنه لم يرد القيام بهذا المقصد الرائع والفائق الطبيعة بلا استشارة احد. فأتى ليلا الى القديس الربان موسى واطلعه على نيته وفحوى فكره ، فمنعه الربان موسى عنه قائلا له : ان هذا العمل عظيم ويفوق طاقة زماننا ، ولااريد ان تميز نفسك بشئ لايناسب الوقت ولايفيد. بل اذهب حُلّ صيامك وتناول شيئا مابسبب الشغل الذي انت منكب عليه.

المجد لمن عضده

في احدى السنين عانى البلد كله نقصا في القمح. وبما ان الربان كان متجرداً تماما ، لم يكن لديه شئ ما ، سوى قليل من البلوط في صومعته. وقضى ذلك الشتاء

١-اللتر (يونانية) يساوي وزنه اثنتي عشرة اوقية.

٢-سابوع الرسل : فترة من طقس الصلوات في كنيسة المشرق. تاتي بعد عيد القيامة بخمسين يوما وتشمل سبعة اسابيع.

كله بلاخبز . وكان في كل ليلة يأكل كسرة من خبز القربان ، وثلاثا من ثمر البلوط . وماعدا هذه البلوطات الثلاث لم يذق شيئا اخر في ذلك الشتاء .

ولما وافى صوم الرب[1] ، نفد البلوط الذي كان في حوزته . فماعدا كسرة خبز القربان التي كان يأكلها كل ليلة ، لم يدخل فمه طعام آخر ، طيلة صوم الرب ، سوى ايام قليلة .

وفي الاسبوع الاخير من الصوم ساءت حالته ، وتقلصت امعاؤه وجف حلقه بحيث لم يعد قادرا على جرع الماء . فقام ليلا وتأهب للذهاب الى احد الاخوة ليطلب منه قليلا من الحنطة[2] . فلما وصل الى باب صومعته وهمّ بالخروج ، قبّل الصليب الذي كان يحمله معه ، فتراجع ولم يفتح الباب ، ورفع يديه نحو المسيح المعلق على صليبه وقال : وحبك ايها المسيح لن اخرج ، ولا اطلب شيئا من بشر . فاذا بعثت لي شيئا من عندك اتقبله شاكرا ، والا فأموت خلف هذا الباب من اجل حبك العذب ، لان حبك خير لي من حياة هذا الزمان! . ثم عاد الى داخل وجلس على كرسيه قبالة الصليب . واذا برجل يطرق الباب طرقا سريعا ، فخرج ليرى من هو ، فوجد شيخا وقورا مرهقا يدعى يوحنا الداسني . وبعد تبادل السلام قال له الربان : لاي داع خرجت من صومعتك في هذه الساعة؟ . قال له الربان يوحنا : ان هاجسا طارئا حركني الساعة لآتيك بقليل من الحنطة ، ولم اقو على مقاومته فخرجت مسرعا . ثم اعطاه كيسا فيه مكوكان من الحنطة . فاخذها الربان وشكر المسيح المعتني بخاصته ، وارسلها لتطحن في الرحى ، وبعث بنصف ذلك القمح الذي ارسله له المسيح ، الى الربان مار اثقن الذي سبق ذكره ، لانه كان في فاقة هو الاخر ، وبالنصف الباقي من القمح تدبر امره بجزء زهيد يوميا حتى موسم الغلة الجديدة .

والرب شاهد لي بانني كتبت هذه الاشياء كما سمعتها من فمه . ان المرء لينذهل من هذا الرجل العجيب ، ويندهش بعظمته حين يقف على سيرته الرفيعة ومناقبه ، سواء بالنظر الى تجلده ، او الى القوة التي كانت تعطى له من قبل النعمة مرشدته ، او الى صدق رجائه وثقته بالله ، والى عطفه الشبيه بسيده ، وحبه الشامل والخالص ، لانه

١-صوم الرب وهو مدة الأربعين يوما من الصيام والتوبة ، السابقة لاسبوع الالام حسب طقس المشارقة .

٢-كان كل راهب حبيس يتدبر وحده امر معيشته ، فيأخذ حصته من مؤن الدير ، ويتصرف بها كيفما يشاء .

في حين لم يكن له شيء في حوزته ، لم يصبر بعطفه ومحبته الا ان يعطي للمحتاج من ذلك القليل الذي رزقته النعمة ، ولمّا يزل يعاني من الفقر والعوز . لكنه بثقته العميقة ورجائه الراسخ وثباته المدهش ، لم يكن فقيرا ولامعوزا ، بل كان غنيا بالله وموسرا بخيراته .

مرقس كاهن (كنيسة) مار بثيون

كان في الموصل كاهن في كنيسة مار بثيون[1] الواقعة على دجلة ، اسمه مرقس . وكان نشيطا في خدمته وحريصا عليها كل الحرص ، ومتحليا بعطف كبير ، وكان يوزع صدقات كثيرة على الفقراء والمحتاجين . وكان يعاني الما شديدا من مرض الكبد . فاقبل في سابوع القيظ[2] الى الربان ليتبرك منه ويطلب صلاته . وفي تلك الايام اشتد عليه الألم من مرض الكبد ، فاطلع الربان على شدته . فقال له الربان : غدا تناول القربان وهلم اليّ . فجاءه الكاهن ظانا انه يسقيه دواء مفيدا لألمه ، فاعطاه الربان كأسا كبيرة مملوءة خمرا معتقة خالصة بلا ماء قائلا له : اشرب هذا . ثم قدم له اناء اخر مملؤا عسلا ممزوجا بدهن الزيت والكمون ، وقال له : وكل من هذا ايضا . ولم يقدر الكاهن ان يقول له شيئا . لكنه عمل كما امره الربان . فاكل العسل الممزوج بدهن الزيت والكمون ، وشرب كأس الخمر . وفهم وعرف ببصيرته ان مايجري اعجوبة كتلك التي اجترحها النبي الذي وضع على قرحة اوراق تين مضرة[3] . فآمن بأنه ينال الشفاء بصلوات الربان . ثم امره الربان ان يتدثر بكساء وينام مابين الشمس والظل تحت الشجرة التي في صومعته ، وكانت ايام الصيف الحارة . وفي الساعة التاسعة ، ايقظوه فرأوا العرق يتصبب منه بغزارة . فنهض معافى من مرضه وقد زال التهاب كبده . فتعجب الكاهن مما حدث ، ومجد الله على هذه الاعجوبة الباهرة التي صنعها له على يد الربان بطريقة تفوق معرفة هذا العالم . ومكث هناك اياما وهو يأكل ويشرب الخمر اعتياديا .

---

١ –مازالت كنيسة مار بثيون باقية الى الان في محلة شهر سوق من الموصل ، تاريخ تشييدها مجهول . ومار بثيون استشهد يوم ٢٥ تشرين اول سنة ٤٤٦ . (تاريخ الموصل . سليمان الصائغ جـ٣ . ص١٠٣ – ١٠٤)

٢ –ياتي سابوع القيظ اوالصيف بعد سابوع الرسل في صلاة كنيسة المشرق . ويستمر سبعة اسابيع .

٣ –اشعيا ٣٨ : ٢١ .

ولما اراد العودة الى كنيسته ، امره الربان قائلا : انظر ، لاتتعاط في المدينة هذا الدواء الذي تناولته هنا ، لانه لايفيد في المدينة . وانما قال له هذا على سبيل المزاح ! فرجع ذلك الرجل شاكرا الله ومسبحا لاسمه عز وجل .

الربان بريخيشوع

روى احد رهبان الدير اسمه بريخيشوع انه ، قبل ان يترك العالم ، لاقى تجارب عديدة كانت هي سبب خروجه الى الرهبنة . وبعدما لبس الثوب المقدس ، تفاقمت عليه تلك التجارب . وبمشورة الشيطان وبجهله هو اخفاها عن الربان . فاصيب بمرض عضال ومزدوج اعني في جسده ونفسه . فلما رأى الربان جهله ، وانه لبساطته اخفى تجاربه عنه ، اشفق عليه لئلا يهلك . فاخذ الربان يقص عليه كل ماجرى له في العالم ، وما كان يعانيه وقتئذ . وكان هذا الاخ يؤكد بقسم ان لاشيئ خفي عن الربان من كل ماجرى وحدث له ، بل سرده عليه بوضوح وتسلسل . وبعد ذلك نال الشفاء التام بنوعيه اعني عافية جسده وشفاء نفسه ونجاتها من التجارب .

ولما اكمل هذا الاخ فترة الابتداء ، وخرج الى صومعته ، ظهرت على جسمه اعراض البرص البيضاء . فكشف مرضه واراه للربان باكيا ملتمسا منه ليرأف به كعادته . حينئذ مسحه الربان بالماء المبارك ورسمه بصليبه فنال الشفاء من مرضه والتطهير من برصه . وقد اخفى هذه الاعجوبة وسكت عنها الى ان انتقل الربان الى (السماء) موطنه . وحينذاك حكى ماصنعه الله له بصلوات القديس .

قصة آغاحسن بن ابراهيم

كان للهكاريين[1] آغا يدعى حسن بن ابراهيم ، اتى في يوم من الايام الى الربان . ولما دخل عنده اخرج جميع الحاضرين خارج الصومعة ، وكشف عن جسمه امام الربان ، واراه اعراض البرص الذي كان في ظهره ، وطلب منه باكيا ليصلي عليه ليشفى . اما الربان فرسمه بالصليب وبالماء المبارك ، وللحال شفي من مرض البرص . فخرج ذلك الرجل وهو يمجد الله ويثني على قديسه . وامر رفاقه جميعا لئلا يسيئ احد منهم الى الرهبان . والى حين وفاته لم يدع احدا يؤذي الرهبان . وكثيرا ماكان يتردد على الربان ويتبرك منه .

١-الهكاريون قبائل كردية كانت قاطنة مابين العمادية والزاب الكبير.

خبر شقيق المؤلف

لما قدم ذلك الملك الديلمي الذي ذكرته سابقا[1] ، الى هذا البلد ، نزل ملك الموصل لمحاربته . وكان شقيقي بصحبته فنزل معه ايضا . وفي اليوم الذي تحارب الملكان، دعاني الربان وقال لي : هل سمعت خبرا ما عن حرب الملوك؟ . فقلت له : انني لم اسمع شيئا . حينئذ سالت دموعه ، وقال باسلوب رمزي : رجائي بالله ان لايحزنني به ! اما انا فلم افهم معنى هذا . وبعد ايام بلغني خبر مؤلم مفاده ان اخي وقع في الحرب ، ولا احد يعرف عنه شيئا . فدخلت الى الربان اصرخ باكيا وقلت له : ان تلميذك اخي فُقد في القتال ! . اما هو فاسكتني عن البكاء وشجعني قائلا : لاتخف ، لي الرجاء بالله ان لايحزنني باخيك ، بل ان يريني وجهه سالما بجسده ونفسه . حينذاك فهمت رمز القول الاول ، وكيف انه في الوقت الذي سقط اخي في المعركة ، رآه بعين فكره الثاقبة ، وصلى الى الله لكي ينقذه مما اصابه . وقد سمع الله صلواته من اجله ، ونجاه من القتل والخطر المحدق به ، بعدما ظل يومين ملقى بين القتلى . فاعانه الله وانقذه بصلوات الربان . وبعد زمان اقبل الى الربان مشافى من جروحه ، فسُرَّ به الربان سرورا عظيما .

(قصة كْلولا الكسيح)

خلال الايام التي كان اخي عندنا في الدير ، اتى اهالي قرية موردني (بامرني) برجل يدعى كلولا ، وكان بنّاء . وقبل سنة تقريبا كان قد اصيب بداء الشلل . فحملوه واتوا به الى الربان ، ولما ادنوه منه ، زجر الربان اولئك الذين حملوه اليه قائلا : ألعلي طبيب لتأتوني برجل مقعد ! احملوه الى بيت الشهداء[2] ، الى حيث نأمل جميعنا ان ننال المعونة .

اما اخي الذي كان في تلك اللحظة واقفا ازاء الربان ، فقد ساء ذلك في عينيه ، اذ كيف يزجر الربان رجلا واقعا في ضيق ! وانا من جهتي لاحظت في الربان علامات ما ، كنت اراها فيه متما يؤتى اليه بمريض ، واستدل بها على ما اذا يشفى المريض ام لا .

فلما وضعوا هذا المقعد امامه ، لاحظت فيه تلك العلامات الدالّة على شفائه . فقلت لاخي : هل ترى هذا المريض ، انه سيخرج معافى من امام الربان . ثم التمسنا

١-انظر صحيفة ٥٥ من هذا الكتاب .

٢-بالسريانية : بيث سهدي ، وهو غرفة تقع الى يسار المذبح حسب طراز كنيسة المشرق ، تحفظ فيها رفات الشهداء والقديسين . ويدفن فيها ايضا مشاهير الرهبان في الأديرة

الى الربان ان يرسمه بالماء المبارك وبالصليب ويصلي عليه . وكان الربان متعودا ، في حالة وجود مريض قدامه ، على ان يأمر كل من هو حاضر معه ، بان يرسمه هو اولا بعلامة الصليب ، وبعد ذلك كان يرسمه هو . اذ لم يكن يميز نفسه بشيء عمن هو الاصغر بين الاخوة .

فلما التمسنا من الربان بشأن المريض الذي كان يتعذب ، امرنا كعادته ان نرسمه جميعنا بعلامة الصليب ، فرسمناه ، وهو بدوره رسمه بالصليب وبالماء المبارك ، وقال له ان يذهب الى بيت الشهداء . فحمله اولئك الذين كانوا معه وهم يسندونه ، وبينما كان على هذه الحال في حوش الصومعة ، قويت رجلاه وركبتاه ، فانتصب وقام ومشى معافى من مرضه ، فتخلى عنه الذين كانوا يسندونه : فدعوت اخي لأريه الاعجوبة التي حدثت لذلك المريض ، وفيما كان مقبلا ، خرج ذلك الرجل من الباب ، فطلعت انا واخي من الباب خارجا ، فرأينا ذلك المقعد يقفز ويرقص وينزل الدرج التي امام الباب ، مسرورا وهو يمجد الله . فتعجب اخي وحمدنا الله الذي اجرى في ايامنا ماجراه في زمن الرسل على يد شمعون الصفا[1] .

(قصة حفيد ابو لقا)

كان في قرية باموردني رجل عظيم وذائع الصيت من الرهزديين[2] اسمه ابو لقا ، وله بنت كان لها ابن عمره خمس سنوات تقريبا ، تنتابه حمى شديدة ، وكثيرا ماارسلته الى الربان ، ولم تنقطع عنه الحمى . وفي احد الايام اتت به والدته الى الربان . فلما اخذنا الولد لندخله على الربان ، تركته والدته وراحت قائلة بقسم : انني لن اخذ ابني من عند الربان الا بعدما يشفى من مرضه . ولما اطلعنا الربان على ذلك تقطب وجهه قليلا ، ثم رسمه بالماء المبارك وبصليبه . فزالت عنه الحمى . وقدمنا للولد شيئا من الفاكهة فاكل ، واخرجناه الى والدته معافى . فاخذته وحمدت الله وذهبت الى بيتها .

ان المسيح هو امس واليوم والى الابد بدون تغير ، لانه انظّم متحدا اتحادا كاملا وغير قابل الانفصال ابدا ، بالطبيعة الكائنة اطلاقا كما هي وسرمدا بما هي . لكنه في التدابير يظهر بعض التغيرات من اجل التدبير الشامل الذي وضع لخير الجميع . فعندما

---

١ -اعمال الرسل ٣ : ٢ - ٨ .

٢ -الرهزديون اكراد يسكنون في قرية آرز او ، هارز ، وهي / عرس / الحالية الواقعة في الجبل على بعد ساعتين تقريبا الى غربي بامرني ، على مضيق قرية دهي مباشرة .

يقتضي التدبير ، تظهر عجائب وآيات . وقد لاتظهر هذه بمقتضى التدبير عينه . فان القوة التي امرت زاجرة حمى حماة شمعون[1] فتركتها ، وطهرت الابرص بكلمة[2] ، واقامت المقعد بكلمة شمعون الصفا[3] ، هي فعلت الان بيد قيّمها هذا الحكيم ، فطهر الأبرص ، واقام المقعد ، وابرأ المريض بالحمى ، حسب مشيئة رحمتها . فلم تنقص قوة المسيح ولن تنقص مدى الدهر .

قصة الربان يعقوب الذي خالف امر القديس فمسه الشيطان ، وذهب الى الموصل .

كان في الدير اخ يدعى يعقوب ، وكان هماما وحريصا جدا على ممارساته الزهدية في الصومعة . وقضى زمانا طويلا في صمت الصومعة المضني . وقد داهمه صراع مرير بتخيلات شيطانية . فلما اطلع الربان على وضعه ، فرض عليه الربان قانونا يصلح له ، وأمره منبها محذرا لئلا يخالف كلامه . لكن الاخ اهمل ماامره الربان به وخالف وصيته . فجن عقله ومسّته الابالسة التي اغرّت به . فربط بسلسلة لفترة ما في بيت الشهداء . وفي يوم من الايام ، تملص من السلسلة ، وفر الى مدينة الموصل . وكان يتجول في ارجاء المدينة عرضة للهزء .

وقد دعتني حاجة الى المدينة ، فحكى لي عنه بعضهم . وبعد مشقة كبيرة جلبته معي الى الدير . ولما كلمت الربان بشأنه ، أمر بان يشتغل في الجمعية مع المبتدئين . وكان يشوش المبتدئين والرهبان ايضا . فاطلعت (الربان) على هذا ايضا ، فارسلني في طلبه ، واتيت به اليه ، فقال له الربان : يعقوب ، يكفيك ماحل بك! قم انطلق الى صومعتك ، واغلق بابك . ثم رسمه بالماء المبارك وبصليبه . وللحال تعقل وترصن وانتظم تصرفه . فقام وذهب الى صومعته . وامرني (الربان) ان اعتني به في كل مايحتاج اليه . فاوصد ذلك الاخ بابه ، ولم يكن يُرى خارج صومعته ، الا نادرا ، حين خروجه في بعض الايام لتناول الاسرار المقدسة ، او في مجيئه لزيارة الربان . وبعد كل ذلك السجس المذهل ، تحمل الحبس الشديد لمدة اربع سنوات بصلوات الربان .

اما انا فكانت الدهشة تأخذني من قوة الله الخفية في كلام القديس الذي كان يوجهه اليه ، كيف لا! وقد عقل تصرف رجل مختل وترصّن رجل ممسوس .

١-متى ٨ : ١٤ - ١٥ ؛ مرقس ١ : ٣٠ - ٣١ ؛ لوقا ٤ : ٣٨ - ٣٩ .
٢-متى ٨ : ١ - ٤ ؛ مرقس ١ : ٤٠ - ٤٢ ؛ لوقا ٥ : ١٢ -١٣ .
٣-اعمال الرسل ٣ : ٢ - ٨ .

وتذكرت ماجرى لذلك الرجل المجنون الممسوس[1] الساكن بين القبور ، كيف انه بكلمة ربنا التي وجهها اليه ترصن وجلس بتأدب عند قدميه . فحمدت الله الذي اهلّني لأرى بعيني عجائبه وقوة القديس .

قصة الربان داود الذي كانت النعمة تراوده فينتزعها الربان عنه

وهذا اخ آخر اسمه داود الموردناوي ، فاضل السيرة ، رزين ومنتظم في صومعته . وكان الربان يحبه كثيرا ويألفه ، لانه لم يكن يزيغ عن امره لايمنة ولايسرة ، ولا يعمل شيئا بدون مشورته . وكان بيني وبينه مودة وصداقة ، في وقت ماجرى له مايلي : كانت النعمة تراوده دائما في عزلته . فحالما يحس بالموهبة الالهية التي اعطيت له ، كان يسرع نحو الربان ويطلعه عليها ، فينتزعها منه الربان حالا ، لئلا يتسلط على الاخ روح التكبر ويتحكم فيه . وكان يتخذ هذا الاجراء بحق كل من يراجعه . لانه كان دقيق المعرفة ، وذا خبرة واسعة بجميع سبل هذه الطريق ، كما علمته ونورته النعمة مرشدته . فعندما كان يأتيه احد الاخوة ويحدثه عما جرى له من تفقد علوي ، كان ينتزعه منه في الحال ، لانه الزمان الاخير والمرء رغما عنه سريع الميلان نحو التكبر ، لأن هذا الزمان مقفر من الرجال المتمرسين والجديرين بمثل هذه التفقدات .

وعندما كان يأتيه اخ مثقل بسأم او بصراع ما ، كان يتحرر من معاناته حالما يكشف له امره . فيخرج من بابه فرحا مسرورا وقلبه عامر بالرجاء ؛ وفي الحالتين كان اجراؤه مفيدا : فلذاك لكي لايستكبر بل يتضع ، ولهذا لكي لاييأس بل يتقوى برجائه وثقته بالله .

وعلى هذا المنوال كان يدير الاخوة ويرشدهم وينظم حياتهم ويعلم كل واحد ان يسلك الطريق الوسط الخالي من العثرات .

فهذا الاخ الذي تحدثت عنه كما قلت ، كانت النعمة تراوده دائما نظرا لفضائله وسمو اخلاقه ، وحينما كان ياتي الى الربان ويحدثه عنها ، كان ينتزع الموهبة منه ، ويثقل عليه بالاعمال التي يمارسها .

١-لوقا ٨ : ٢٦ - ٣٥ .

وفي احدى السنين ، اثناء صوم الرب ، وكان هذا الاخ في عزلته ، حدث له تفقد الهي بنوع سني وعجيب ، وبدأ فيه بالحس الثاني[1] الذي لايقبل خليطا بسهولة ، فاستطابه جدا ، ولم يذهب الى الربان ليكشفه له خشية ان يحرمه عنه . وفكر بان يتنعم به قليلا وبعد ذلك يطلع الربان عليه . وبقي على هذه الحال لمدة اسبوع ، ولم يتناول طعاما البتة في تلك الايام . واضطرم بمحبة البشرية ، حتى انه قدم ذاته قربانا لله من اجل البشر جميعا ، ولم يكتف بهذا الحد فقط ، لكنه طلب من الله متضرعا ان يكون هو وحده قابل العذاب الآتي ، بدل الصنف الاخر من الناطقين ، ومن اجل الجميع .

اما الربان فقد علم به ورای فعله كله بعين فكره الشفافة ، فتغاضى عنه الى حين لكي يُجرَّب بوطأة الكبرياء . فشعر بالتخلي الالهي اصلاحا له ، وارتبك وضعه واضطرب عقله بمس الشياطين ، فاحس بنفسه وبما اصابه ، فاسرع ليلا الى الربان واطلعه على وضعه كله . فادخله الربان الى صومعته .

وفي تلك اللحظة حركني هاجس طارئ لاذهب الى الربان ، فاتيته وقرعت الباب ، ذاكرا له اسمي ، فقال لي الربان : ان المسيح يابني ارسلك الي هذه الساعة ! ثم ادخلني الى الصومعة ، فرأيت ذلك الاخ منطرحا على الارض ومضطربا جدا . واومأ الربان الي فحملناه الى صومعة اخيه . وقال لي الربان : هئ له طعاما ليأكل ، فقد مضى عليه اسبوع دون ان يتناول شيئا قط . فاعددت له زادا فأكل . وبعدما أكل فتقوى ، ازداد اضطرابه بحيث لم نتمكن من ضبطه الا بجهد جهيد .

اما اخوه فاراد ان يذهب به الى بيت الشهداء لكي يقيد بالسلسلة ، فمانعه الربان في هذا ، اذ لم يرد ان يذهب جهده كله هباء . وقال لي : قم بخدمته كما يلزم حتى نهار الاحد . اما ذلك الاخ فكان اضطرابه يزداد تفاقما . وفي نهار الاحد أمرني الربان بان اذهب به ليتناول الاسرار المحيية . وقال لي : بعدما يتناول ائتني به . فلما اتيته به عنوة ، اجلسه على الباب وهو بتلك الحال من الاضطراب الشديد . وقال لي الربان : ابتعد قليلا . فكلمه بامور كثيرة لم اسمعها . وفي سياق كلامه معه ، زال اضطرابه كله واستعاد وعيه وانتظمت هيئته . فامره الربان بان يذهب الى صومعته ويوصد الباب كعادته . فالتف بعباءته التي كانت ملقاة عنه ، وذهب الى صومعته واغلق بابه . فتعجبت ايما تعجب من القوة الالهية المرافقة لكلمة القديس ، كيف انه على كلمته يتم مايريده .

١ـ الحس الثاني ، يراد به حسب تحليل المؤلف . نشاط الانسان الذي يمارس بقوة النفس ، وهو المرتبة الثانية من مراتب الكمال الثلاث .

وطلبت من الربان بملتمس الدالّة ان يطلعني على قضية هذا الاخ ، ألعل خليطا يساريا حدث في الموهبة التي منحت له؟ فاطلعني الربان على قضيته بالتفصيل ، وعلى انه لم يحدث اي خليط في التفقد الذي جرى له ، وان ما حل به كان بتخل الهي لكي لايستكبر بكثرة المواهب الممنوحة له . فاذا كان الطوباوي بولس قد أعطي شوكة لئلا يستكبر بكثرة الايحاآت[1] ، فكم بالاحرى نحن الاشقياء ، نحتاج الى الشوكات لكي تلطمنا دائما لئلا نستكبر! واذا كانت النعمة حريصة بهذا المقدار على من هم خاصة عظمتها لئلا يستكبروا ، في ذلك الزمان الذي كانت تظهر فيه الايحاآت ، فكم بالاحرى والأولى ، يقتضي ان تحرص على ابنائها الاطفال ، في هذا الزمان الذي خلا من كل صلاح! .

مثل هذه العجائب كان المسيح يجري على يد هذا المرشد والدليل الخبير ، لخير الاخوة الذين كانوا يسلمون بيده سفن انفسهم ليقودها في البحر الهائج المليئ بالامواج المتلاطمة .

قصة ابن ايليا

لما كنت مقيما في الجمعية مع المبتدئين ، وأودي خدمة الوافه في الهيكل . أتانا بعضهم بمجنون من الموصل يدعى عيسى ، كان في السابق خادما للمؤمنين بني ايليا . وكانت حالته سيئة جدا ، بحيث ان الشيطان الساكن فيه كان اخبث من جوقة الشياطين التي دخلت في ذلك الرجل الذي كان بين القبور[2] . فربطناه بسلسلة في بيت الشهداء . ان قصة هذا الرجل لعجيبة وغريبة ، ولا مثيل لها لا في الكتب ولا في الحكايات . فان الشيطان لم يكن يفارقه . وفي كل حين كان يضرب يده اليمنى على الجدار وعلى الارض . وكان الرجل سليم الوعي والمعرفة بكل شيئ . وكان يخاطبني بكلمات متنوعة ، ويستدرك كلامه بقوله : ان هذه الكلمات هو تلفظ بها ، وهذه الاخرى لم يتلفظ هو بها ، لكن الشيطان الساكن فيه هو قالها بفمه . وحينما كنت اباركه بذخيرة القديسين والماء المبارك حسب العادة الجارية ، كان بصعوبة بالغة يدع الذخيرة تلامس جسمه .

بعد ثلاثة ايام اخذت المريض الى الربان . وكانت تقضي الخطة المتبعة ان يبقى المريض ثلاثة ايام مربوطا بالسلسلة وبعد ذلك يؤخذ الى الربان . فلما اخذته ، أدنيته

١-الثانية قورنثية ١٢ : ٧ .

٢-لوقا ٨ : ٢٦ -٣٥ .

بصعوبة بالغة من باب صومعة الربان . فخرج الربان وتفرس فيه ، وللحال صرخ الشيطان بصوت عال قائلا : آه منك ايها الربان ، اني لااطيق الوقوف امام حضرتك! فانتهره الربان ليصمت وقال : ايها اللعين ، انني رجل خاطئ! . فاردف الشيطان : كلا ايها الربان ، انك لست الا قديسا ، ان كنت انت خاطئا ، فمن هو الصدّيق!؟ . اما الربان فتركنا خارج الباب واوصده وولج الى داخل ، لرؤيته ان ذلك الشيطان لعين وخبيث جدا ، بحيث حاول ايقاعه هو الاخر . وبعدما صلى طلع الينا وقال لي : ادنه مني الى ههنا! . وحالما بسط الربان يده ليضعها على رأسه ، صرخ الشيطان ثانية وقال : آه منك ايها الشيخ ، لاتهلكني : لاتدن يدك مني ، وانا اخرج من هذا الرجل ، ان الله هو الذي سلطني عليه ، لانه اكل اللحم في الصوم ، وسلطني خاصة على يده اليمنى ، ولم يولني السلطان على عقله ، اذ لو انه اولاني هذا السلطان ، لأبادني في الحال! . وكان الشيطان اللعين يتلفظ بهذه الاقوال بفم ذلك الرجل ، باللغة العربية . فسألت الرجل حالا عما قاله الشيطان بفمه فقال لي : والحق انه اكل اللحم في الصوم ، ومنذ ذلك اليوم استحوذ عليه الشيطان .

ولما رسمه الربان بالماء المبارك وبصليبه ، ولول قليلا ثم سكت . وأشار علي الربان لاذهب به الى بيت الشهداء ، وان لااعيده اليه ثانية . وخلال ثلاثة ايام ، تم شفاء ذلك المجنون ، وتحرر تماما من سطوة ذلك الشيطان اللعين . وأمر الربان بان يشتغل اياما يسيرة في الجمعية . فاشتغل قرابة اسبوعين . ثم ذهب الى بيته حامدا الله وشاكرا على ماصنعه الرب له على يد الربان .

كاتب القصة يروي انه يوحنا كلدون ،

حفظنا (الله) بصلواته امين

اما انا البائس ، فقبل ان اترك العالم ، وكنت افكر بارتداء هذا الثوب المقدس ، سمعت عن الربان ، وكنت اضطرم شوقا لرؤيته ، وقد رأيته في الحلم مرتين . ولما ذهبت الى الدير شاهدته بتلك الصورة كما رأيته في الحلم ، دون ادنى فارق ، فتعجبت بهذا جدا .

ولما اطلعت الربان على انني ارغب في اقتبال ثوب الرهبنة ، سُر بي كثيرا وقال لي : عليك يابني ان تمارس الابتداء الى أن يأمر الله لك بالراحة في صومعتك .

وكنت هزيل البنية ، ولم اكن متعودا السير على القدمين ، بل على مطية . وكنت مصابا بمرض الكبد منذ ست سنوات تقريبا . ولم اكن قادرا على تحريك يدي اليمنى

لفترة طويلة في الكتابة او في العد . وقد ذكرت للربان هذه كلها ، وانني لاانفع لشيءٍ ما . فقال لي : يابني هَيّئ نفسك للعمل ، والرب يقويك ويساعدك لتكمل مدة الابتداء . فوثقت من كلامه ودخلت بأمره الى الجمعية كمبتدئ .

وفي اليوم الاول ، دخلت الى المطبخ ، فرأيت مبتدئا يطحن ملحا بالجاروشة للمبتدئين ، فشرعت بتدوير الجاروشة معه . وما ان اكملت دورين ، حتى ثار علي ألم كبدي واشتد جدا . فاتيت الى الربان واطلعته على حالتي ، فقدم لي كأسا مليئة بخمر خالصة وقال لي : اشرب هذه الكأس وهي تشفيك من مرضك هذا . فقلت له : انني منذ ست سنوات لم اتعاط شيئا حادا ، لا من الخمر ولا مما يشبهها ، فكيف اشرب الان خمرا خالصة؟ اما هو فقال لي مبتسما : كلا يابني ، اشرب هذه الكأس ولا ترتبْ ، لانها مفيدة جدا لهذا المرض . فجزمت على نفسي قائلا : خير لي ان اموت بأمر القديس ، من ان احيا بمخالفة ارادته! فتناولت الكأس من يده ، ورسم عليها الصليب فشربتها ، ظانا ان كبدي تتقطع وتقع حال وصول الخمر الى معدتي! وبعد مرور ساعة واحدة لاحظت وشعرت بأن كبدي خمدت حرارتها وخف ألمها ، وحظيت نفسي بالفرج عن وجعها .

وعقب كأس الخمر تلك اشتغلت ثلاث سنوات في المطبخ . وكنت انزل الى التنور رغم كبدي ، واتحمل حرارته اثناء الصيف الشديد وفي عز حره اللاهب . فتقوى ضعفي بصلوات (الربان) وصرت انسانا اخر ، حتى انني كنت اعجن عشرة اكيال من الدقيق عجنة واحدة . ومارست الابتداء حسب امره . وبصلواته اذهلت الكثيرين . والذين كانوا يعرفونني من قبل ويرونني آنذاك ويسمعون عني ، كانوا يتعجبون ويمجدون الله على القوة المرافقة لأمر القديسين ، وقدرة صلواتهم على عمل مايريدون ، كيف انها تجعل الضعفاء اقوياء والمرضى اصحاء بل والموتى احياء .

ان الربان وضع لي قوانين وتوجيهات عديدة . وكان يحذرني خاصة ان لااخفي عنه فكري وان كان هاجسا بسيطا او اختلاجا .

ففي يوم من الايام خطر لي فكر اسرع من البرق ، وافتكرت ان لاحاجة ولاضرورة لأكاشف الربان به ، لانه لم يبق في عقلي ، ولم يطرأ علي اي تغير على اثره . ولما ذهبت عند الربان ، لم اكشف له شيئا . حينئذ بدأ الربان يقول لي : انظر يابني ، لاتخفِ في باطنك فكرا مهما كان صغيرا ، ومهما بدا لك غير مُضر ، لان العقل يشبه ساقية الماء ، والفكر الصغير والبسيط الذي يخطر ، يشبه القذى الصغير الذي يأتي في ماء الساقية ، فاذا استهان به المرء ولم يرفعه ، يأتي قذى اخر اكبر منه ويتماسك معه ، ثم

اخر فآخر الى ان ينسد مجرى المياه . والمياه تفتح لها طريقا اخر ، مما يسبب خسارة كبيرة . لذا ينبغي للمرء ان لايستهين بفكر صغير يخطر له ، ظانا ان كشفه غير ضروري . بل عليه ان يكنس ويلقيه ويكشفه لئلا يقوى عليه ، فيمنى بخسارة جسيمة . أما انا فلم اطلعه على شيئ ، لان الشيطان قسى قلبي ، واكتفيت بقولي له : ينبغي للمرء ان يفعل ذلك . فلما رأى انني مستعد لكتم سري ، أتاني بمثل اخر قائلا : لعلمك يابني ، عندما يقترب المبتدئ من الراهب بنية سليمة ، فأن المسيح يكشف له افكار ذاك الذي يتقدم منه . ولكن اذا لايعترف المبتدئ ويكشف افكاره ، فلاينال منه الشفاء والنجاة . وعلى سبيل المثال ، كما ان الطبيب الذي يدخل الى المريض ، لايصف له الدواء الشافي قبل ان يطلعه المريض ويبين له ضيقه ، حتى وان كان الطبيب عارفا بضيقه ، كذلك ايضا ينبغي للمبتدئ ان يبادر هو الاول الى كشف افكاره قدام ذاك الذي يراجعه لكي يشفى ألمه ويزول عنه صراع الشيطان .

اما انا ورغم هذا كله ، فلم اكشف الفكر الدفين فيّ . فتعجب الربان من ان الشيطان قسّى قلبي لئلا افهم مايقوله لي . فشرع حينذاك يسرد قصصا اخرى حتى وصل بحديثه الى قصة تشبه بشكلها الفكر الذي خطر لي . وعندها استيقظت كما من نوم وادركت فحوى كلماته ، وعلمت ان الربان قد عرف الفكر الذي عنّ لي . فاطرقت بوجهي الى اسفل . وكشفت له ماجرى لي . فنخس بيده على قلبي قائلا : انك جلمود وقلبك من صوان! كيف لم تهتز ولم تستفق لكل ماحدثتك به! فقلت له مرتجفا : ماظننت ان في ذلك خسارة لي . فقال : كيف لم تقتنع بالمثل الذي اوردته لك بمياه الساقية والقذى الصغير؟ او كيف لم تفهم من مثل المريض والطبيب أن فكرك لايخفى عني؟ انما اردت ان تكشفه انت لكي تنجو منه! . فوقعت قدامه طالبا المغفرة لأني اذنبت . ومنذ ذلك اليوم كنت منتبها على نفسي معه ، لأنه ثبت لدي أن الافكار التي تخطر للمرء لاتخفى عن بصيرته . وهذا ماسمعته منه بعد زمان كما يلي :

في يوم من الايام دخل اليه احد الاخوة . وبعدما خرج الاخ دخلت انا ، ونظرت الى وجهه فاذا به كلهيب نار ، وهو يتقد غيرة عارمة . فقال لي : يابني ، حي هو المسيح ، والثالوث المجيد ، حالما يدخل الي احد ، ارى افكاره ، وكيف هو وماهو ، وارى على سبيل الكلام حتى المخ الذي في عظامه ! ولأني متضع قدام الناس ، يظنون اني لااعرف شيئا ، فيأتون ليختبروني ويكذبوا علي . اخذني الارتعاش ازاء غيرته ، وعلمت ان ذلك الاخ قد تجاسر عليه بالكلام . فوقعت على قدميه ملتمسا متضرعا ان لايغضب علينا بسبب زلاتنا .

وعقب ساعة بعدما هدأت سورة غضبه دعاني ونبهني كثيرا لكي لااطلع بشرا على الكلام الذي تلفظ به . وقال لي بتواضعه المذهل : أرايت يابني كيف تلفظت بذلك الكلام التافه عن غيرة غير لائقة ! . وانا كتمت هذا القول حتى وفاته .

يوحنا يواصل قصته ايضا

في يوم من الايام بينما كنت في مطبخ الجمعية منشغلا بعمل ما ، لسعتني عقرب في يدي اليمنى ، فأوجعتني واشتد علي ألم اللسعة . فاسرعت نحو الربان واخبرته بما اصابني من لسعة العقرب . فرسم الربان يدي اليمنى بالماء المبارك وبصليبه . وللحال زال عني الم وخزة العقرب . وقال لي مبتسما : يابني اذهب مسرعا الى شغلك ، لئلا يقول الوثنيون : «اين آلههم»[1] وانما قال هذا بسبب بعض الحساد الذين كانوا يحسدونني ظلما . مع أنه لم يكن لهم علي أي مأخذ . فاسرعت الى المطبخ واكملت عملي .

ان هذا الخبر المزمع ان اذكره الان ، عجيب جدا ومذهل للغاية . واريد ان اسرده كما جرى ، وان كنت ازعج القارئ باطالة الكلام .

ان الربان قربني اليه وآنسني معه . وكان يحبني محبة كبيرة ويلاطفني . وكلما سلمت عليه كان يربت على ظهري ويعانقني قائلا : ها ان المسيح قد رزقني بابن في شيخوختي . هذا لالكوني استحقه ، انما هو بحبه الخالص جعلني اهلا لذلك . اراد احد الاخوة ان يبيع صومعته ، وكانت تصلح لي جدا ، وكنت اتمنى كثيرا ان تكون لي . فذهبت الى الربان ، وفاتحته بشأنها . وطلبت منه ان يسمح لي بشرائها . لكنه منعني . وحين خرجت من عنده دمعت عيناه وقال : سبحان الله الذي أتاني بهذا الشاب ليسقيني بسببه كأسا مريرة وعسيرة! . وعدت اليه ثانية اطلب منه بشأن الصومعة . فمنعني عن رغبتي . ولما خرجت من عنده كرر عين الكلام الذي قاله لي ، بأنه ، مزمع ان يشرب كأسا مرة بسببي . والذين سمعوا هذا الكلام منه لم يفهموا فحواه ، لانه كان يقوله بالرمز . اما انا فأطعت امره .

وكان لي رغبة شديدة للقيام بخدمة الوافه في الهيكل ، ولم اكن شماسا بعد . والربان نفسه لم يكن راضيا عن ذلك . وفي تلك الايام قدم اسقف الى الدير . فقال لي الربان : اذهب يابني واقتبل الرسامة الشماسية . فقلت له : لااريدها ياربان ، لانني راغب في خدمة الوافه التي لست انت راضيا عنها ، واخشى ان اخالف امرك برغبتي

١-مزمور ٧٨ : ١٠ .

تلك بعدما ارتسم شماسا ، هذا ما يصعب علي جدا فعله . فقال لي وعلامات الحزن والضيق بادية عليه : امضي يابني واعمل حسبما اقوله لك ، لاننا لانعلم ماذا سيحدث لنا ، فنصبح اعتياديين كما كنا ! .

عملت كما امرني ، ولكنني لم افهم معنى كلامه . وبعد ثمانية ايام ، اصبت بمرض عضال ، فاخذوني من الجمعية الى صومعة اشعيا تلميذ الربان . وتفاقم علي المرض بحيث دنت ساعة الموت . وبقيت سبعة ايام لاعي شيئا مما حولي . وفي اليوم السابع وكان سبتا ، وعند الساعة التاسعة ، فتحت عينّي قليلا وطلبت ان يأتيني الربان . ولما دنا الربان مني ورايته قلت له : هل تتركني ياربان؟ . سكت برهة ثم قال لي : كلا ، كلا يابني ، لااتركك! . ثم عاد الى صومعته . ساءت حالتي جدا واقترب الاجل . وكما حكى لي من كان بقربي ، جحظت احدى عينيّ ولم ترفّ ، واطبقت الاخرى ولم تنفتح ، واقامت نفسي في قلبي ، وجسمي جامد لاحراك فيه . فالتم حولي ذلك الجمع المبارك ، ويئسوا جميعا من حالتي . ومكثت على هذه الحال الى ان قرع ناقوس صلاة الليل ليوم الاحد . وحينذاك تحركت فيّ الحياة فجأة ، وانفتحت عيني تلك التي اغمضنها الموت ، وانطبقت الاخرى الجاحظة دون رفيف ، وسرت الحرارة في جسمي الذي كان باردا قبل قليل . فتعجب جميع الحاضرين ومجدوا الله لأنه اعاد النفس الى الجسم الذي كان مائتا قبل حين . ولم اشعر بشيء مماجرى حتى يوم الثلاثاء . ولما سمع اخي بمرضي ، اراح الله نفسه ، قدم الى الدير ، وعندما دخل ورآني على تلك الحال بكى بعويل ، وعلى اثره استعدت وعيي قليلا وشعرت بمجيئ اخي .

اما الربان فلم تصبر محبته على ان يترك اخي في تلك الكآبة ، فامسك بيده وجازا الى صدر الصومعة وقال له بالسر : هاأنذا يابني اكشف لك سرا لتطمئن بالا ويزول قلقك وتطيب نفسا بشأن اخيك ، ولكن احفظ (السر) ولا تبح به لاحد : لعلمك يابني ان اخاك اعاده الله من القبر ، لاني رأيت موته قبل عدة ايام . وفي ليلة الاحد دنا اجله ليسلّم الروح ، فطلبت راجيا من المسيح لاجله فحفظه لشيخوختي ، فاستطب نفسا ولاتقلق على اخيك ، انه لن يموت بهذا المرض . وبعد يومين شفيت تماما ونهضت من السرير الذي كنت منطرحا عليه . وعاد اخي الى المدينة ، وهو متعجب ويحمد الله . وعندما كنت اجتمع به ، كان يسألني دائما قائلا لي : هل اطلعك الربان على شيئ بخصوص المرض الذي اصابك؟ . ولم اكن افهم لماذا يسألني . وكان يخشى ان يقول لي شيئا ، عملا بوصية الربان .

قضية كانت ليوحنا ولم يشك بالربان

بعد خروجي من الابتداء بمدة مهما كانت ، حدثت لي قضية ما وكانت تزعجني جدا ، فحدثت الربان بشأنها ، لكنه لم يوافقني في الرأي عنها . واذ كررت القول عليه عدة مرات ولم يصدقني ، صبرت على الضيق ولم اشك بالقديس ، ولازمت الصمت دون ان اقول للربان شيئا . وفي يوم من الايام ، بعد مرور سنتين ، دعاني الربان فجأة واجلسني قدامه ، ومد يمينه ووضعها على رأسي وباركني قائلا : مبارك انت للرب الاله ، ومباركا تكون . لعلمك يابني ، ان القضية التي حدثتني عنها مرارا عديدة ، قد اخفى المسيح حقيقتها عني ، ولم يكشفها لي الا في هذه الساعة : بارك الله فيك لانك تحملت غمها ، ولم تشك قط في قولي . لذلك اكشف لك سرا لكي تثبت في ايمانك : اعلم يابني انه قبل مرضك بيوم واحد ، أراني المسيح موتك ، وانك مائت بذلك المرض . لهذا السبب لم إسمح لك بشراء الصومعة ، ولأني رايت موتك اجبرتك أن ترتسم شماسا ، حين قلت لك : لانعلم ماذا سيحدث فنصبح اعتياديين! ولما مرضت يئست منك ، وحينما ساءت حالتك وحانت الساعة فقلت لي آنذاك : ياربان أتتركني؟ . فأجبتك : كلا ، لااتركك ؛ في تلك الليلة كان الملاك مأمورا أن يأخذ نفسك . وظهرت عليك جميع علامات الموت ، فوقفت قدام الله ، وذريت الرماد على رأسي وتحت رجليّ ، وطلبت منه ان يمنع الملاك عن اخذ نفسك ، فوقف الملاك ، وقد خرجت نفسك من جسمك كله واستقرت في قلبك لاغير . حينئذ تضرعت الى المسيح ربنا ان يهبك لشيخوختي لكي لاتدخل تعيسة الى الجحيم ، حزنا عليك . فترأف الرب بشيخوختي وسمع تضرعي ، فاخذني ملاك العناية بالجسد والروح واقامني فوقك ، ولم يرني احد من جميع الحاضرين هناك ، مع اني بالجسد وقفت فوقك ، لان الملاك حجبني عن نظرهم ، فوضعت رجلي على جنبك والاخرى على الجنب الاخر ، ورسمت الصليب عليك ، فعادت نفسك الى جسدك الذي كانت قد فارقته . فوهبك المسيح لشيخوختي ، وانهضك من سرير مرضك ، بعدما انقذك من يد المنون واصعدك من الجحيم التي ابتلعتك . يابني ها انني قد كشفت لك هذا السر الذي لم اطلعك عليه سابقا ، لكي تثبت في الايمان ولاتشك فتهلك . فانظر يابني كيف تسلك معي في مخافة الله . يابني انك تعلم محبتي لجميع الناس ، بحيث ، والمسيح الحي ، لو كان بالامكان وكنت قادرا ، لأتيت بجميع الهكاريين القتلة الى حضن المسيح بابعادي انا عنه ، ولو كان بالامكان ان يتم لي ذلك لقبلته بكل سرور . واذا كان الامر هكذا مع من هم خارج (الايمان) فكم بالاحرى مع اهل البيت ، وخاصة مع من هو قريب مني

ويستشيرني . فمن يطيعني يفرح شخصيا ، وانا ايضا افرح به ، ومن لايطيعني ، فلا يؤاخذني الله بما يصيبه .

اما انت يابني فليس شأنك معي هكذا ، كلا ، ولكن اذا كنت لاتطيعني فالمسيح يدينني بسببك ، لأنني طلبتك منه بالصلاة فمنحك لي ، فانتبه يابني وكن يقظا على نفسك لئلا يكون خطأُك مضاعفا . فاحرص على ان افرح بك ولا اخجل قدام المسيح .

فوقعت على قدميه طالبا منه ان يصلي علي لكي لايخجل بي ، بل لأسلك قدامه حسب مشيئة الله حتى النفس الاخير امين .

اندهشت ومجدت الله . وبعد وفاته كشفت هذه الامور لاخي ، واخي ايضا باح بما قاله الربان له .

في مرض الربان يوسف،اعانتنا صلواته امين

قبل ان انوي الخروج من الابتداء بعشرين يوما تقريبا ، امرني الربان ان امضي بسلام . فطلبت منه ان يمهلني ريثما اكمل الايام المتبقية لي . فقال لي : ان هناك حاجة تدعوك الى الخروج من الحياة الجماعية . فخضعت لامره ومضيت بسلام . ولما أتيته ، رايته مصابا بمرض مفاجئ . فقال لي : لهذا اخرجتك من الجمعية لكي تخدمني في هذا المرض . واشتد عليه المرض جدا ، وظل اثني عشر يوما ملقى على الارض ، ولم يذق خلالها شيئا حتى ولاماء . فاجتمع الرهبان في اليوم الاخير وهم يبكون وينوحون على فراقهم إياه ، لان داءه تفاقم ويئسنا منه . ثم فتح عينيه ورأى بكاء وحزن الاخوة الملتفين حوله ، فقال لهم : اخوتي لاتبكوا ، فاني لااموت بهذا المرض ، لان الله سمع صوت تضرعكم . حينئذ فرح الاخوة وتعزوا ، وانصرفوا الى صوامعهم .

اما انا المكتئب فقلت له : أرحني ياربان واشرب شيئا ما ، ولو قليلا من الماء! فقال لي : هل تريد ان تسقيني دواءً؟ انا لااتعاطى مثل هذه الاشياء ، ولكن ارضاء لخاطرك ، ائتني بكسرة خبز مع كامخ[1] وقليل من ورق الفجل لآكل . فأتيته بها فأكل . فتعجبت كيف ان الخبز اليابس يدخل في بلعوم لم يدخله شيءٌ مدة ايام .

وشفي من هذا المرض ليبقى عونا لنا . وعاش ست سنوات اخرى . كنت ازوره دائما فأجده نائما ، وقد انتقل بفكره من هذا العالم ، ووجهه مشرق كمصباح النور ، ولاحس له بشيءٍ ، فأمسك بيده اليمنى واقبلّها ، فتبقى فترة بين يديّ ، وهو لايحس

١- **كامخ هو كل مايكبس بالحوامض .**

بها ، فاعيدها ثانية الى صدره . وبعدما يسترجع وعيه ، كنت احكي له ماعملت ، فكان يحذرني لئلا يعلم احد بما يجري .

(حادث المبتدئ عبدا)

اتى احد المبتدئين اسمه عبدا الى الربان ليلا . وكان اشعيا يرقد في مدخل الصومعة لاستقبال الاخوة الذين كانوا يعودون الربان . وكان الربان ينبهه كثيرا لئلا يدع احدا يدخل اليه قبل ان يخبره به ؛ اما اشعيا فانه فتح الباب للمبتدئ وادخله ، ونسي ان يطلع الربان . فلما دخل المبتدئ ورفع الستار المعلق على باب الدهليز الذي كان (الربان) ينام فيه ، راى الدهليز كله مشعا بنور سني ، ووجه الربان مشرقا كالشمس ، ومن ضيائه امتلأ الدهليز كله . ولما دنا المبتدئ من الربان ، غاب ذلك النور عن عينيه ، فاخذ يجس في الظلام وايقظ الربان ، وحكى له عن حاجته ثم مضى . وبعد خروج المبتدئ شعر الربان بما جرى ، فارسل اشعيا في طلب المبتدئ محذرا لئلا يقول لاحد مارأى ، واذا ماكشف السر فانه يتحمل تبعته . فراح الاخ ونبه المبتدئ . اما المبتدئ فقد كشف السر ولم يحفظه . وبعد زمان جرى له حادث مؤسف .

(خبر الاخ بطرس) .

حكى لي اخ فاضل يستحق الثقة اسمه بطرس قائلا :
في السنة الاولى لخروجه من الجمعية واقامته في الصومعة ، كان في عوز شديد نظرا لتجرده وفقره . ولم يكن لديه شيئ في صومعته . ولم يكن يكفيه الخبز الذي يصيبه من الجمعية ، لأنه كان يطعم منه الفقراء . ولما اشتدت عليه الفاقة ، اتى الى الربان ليلا ، وشرح له وضعه . فأعطاه الربان ثلاثة ارغفة من الخبز كان قد وضعها عصرا حيث كان يرقد ، اذ لم يكن متعودا على الاحتفاظ بالخبز في صومعته . وقال للاخ : خذ هذا الخبز ليسد حاجتك ! . فاغتم الاخ جدا بهذا (القليل) ، لظنه انه سيعطيه حنطة كثيرة تكفيه حاجته . فاخذ ذلك الخبز وعاد الى صومعته . ووضعه في إناء كان يستخدمه لحفظ خبزه . وكان يضع الخبز الذي يصيبه من الجمعية فوق ذلك الخبز .

وقد أكد هذا الاخ بقسم ، ان الخبز ازداد في الأناء ، بحيث كان يفضل عنه ، ويوزع منه على الفقراء بكثيرة ، ويطعم كل من كان يقصده ، ويوفر الحنطة ايضا من

حصصه .[1] وقد حلت البركة في ذلك الخبز حتى موسم المغلة الجديدة . وبعد مرور هذه المدة كلها ، سأل الربان هذا الاخ في احدى الليالي قائلا :

هل انت بحاجة الى الخبز يابني؟ . فاجابه : بصلواتك لااحتاج الى شيء! منذ تلك الليلة حلت بركة كبيرة في الخبز الذي اعطيتني والذي آخذه من الجمعية . فانني آكل واطعم الفقراء بكثرة . فقال له الربان : اذن كفاك الى هذا اليوم! وكان هذا الاخ يقول : من ذلك اليوم لم يزدد لديه الخبز . وبعد ايام امر الربان ان يبعث بطلب الحنطة ليصنع منها خبزه .

خبر كوما وشرب الخمر .

كان في الدير شيخ اسمه كوما . يعمل في ارحاء الجمعية . وكان هذا الشيخ يحب شرب الخمر كثيرا . واثناء صوم الرب منعه الربان موسى قسرا عن شرب الخمر . وفي ليلة الفصح طلب من الربان موسى ان يسمح له بشرب الخمر . فادخله الربان موسى عنده ليسقيه الخمر بيده ، لئلا يفرط كوما في احتساء الخمر في غرفته ليلة الآلام المجيدة . فوضع قدامه سلة الخبز وكأسا كبيرة مليئة بالخمر . فلم يصبر كوما وينتظر ريثما يجلس القديس ، لكنه تناول الكأس بسرعة وجرع الخمر التي فيها . فلما رأى موسى مافعل كوما ، تعجب من شدة الشراهة التي يعانيها . فاخرج صليبه ووضعه في فمه وقال : باسم الاب والابن والروح القدس ، لن تشرب الخمر بعد يا كوما . ومنذ ذلك اليوم لم يتمكن كوما من شرب الخمر بتاتا .

وبعد وفاة الربان موسى بزمان طويل ، اصيب كوما بهزال عام . وفي يوم ما ، امسك بكأس من الخمر وحاول تذوقها ، فتقيأها للحال وآلمته جدا . فأتى الى الربان (يوسف) واخذ يتشكى من شدة الهزال الذي اصيب به ، والذي اقعده عن العمل في ارحاء الجمعية . وحكى له كيف انه حاول شرب قليل من الخمر ليتقوى بها ولم يقدر . وتوسل الى الربان ليطلب من المسيح كي يجيز له بشرب شيء من الخمر يتقوى بها لخدمة الجمعية . فصلى الربان من اجله ، وقدم له الخمر وسقاه ثلاث كؤوس ، وسمح له ليشرب منها قليلا ، ولايشرب بشراهة كالسابق .

١ـفيما يخص هذه الحصص . نقرأ التعليق التالي على هامش المخطوط حيث يقول : «ها اننا نجد الحصص في الأديرة منذ أيام القديس الربان موسى . فماذا نجيب اولئك الذين يقولون : لايجوز ان تجري المقاسمة في الدير! ألعلنا افضل من هذا القديس وقيمّ المسيح؟» . وفي نهاية الكتاب يرد الكلام عن الحصص ايضا .

ومنذ ذلك اليوم تمكن كوما من شرب الخمر على قدر حاجته . وهكذا منح المسيح ربنا الثقة لصلاة الربان لتحل القوانين التي فرضها آخرون قبله . فالربان موسى ربط باسم المسيح ، والربان يوسف حل باسم المسيح نفسه .

المبتدئ الذي كان يتعلم التراتيل .

كان معنا في الابتداء مبتدئ يدعى شليمون ، طلب من الربان السماح له بحفظ بعض التراتيل من صلوات الجمعية والايام الاعتيادية . فسمح له الربان بحفظ ثلاثة الحان فقط . اما المبتدئ فلم يقف عند هذا الحد ، لكنه رغب في حفظ تراتيل عديدة ، لانه كان ذكيا وقوي الذاكرة . فلما علم الربان برغبته ، جمّد عقله بقوة صلواته ، حتى انه نسي التراتيل التي كان قد حفظها ، ولم يبق قادرا على انشاد ترتيلة واحدة . فالتمس من الربان ان يعيد الى (ذاكرته) التراتيل التي كان ينشدها سابقا . فصلى عليه الربان ، فاستعادتها ذاكرته ، بعدما كنت الاحظه احيانا كثيرة ينشد ترتيلة من اللحن الذي بدايته : «تطوّبها»[1] فلا يطيق ان يكملها .

فان الربان كثيرا ماكان ينبه الاخوة الراغبين في حياة العزلة ان لايتعلموا . وكان يقول لهم : ان حياة العزلة ياابنائي لاتقبل الخليط ! كما لايجوز ان يزرع المرء ارضه خليطا من الحنطة والشعير! . واذاما اعترض عليه احدهم قائلا : فكيف اذن عملت انت في كلا الصعيدين؟ . كان يجيبه : ليس كل واحد قادرا على ذلك .

(يوحنا يريد ان يتعلم)

في يوم من الايام ، دنوت منه انا الشقي الأُميّ اكثر الكل من قبل وحتى الآن ، والفارغ من كل علم ومعرفة ، وطلبت سماحه لأقرأ واحفظ شيئا ما . فلم يسمح لي . فالتمست اليه بلجاجة . اما هو فاذ اراد ان اعرف الشيء اللازم عن اختبار ، وان امتنع عن الالحاح عليه ، دعاني في يوم مادون طلب مني وقال لي : اذهب يابني اقرأ واحفظ ماطاب لك . سررت بهذا ، ورحت في اليوم الاول الى (الأخ) الذي كان يعلم . وفي اليوم التالي وجدتني مربوطا في صومعتي ، ولم اقدر على الخروج منها . وبذلت كل جهدي فلم اتمكن من الذهاب عند المعلم . اندهشت من هذا ايما اندهاش ، وفهمت الحالة بوضوح ، وعلمت ان صلاة الربان ربطتني كي لاانخطى الى مالايرضى هو به .

١-من صلوات كنيسة المشرق . (طبعة بيجان . ص٣٩٨) .

فوجهت فكري نحو الربان ، وللحال انحلت قيودي ، فقمت مسرعا واتيته واطلعته على ماجرى لي ، وكيف انني لم اقدر على الخروج من صومعتي الى ان صوّبت فكري نحوه . فبش لي قائلا : اذن دع العلم لمن يصلح له العلم ، اما انت فاذهب واقعد في صومعتك واسكت . ماهو احب اليك وماذا تريد : هل ان يكون المسيح معلمك بما هو خير لك ، ام الانسان؟ . كلا يابني ، اجلس في صومعتك ليعلّمك المسيح .

قبلت كلامه ولم احد عن امره ، مؤمنا مصدقا ان يتم ماقال ، وهو ان المسيح يعلّم اولئك الذين يرضى بهم حسب مشيئته هو . هكذا كانت صلاة الربان قادرة على عمل مايريده ، بالخفية اوبالظاهر على السواء .

رسائل ترد الى الربان ويوحنا يجيب عنها

عندما كانت ترد الى الربان رسائل من رجال كنسيين وعلمانيين ايضا ، حول قضايا مختلفة يعرضونها عليه ، كنت اجيب عنها باللغة العربية . لأن الربان كفّ عن كتابة الرسائل وعن كل شيئ اخر . فلما كان يكتب شخص سائلا عن امر ما ، هل يعمل الشيئ الفلاني او لايعمله ، اوهل يتم اولا يتم ، كما اعتاد المؤمنون على طرح مثل هذه الاسئلة ، كنت اقول له انا الشقي : بماذا اجيب ياربان عن هذا؟ وبماذا اشير على ماسئل؟ . اما هو فلتواضعه المذهل ، لم يكن يفصح القول عن اي امر مهما كان . بل كان يرسم بصليبه على قلبي وفمي ويميني قائلا لي : دونك يابني ، اكتب ماتوحيه النعمة لفكرك وتحرك به يمينك ، جوابا عما سألوك ، شبه اقوال نبويّة! .

ولأن خبرتي معه كانت ، ان ماهو في فكره يتبادر بصلواته الى ذهني ، لم اشك قط بما كان يقول . بل كنت اكتب بكل بساطة لاي كان ، مختصرا الجواب بوضوح : اعمل كذا ولاتعمل كذا ؛ هذا يتم وهذا لا. ولما كنت اقرأ عليه ماكتبته ، كان يستحسنه ولايغير فيه شيئا . وكان السائلون يلقون خيرا وتصلح امورهم عما كانوا يسألون ويستفسرون . وكنت اتعجب بتواضعه الذي لم يكن يدعه يأمر ويقول ماكان يرتاح هو اليه . وكنت اندهش اكثر من القوة الخفية في صلاته ، تلك القوة التي كانت تحرك فكري بما كان يريده هو ، وتسيّر يميني بما يوافق ارادته .

يوحنا ينوي الكتابة باللغة السريانية وهو لايعرفها

في وقت ما اردت ان انسخ مقالة مار اسحق ،[1] التي تبحث في عناية الله الشاملة ، فصعب علي الامر لاني لااعرف الكتابة بالسريانية الاقليلا ، وهذا القليل هو

١-هو اسحق النينوي ، راهب واسقف ومتوحد من القرن السابع . له عدة تآليف في الحياة الروحية والرهبانية . (ادب اللغة الآرامية . ص٣٠١ - ٣٠٣) .

لاشيء ، ولان هذا الكتاب لايصلح للجميع للتأمل فيه ، الا لمن له علم قليل من كثير بالاسرار الالهية الخفية فيه .

ولكن لوثوقي عن خبرة بأن صلاة الربان قادرة على ان تسيّر الخشبة اليابسة بما يشاء ، دنوت منه بايمان راسخ ، ليس كعامة الشعب فقط ، بل بذلك الايمان الوحيد من نوعه ، الذي معه كل شيء ممكن ، وطلبت منه ليصلي علي ، لكي يقود المسيح يميني ويعلمني لاكتب وانسخ من هذا الكتاب المقدس ؛ فبش لي كعادته قائلا : كيف تريد ان تنسخ وتكتب الكتب ، وانت لاتعرف الكتابة؟ . فقلت له : انا مؤمن ياربان بان المسيح بصلواتك يعلمني الكتابة ، كما انت وعدتني بان يعلمني هو مايلزم لي . حينذاك رسم يميني بصليبه وبالماء المبارك وقال لي : اذهب يابني ، وليكن لك كما آمنت ، ورجاني بالله ان ينورك لتكتب حسب رغبتك . وبصلواته علمني المسيح الكتابة ، وماتعلمت من احد ، ومادرست ولاحرفا واحدا كعادة الكتّاب في النسخ . فنسخت ذلك الكتاب ، وكتبا اخرى عديدة ، نسخا من العهد الجديد والمزامير ومقالات ، وكثيرا من كتب الآباء ، وان كان بخط رديء . وكل من رأى وسمع ، تعجب واندهش ومجد الله على السلطان الذي اولاه لقديسيه .

يأمره ليكتب بالسريانية

في يوم ما وردتنا رسالة من رجل مؤمن واديب كتبها بالسريانية . فأمرني الربان كعادته ان اكتب جوابها بالعربية . ولم اكن قادرا على التكلم بالسريانية ، ولا ان اركّب كلمات ولو في خمس جمل بالسريانية ، لأن جلّ اهتمام والدي بي في العالم كان ان اتضلع من العربية فقط . فقلت للربان : بالحقيقة ان امرنا لعجيب وغريب! فان العلمانيين يكتبون لنا بالسريانية ، ونحن الرهبان نكتب لهم بالعربية! . فقال لي الربان : مالعمل يابني ، اذ لايوجد من يصلح لاكشف له الاسرار الواردة بيننا وبين الناس فيكتب لنا بالسريانية . فقلت له يملك الخبرة وبذلك الايمان : صلّ عليّ لاستنير بالنعمة ، فاتمكن من كتابة ماتريد! . فأدناني منه وادخل صليبه في فمي ورسم على قلبي قائلا : يابني لينورك المسيح ويضع على فمك الشيء الصالح والصحيح ، ويسكب موهبته في نفسك . اذهب يابني واثقا بالله ، واكتب ماتوحيه لك النعمة منورة الجهال والأميين .

فكتبت (بعون) صلواته جواب رسالة ذلك المؤمن بالسريانية . وحين قرأته عليه ، اعجب به وباركني قائلا : من الآن فصاعدا لاتكتب بالعربية . من له فكر الروح الذي

يعرف ان يميز ويفهم جيدا ، فليفحص هذه الامور ، وليفهم أن امكنه ، عظمة القوة التي من الله ، والتابعة لكلمة هذا الطوباوي ، التي ما ان قالها الا ويتم فعلا مايشأه من الاعاجيب والمعجزات والايات ، حتى انها جعلت العقل الاخرس يتكلم ، واليمين الصوانية تتحرك . بالحقيقة كانت يميني اعجز من ان تكتب الشيء الذي لم تتعلمه ، وفكري ايضا كان اعيى من الاخرس لتركيب جملتين . ولااريد الافتخار بذلك ، بل اظهار عظمة رجل الله هذا ؛ فلست ناقص العقل بهذا المقدار حتى افتخر بجهود الاخرين ، كطائر النحام القبيح المنظر ، الذي يزين نفسه برياش الطيور الاخرى ؛ فيتباهى بما ليس له . فانا ليس لي من فخر ، الابالقدوس ، بالرب افتخر ، الذي انا به ما أنا عليه ، فبه افتخر حقا ، ومدى الدهر به افتخر ، لأنه ، وانا انسان عاطل وعديم الفائدة ، جعلني قليلا من كثير ، صالحا نوعا ما ، لا للامور الكبيرة ، كلا ، بل للصغيرة ، وبالاحرى للتافهة ، ليس لكونه غير قادر بقوته الالهية ان يجعلني صالحا لمهمة كبيرة ، بل لأني غير مستحق لها ، بسبب خطاياي التي تفوق بكثرتها كل الصلوات .

يوحنا يضع قانونا لنفسه

في يوم من ايام صوم الرب ، خطر لي فكر وانا في صومعتي ، وعليه اردت ان اضع قانونا لنفسي . وكان الربان ينبهني دائما ان لااضع لنفسي قانونا ثابتا . وفي ذلك اليوم أرسل الربان بطلبي ، فقال لي : اذهب هذه الليلة وتناول الاسرار وهلّم الي . فعملت حسب امره . ولما اتيته لم يطلعني على شيء . وناولني كأسا من الخمر قائلا : اشرب هذه الخمر! . فقلت له : ومافائدة هذا ياربان؟ ، كيف اطيق ان اتعاطى ايام الصوم ، مالااطيق ان اذوقه خارج الصوم؟ وانت تنبهني دوما ان لايشرب المرء الخمر في الصوم! فقال لي : اعمل بما آمرك ولاتعترض! . فعملت بامره وشربت الخمر . ثم قال لي : هل تريد ان تضع لنفسك قوانين ثابتة؟ كلا يابني ، لاننا تحت النعمة ولسنا تحت الشريعة والقوانين! [١]

حينذاك فهمت مقصد القديس من ذلك ، وانه مطلع على فكري ويريد ان يوبخني عليه . فندمت وطلبت منه المغفرة .

هذا الاخ قدم نفسه للموت عوض الربان

كان اخ يدعى هرون ، من المترددين هو الآخر الى صومعة الربان . وقد حكى لي بلطفه مايلي :

١-رومية ٦ : ١٤ .

لما تفاقم على الربان ذلك المرضى الذي انتقل على اثره الى جوار الرب ، حزن هذا الاخ حزنا شديدا ، واكتأب في روحه . وكان بسيطا للغاية ، ومضطرما بمحبة الربان فوق العادة ، فافتكر القيام بعمل مذهل وهو ان يقدم نفسه للموت بارادته بديلا عن الربان ليبقى في هذه الحياة . وقال في نفسه : بما ان لافائدة من حياتي ، فخير لي ان اموت عوض ذلك الذي يحيا الكثيرون بحياته . الموت افضل لي من البقاء وحيداً بعد من هي حياتي في الروحيات رهن به .

فأخذ يستعد للموت استعدادا مدهشا . اذ انه دخل صومعته كما روى لي واغلق بابها ، وصلى الى الرب طالبا ان يموت هو عوض الربان ، وتمدد على الارض ازاء الصليب . واستسلم بكل عقله للموت . ولما انتظر فترة طويلة ليتحقق مافكر فيه ، ولم يتحقق انتظاره ، قام وذهب الى الربان المنطرح تحت وطأة مرضه ، ووجهه مغطى ، فجلس بقربه كالمعتاد . فكشف الربان عن وجهه ونظر اليه مبتسما ، وقال له : حسنا يابني حسنا ! هذا هو صدق الحب الخالص : ان يبذل الانسان نفسه للموت من اجل صديقه . فالمسيح الذي به تشبهت هو يجازيك عن صنيعك ، وعن الحب الذي ابديت ، ويعطيك الراحة مكافأة لتقديم ذاتك قربانا من اجلي .

فظل ذلك الاخ متعجبا مندهشا مرتجفا مرتعشا وهو يمجد الله ، على ان ماعمله بالخفاء لم يخف عن القديس ، رغم المرضى العضال الذي كان مصابا به . لأن الجسد مهما بلغت معوقاته اعني بها الامراض والعاهات التي تصيب الحواس ، لايمكنه ان يعيق البصيرة التي تنقت وطهرت ، عن الرؤية الروحية التي تعطى لها بفضل الله ، في صفاء الفكر المتأمل .

قد يحدث ان يصيب ضرر ما الحس الاول اعني الرؤية المحسوسة ، فيعيق عين النفس عن الرؤية الطبيعية ، ولكن لاشيء يمكنه اعاقتها في ذاتها . لابل تزداد استنارة ، فترى البعد والخفايا ، وتبدو لها المكنونات جلية ، لأن رؤيتها عقلية ونظرها بعيد المدى . اما ذاتها المحدودة بالحس نوعا ما ، فاذا تنقت وعادت الى فطريتها ، فأن النفس ترى كل ماحولها ، وتشع بنور ساطع . ويمكن التيقن من ذلك استنادا على القصة المار ذكرها . فأن القديس كان قد كفّ تماما عن كل مايُعمل في نطاق الجسد وحواسه . وكان يمارس بقوى نفسه كل الامور الروحية . فبرؤيته يسبرغور الخفايا ويرى السريات ، وبسمعه ينصت الى الحان التقديس الشجية السامية . وبشمه يستنشق رائحة العطر الذكية الفواحة حول مقدس الرب مثوى سكناه . وبحنكه وفمه يأكل دائما ويستطيب جميع الاطعمة اللذيذة الطعم الفائقة الطبيعة والناجعة للشفاء . وبلسانه

قيثارة الروح ينشد ترانيم الروح مهللا ، ويرتل المجدلات الثلاثية للثالوث المجيد رب العالمين . وكان بالذهن يسطع فكريا بسناء النور الازلي ، ويشرق بضياء أشعة النعمة . واستحق بمجانية الرحمة للارتفاع في مراقي الروح ، فوصل بمحاسنه الدهشة مستقرا في طبيعة فطرتنا التي تعكس مظهرة صورة الخالق ومثاله .

(مريض من قرية هلمون)

وروى لي الاخ هرون نفسه اعجوبة اجراها المسيح على يد الربان . ومن الواجب واللائق تصديق كلامه لسببين : اولا لأن كلامه صحيح وصادق ، كما يشهد بذلك عارفوه ، وعلى شهادتهم اصدق كلامه انا ايضا وأثق به ؛ ثانيا لانني اتخذ وضوح الواقع شهادة على صحته كما تبين وعرفه كثيرون ، علما بأن ذاك الذي اريد سرد قصته لازال حيا يرزق الى هذا اليوم . حكى هذا الاخ مايلي :

في يوم من الايام . بينما كان عند الربان ، اقبل الى باب صومعة الربان ، وقت الغروب ، جماعة من مؤمني قرية هلمون[1] الواقعة في رستاق أياس ، حاملين معهم ولدا ابن اربع سنوات تقريبا . مصابا بمرض عضال ، واقفا على باب الموت يقرع ليفتح له . فلما وصلوا الى الباب سكت الولد تماما ، واستولى عليه الموت مبطل القوى والحواس معا . فقرعوا الباب وهم يبكون وينوحون . فطلع هذا الأخ ورآهم يبكون ، فأسكتهم . وسأل كيف حدث هذا . فحكى له والدا الطفل ماجرى لهما . وكيف ان الطفل كان مريضا وتوفي فجأة حال وصلهما الى الباب ، فاستولت عليهما الكآبة ، وحق لهما البكاء ، لانهما كانا يأملان شفاء الولد ، واذا بهما مقيمان في يأس الموت .

اما الاخ فلم يشك بايمانه ، لكن شال الولد وقد توقف تنفسه كميت مضى عليه زمان ، وادخله قدام الربان ، وقصى عليه كل ماجرى . فاخذ الربان الماء المبارك ولمس به فم الولد . وبعد عناء كبير فصل اسنانه المطبقة بصمت الموت ، وسكب من ذلك الماء في فمه ورسمه بصليبه . ثم اوعز الى الاخ ليعيد الطفل الى والديه ، ويأمرهما ألايصرخا بالبكاء والعويل ، وأن يذهبا الى بيت الشهداء ، دون ان يعلم احد بما جرى .

وبعد منتصف الليل دعا الربان هذا الاخ وقال له : اذهب يابني الى بيت الشهداء وتفقد الناس الذين أتونا مساءً ، وخذ معك خبزا واعطهم لعلهم باتوا بلاعشاء لحزن قلبهم الكئيب .

١-قرية تقع حاليا في تركيا على مسافة ٤٠ كم تقريبا شمال غربي العمادية ، في منطقة «هيس» .

فذهب الاخ الى بيت الشهداء ليقوم بما أُمر به . ولما دخل راى الطفل يوسف . وهذا هو اسمه–يثب ويقفز في بيت الشهداء ، وبيده خبز يأكله . فظن انه طفل آخر . فسأل والديه : اين ابنكما الطفل المريض؟ فقد ارسلني الربان الى هنا لزيارته ! فقالا له فرحين بسرور وابتهاج : هوذا ولدنا الذي تراه قدامك يقأقئ ويرقص ، لقد شفي ! . فاندهش الاخ ومجد الله ، وعاد الى الربان ، واطلعه على كل مارأى ، وكيف ان الولد قد شفي بعون صلواته ، وانبعث من الموت ، وها انه حي ، ويلعب في بيت الشهداء . فأمره ان يرجع اليهما ليقول لهما : انهضا مع الفجر دون ان يعلم احد بكما وبما جرى ، وانطلقا الى قريتكما . فعملا كما أمرا وقاما والظلام بعد باق ، وذهبا الى بيتهما فرحين ، وهما يشكران ويحمدان الله الذي اعاد اليهما و لدهما حيا بصلوات الربان ، بعدما ابتلعه الموت وسجنه في شقوق احشائه ، من حيث يصعب جدا بل ويستحيل اخراج اولئك المدفونين فيها الى يوم القيامة ، الذي فيه يرعبه امر ربنا ، ليعيد احياءً جميع الذين ابتلعهم ، فتغشاه آلام المخاض القاسية . الى ان يخرج جميع المطمورين في شقوقه ، فيجري الحساب من البداية والى النهاية .

(الأخ ابون)

كان في الدير اخ اسمه ابون ، وكان يذهب دائما الى بلد داسن ، وكانت الطرقات سهلة لديه . في يوم من الايام اتى الى الربان كعادته وقال له : صلّ علي ياربان ، لأن طريقي يمر بنهر الزاب (الكبير) . فقال له الربان : لاتسافر اليوم على هذا الطريق ، اذ لاخير لك فيه ، ولربما تلقى ضيقا!

لكن الاخ خالف امر القديس وراح في طريقه . ولما وصل الى النهر ، هجم عليه لصوص اشرار قساة جدا ، واشبعوه ضربا بلا رحمة ، فتملص من ايديهم مجروحا عدة جروح في رأسه وجسمه، وقفل راجعا الى الدير . واتى وقرع باب الربان . فخرج الربان ليرى من الطارق . فاجاب هو من الخارج قائلا : انا هو ذاك الذي ظهرت فيه اليوم ثمار عدم الطاعة ! . ولما فتح الربان الباب له ، اطلعه على كل ماصابه . فقال له الربان : أما أمرتك أمرا بأن لاتسافر في هذا الطريق؟ فلما خالفت كلامي ! أو لعلك تظن انني عن جهل وجزافا وبلا روية قلت لك لاتذهب في هذا الطريق! .

ابو زكري بن كعب الموصلي

كان في مدينة الموصل مؤمن بار وقويم الايمان ، وكان عالما عظيما وشهيرا في زمانه ، يدعى ابا زكري ، وكان الربان يحبه كثيرا ، لأنه هو الاخر كان يحب الربان ويثق به ،

ولايعمل شيئا بدون مشورته وامره . وكان له شقيق اسمه عبد المسيح ، وهو ايضا كان عالما بارزا وشهيرا . وقد اصيبت يده اليمنى بحادث مؤسف فشلّت للحال ولم تتحرك . ولم يعد قادرا على عمل شيئ بها . فأتى الى الربان واراه يمينه ، وطلب منه الصلاة لكي تشفى . وبينما كانت جماعة ملتفة حول الربان ، امسك بيمينه ورسمها بالماء المبارك ، وتركها بين يديه لفترة ما ، وهو يمددها ويحركها ويدلكها . ثم اطلقها ، فشفيت حالا واخذت تتحرك وتمتد . فقام للوقت واخذ يكتب بيده رسالة لاخيه يخبره بشفاء يمينه .

وبعد ايام عاد الى بيته مشافى في كلا عنصريه اعني في جسده ونفسه ، لانه كان قليل الايمان وشكاكا . فحين قدم الى الدير مريضا بكليهما ، في جسده بسبب يمينه ، وفي نفسه بقلة ايمانه ، عاد من الدير وقد نال الشفاء بكليهما . فحمد الله وقدم الشكر على ماجرى له بصلوات الربان . لأنه كان قد يئس من شفاء يمينه . لكن المسيح الطبيب المجاني شفاها بصلوات الربان .

في يوم ما دعاني الربان وقال لي : انني قلق جدا على صديقنا ابي زكري ، لأن سراجه قد انطفأ منذ زمان من امام عين فكري . وبعد ايام وافانا رسول يخبرنا بمرض الرجل . فقال الربان : ان هذا المرض هو لموته . فاذهب يابني لتراه قبل ان يموت . وعقب ايام قليلة توفي هذا المؤمن .

حقا لم يكن شيئ خفيا عن عين فكر (الربان) . بل انه كان يرى بوضوح الامور البعيدة والقريبة والافكار والاعمال .

في فضائله

ليس بامكان انشائنا الضعيف أن يبين ويصف تواضعه ولطفه ، وحبه ورأفته ومودته لجميع الناس ، ولو بمقدار نقطة صغيرة من مياه البحر الكبير . فأنه لم يقل كلمة لانسان بلهجة الآمر . لا للاكبر منه ولا للاصغر ، بل كان كلامه هادئا وعلى مستوى جميع الناس . وعندما كان يريد ان يأمر احدا وينبهه ، كان يرجوه بلطف قائلا : يابني انني احب ان لاتفعل هذا ، واحب ان تفعل هذا . انه لم يوبخ احدا قط ، الاحينما كان يستحق التوبيخ لردعه . وكان يقرن نفسه معه ، فيقول له كذا : يابني ان هذا لايحسن بنا ؛ و : لانعمل كذا! . وحينما كان يسأله احد عن امر ما يريد القيام به ، لم يكن يبادره قائلا : اعمل . او : لاتعمل! لكن كان يصلي عليه في فكره ويرسمه بالصليب ثم يقول له : اذهب يابني واعمل بما توحيه النعمة لك وتحركه في فكرك . وكان هناك احيانا من لايفهم قصده من هذا ، فيجيبه : انا لاأطمئن بالاً الا بعمل

ماتقوله انت لي . ولكوني انا واقفا على فكر القديس ، كنت اردف لذلك الشخص ايا كان : اذهب ياأخي فان الربان لم يقل لك هذا جزافا ، بل بعدما صلى من اجلك ، والنعمة هي التي تضع في فكرك ماهو صالح لك .

الى هذه الدرجة كان حريصا على ان لايتلفظ بكلمة واحدة بمنطق السلطة ، ولا ان يزجر احدا قط ، ولم يرفع نفسه بشيء يخصه بالذات . فعندما كان يطلب منه احد ليرسمه بالصليب ، وان كان مبتدئا ، كان يبادره هو فيحني رأسه قدامه قائلا له : يابني ارسم انت اولا شيخوختي المحتاجة الى ذلك ، وبعدئذ ارسمك انا ، وكما آمنت يكون لك .

وكان احيانا يسألني او يسأل بعضا من الحاضرين في الصومعة عما يريد ان يعمله ، هل يعمله ام لايعمله . اوهل يذهب لتناول الاسرار ام لايذهب ، اويأكل ام لا ، وعن كل شيء آخر .

فتعجبت منذهلا وقلت له : كيف تسألني انا الذي لااعرف حتى نفسي؟ . فكان يجيبني : يابني قل لي ماتلهمك النعمة وتضعه في فمك . الى هذا الحد من التنازل كان يضع نفسه بتواضع المسيح .

انظر الى رأفته

يوم كان يمضي لتناول الاسرار المقدسة ، فيرى الفقراء الحاضرين الى الدير ، لم يكن يتوقف عن ذرف الدموع . بل يقرع صدره ويبكي قائلا : آه : ماذا اعمل من اجل هؤلاء الفقراء! .

ولم يكن يحتفظ بشيء في صومعته . بل كان يوزع على الفقراء كل مايرد اليه في نفس اليوم . ولم يكن يقتني الا القميص الذي يرتديه وآخر للتبديل لااكثر . وكان يتحمل بقميص واحد شدة البرد القارس بسبب الثلج والجليد المتراكم . وكنا نلحظه احيانا بلا سراويل . فنقول له : لماذا؟ فكان يجيبنا : ان فقيرا عريانا اتى الى الباب ، فلم اتمالك نفسي حتى اعطيته السراويل . فكنت اندهش من شفقته ، فامضي واجلب له سراويل . كانت رأفته تصل به الى درجة لم يكن فيها قادرا على حبس شفقته ريثما آتي واقضي له حاجته .

وكانت محبته متقدة مضطرمة تعم جميع البشر . فكان الجميع يندهشون به ، لرؤيتهم انه يحب الناس جميعا محبة فائقة الطبيعة ، وكنت احيانا بل ودائما الطّف من شدتها ، لكنه لم يكن قادرا على ضبط لواعج الحب الالهي .

كان فكرة مأخوذا دوما بتأملات الاسرار الالهية ، فيبقى فترة طويلة دون ان يحس بشيء مما حوله . واحيانا كان يجلس معنا الى المائدة ، ويتناول الشيء الزهيد الذي كان يأكله ، اما بفكره فلم يكن معنا . فكان يسألنا بعد ساعة هل أكل شيئا ام لم يأكل . فكنت اجيبه : نعم ياربان ، اليوم اكلت خبزا معنا . فكان يمجد الله ويتعجب من نفسه فيقول لنا : احترصوا ياابنائي وتدبروا ماحدث لئلا يعرف احد به ، ولاحظوا ايضا وراقبوني لئلا اتناول البكر[1] بعد الاكل ، لأن مايحدث لي يصيبني بسبب خطاياي الكثيرة .

كنا نندهش ويأخذنا الانذهال من هذا الرجل الذي كان بجسده في العالم ، وبفكره كان مقيما فيما فوق العالم وفي الاوطان العلوية . الى هذا السمو والكمال وصل هذا الطوباوي العجيب في القديسين ، وارتفع الى هذا العلو الاسمى من كل علو في العالم . وانا اشقى الناس جميعا واضعفهم واجهلهم! انا الذي تجرأت وذكرت هذا القليل الذي كتبته عنه ارضاء لاولئك الذين طلبوا مني ، لم يكن لي القدرة على المزيد منه . لأن الايات والعجائب التي اجراها ربنا على يده ، لاتقتصر على هذه فقط ، اذ من يمكنه ان يجمع ويحتوي في كتاب جميع امجاده وان كان مطلعا عليها . وانا الذي جمعت هذه وكتبتها ، لم انو منذ البداية ان اجمع مآثره كلها ، لأن الجميع كانوا مطلعين حينذاك على عظمته وسمو سيرته المدهشة . ولاسألت ايضا اولئك الذين سبقوني الى صحبته ، الواقفين بقليل من كثير على سيرته ومناقبه . لان نيتي لم تكن تأليف قصة عنه ، كما وانني لم اطلّع على كل ما عمل حين كنت بمعيته . وليس لي رؤية الفكر التي بها ربما كنت أرى ما عمله بالخفاء لبعض الناس الذي طمروا تحت التراب مع مالديهم من اسرار .

والان شاء الله ان يصير على يد شقائي ماقد صار وتم ، بعد وفاة جميع الذين كانوا ذوي ألفه معه ومطلعين على شيء من خفاياه . لذا كتبت قليلا من كثير ، وعلى قدر

١-البكر . لغة ، هو الوليد الاول (بوخرا) وفي طقس القداس يقصد به قطعة الخبز المعدة للتقديس . او الخبز المقدس ايضا ، وهو المعنى المقصود به هنا . ويطلق على المسيح «بكر الخليقة كلها» بحسب بشريته . (كولسيين ١ : ١٥) .

طاقتي ، مما عاينته بنفسي وتم فيّ ، وما قمت به وكنت احيانا اسمعه واعرفه منه ، حسب طاقة ضعفي وامكانية معرفتي الضحلة .

اما مالم تكشفه النعمة ولم تؤهلني لمعرفته من بقية بحر مآثره ، فانه في مخازن معرفة المسيح ربنا الذي وحده يعرفه .

المجد له من كل ما كونت ارادته ، وعلى ماعملت وتعمل آمين .

الفصل السابع

في مآثر الآباء المعاصرين للربان ، والذين سبقوه بقليل ، وكان الربان نفسه يتحدث عنهم . يارب أهلني لقبس من الرحمة بصلواتهم امين .

واحد هو من هو وحده واحد بوحدانية فريدة من نوعها ، في الجوهر وفي الصفات ايضا ، وهو الله خالق الكون وصانعه بوحدانية حكمته التي لاتستقصى .

ومع انه هو هو ، واحد في كل شيئ وفي الكل وبالكل ، الاانه يوزع مواهبه بانواع مختلفة . ليس لأنه مجزأ ، ولا لعلة ما من الخارج ، بحيث لو وجدت ، حاشا ! لما كان واحدا ، بل كان يعّد كثرة ، وعليه لكان متغيرا ؛ ولكن لكي تُعرف بكثرة انواع مواهبه ، وحدانيةُ جوهره وجميع صفاته وكمالها وعدم تغيرها ، ولامحدوديته في كل شيئ وفي الكل وللكل ، بدون علة من الكل ، بكل ماهو الكل . فالرب الروح واحد ، وهو الذي يوزع جميع المواهب للكل وعلى الكل .

فلواحد يعطى روح النبؤة بالروح عينه ، ولاخر معرفة الروح والحكمة بالروح عينه ، ولغيره الرؤية ، ولهذا القوات والآيات ، ولذاك فصاحة الكلام ، ولاخر امورا اخرى متنوعة بالروح عينه[1] الذي يوزع ويعطي كما شاء ويشاء ، لخير البشر جميعا .

وتدل هذه كلها وبكثرتها ، على وحدانية ارادة الوهاب ولامحدوديته ، وعلى ان مواهبه هي منه وفيه ، وليست خارجا عنه ،ولعلة ما . وبهذا ايضا تُعرف حكمة الخالق الحكيم في كل شيئ ، لها السجود من الجميع ؛ اذ يوزع مواهبه بانواع مختلفة على قابليها .

وكما ان حكمة البستاني تُعرف من كثرة انواع الاشجار التي يجمعها ويشتلها في حديقته ، ولكثرتها تعطي مختلف الاصناف من الطعم والرائحة ، ومنها عطرية ومنها لا ، كالتفاح والسفرجل والرمان وغيرها ، كالاطرج والورد والياسمين والعطريات الاخرى ؛ ومنها الدهنيات كالزيتون واللوز والجوز وغيرها ، ولكل منها طعم لذيذ خاص بها ، ورائحة مختلفة عن الاخرى ، فلا يستهين المرء بواحدة منها لانها ليست كالاخرى ، بل ينال من كل واحدة عذوبةً خاصة ، لكنها جميعا مشتولة في حديقة واحدة ، وكلها ،

١-اولى قورنثية ١٢ : ٤ –١٠ .

تمتص الماء من ينبوع واحد فتنمو ، وكلها تغذيها وتنعشها شمس واحدة وهواء واحد ، بينما تتنوع في الطعم والرائحة ، وكلها تثمر ثمارا مفيدة للناس ، هكذا ايضا وعلى نفس النمط ، طبيعة الناس جميعا . فانها رغم كونها واحدة ، لأن باريهم وخالقهم واحد ، وجميعهم به مكوّنون ويعمرون ويقيمون ، وبه ينمون ويحيون ويتحركون ، [1] وبه هم ماهم عليه في الكلية والوحدانية ، ووحدة الوحدانية ، وفي الاشياء المتشابهة والاشياء اللامتشابهة ، وفي الاشياء الجوهرية والاشياء العرضية ، وبكلمة ، في كل الكل وفي كل الواحد ، وفي الكل من الكل ، وفي الكل من الواحد ، وفي الكل الى الكل ، وفي الكل الى الواحد ، وفي الكل بالكل ، وفي الكل بالواحد ، وفي الكل من الكل الى الكل ، ومن الواحد الى الواحد ؛ ومن ينبوع نعمه الواحد ينهلون ، وبروح واحد يكبرون ، والى انتاج الثمار يبلغون ، ومختلف الطعوم والروائح يعطون ، الا انه لكل انسان قد اعطيت موهبة من الله بنوع او بآخر .

فهذا له كثير من شيءٍ وقليل من شيءٍ آخر ، وغيره له قليل من شيءٍ وكثير من آخر ، فمن يعطى له الكثير من شيءٍ ما ، بتدبير الهي لاجل التدبير (العام) ، لانعتبره احسن من ذاك الذي أُعطي له القليل من الشيءِ عينه بنفس التدبير ، ولانعدّه انقص منه . لأن كل التدابير والنعم تُمنح وتظهر للخير العام .

فاذا كان الامر هكذا كما هو فعلا ، فلا يحق للمرء ان يمتنع عن القاء ما عرفه من الامور التي منحها التدبير (الالهي) للخير ، على مائدة فردوس الكنيسة المقدسة ، ليكون غذاء للنفوس التي به تثبت وعليه تقوم . والحال فانا الشقي احقر الجميع ، الذي ائتمنت على هذا القليل الذي سمعته من القديس الربان يوسف ، عن مآثر الآباء القديسين الذين عاصروه ، لا يحق لي ان اكتمه ولااعرضه وأضعه على مائدة فردوس هذا التاريخ ، لكي تتغذى منه النفوس النقية المتلهفة لمثل هذا المأكل ، ولو ان اسلوبي ركيك وبسيط وسقيم . لكن على المرء ان يمعن النظر الى القوة الخفية في هذه الاشياء المكتوبة ، وليس في بعثرة الانشاء وسخفه وسذاجته وبلادته ، ولا في جهل المؤلف وجسارته ، لأنه اقدم ، عملا بملتمس الطالبين ، على شيءٍ ليس خبيرا به ويفوق مقدرته بلاحد .

والان بالاتكال على الله ، اكتب حسب الهدف المعين لنا ، المآثر التي سمعتها من الربان عن بعض القديسين ، وعن اولئك الذين شاهدتهم وعاشرتهم ، مكتفيا بموجز

١-اعمال الرسل ١٧ : ٢٨ .

متسلسل ، تبركابهم لاغير ، مبتدئا من السلف فالى الخلف ، ومتخذا في ذلك عونا لضعفي صلوات هؤلاء الطوباويين ، وصلوات الربان نفسه ، لكي استعين بها ختام هذه التجارة آميــن .

الربان يوحنا[١] الذي من خلفت

كان اصل الطوباوي الربان يوحنا من بلد المرج ، من قرية تدعى خلفت . وتتلمذ للحياة الرهبانية في دير القديس الربان هرمزد . وبعدما تدرب على الاعمال التي تمارس في الاديرة داخل الصوامع . اشتاق الى الاقامة في الجبل والقفار ، لكي يتسلح هناك لمحاربة الارواح الشريرة ومالديها من رئاسات وسلاطين ، [٢] لئلا يعيقه شيء من قيود العالم في جهاده .

فخرج من الدير وسكن في الدير المسمى «الرأس» [٣] حيث أقامت جماعة الربان يوزاذق[٤] والربان هرمزد المباركة ؛ ومكث في هذا الدير سنين عديدة ، وانتصر في جميع الصراعات ضد الاعداء . فتدرب فكره وتمرس في كل الرؤى الالهية . فقد تدرب على الاولى وتضلع من الثانية ، اما في (الثالثة)[٥] والرابعة فقد صار حكما ، حتى ارتفع وبلغ الى الرؤيا التي هي الاولى والاخيرة ، ومنتهى النهايات كلها ، والتي لاعبور منها ولامكوث فيها ، لانها لاتفحص ولاتدرك ولاتستقصى . ان الله الذي يريد خير الناطقين جميعا ، لم يشأ ان يدع جهده لمنفعته الشخصية وحدها . بل ان يستفيد الكثيرون منه وبه . فحركته النعمة ليعود الى ديره . فرجع حسب مشيئة الهنا عز وجل ، الى صومعته في دير (الربان هرمزد) . وصار ملاذا للحزانى والمتضايقين الملتجئين اليه . واجرى الله على يديه العديد من المعونات والعجائب والقوات .

١-ذكر سابقا صحيفة ٢٩ من هذا الكتاب .

٢-افسس ٦ : ١٢ .

٣-يقع هذا الدير خلف دير الشيخ متى في جبل مقلوب . اسسه احد الرهبان الذين اقبلوا من بلاد الروم في القرن الرابع . وجدده الراهب ابراهيم في نهاية القرن السابع اومستهل القرن الثامن . ومازالت اثاره باقية حتى اليوم . (الديورة عدد ٩١ ، كتاب الرؤوساء صحيفة ٢٤ الحاشية ١) . ويعود حاليا الى طائفة السريان الارثذوكس ويدعى بدير «مور ابروهوم» .

٤-كان الربان يوزادق معاصرا ومرافقا للربان هرمزد في حلة وترحاله . وافترق عنه اخيرا و بنى ديرا في جبل قردو شمال شرق دجلة (الديورة عدد ٨٩ ، ٩١) .

٥-المخطوط يذكر الرابعة والخامسة بعد الثانية ، ولعل الناسخ سها عن ذكر الثالثة . وكذا الحال في النسخ الاخرى التي راجعتها ، ومن ضمنها ترجمة شابو ايضا .

كما واضطرته النعمة عنوة فاقيم رئيسا ومدبرا لذلك الجمع المبارك . ودبر رئاسة الدير زمانا طويلا بكل همة مجتهدة وجادة وخالصة من ادنى اهمال وكسل ، ومتشبعة من مخافة الله والاستقامة . وصار له تلاميذ كثيرون ، سنكتب ونتحدث عن كل واحد منهم .

لقد ارتفع هذا الطوباوي حتى وصل الى مرتبة القديس الربان هرمزد ، كما حكى احد تلامذته للربان (يوسف) . فانه في يوم من الايام ، بينما كان تلاميذه مجتمعين حوله وهو يتحدث معهم عن الامور الالهية ، قال لهم : انني اعرف رجلا في عصرنا هو بمرتبة الربان هرمزد . وكان يشير بهذا الى نفسه ، بانه هو الذي ارتفع الى مرتبة الربان هرمزد .

روى الربان (يوسف) ان احد تلاميذ (الربان يوحنا) حكى له مايلي :

في وقت ما نفد القمح من الجمعية . فاخذ الربان يوحنا دوابا وراح الى المرج لجلب القمح . ولما وصلت (القافلة) الى سفح الجبل الذي على قمته يقع الدير[1] حيث كان يسكن القديس (سابقا) قال للذين كانوا معه : انتظروا قليلا ريثما اصعد لازور الصومعة . وبينما كان صاعدا في الجبل شاهدوا نمرا ينحدر مسرعا نحوه ، فجاء وانطرح قدامه كأنه يسجد له . ثم نهض وأخذ يداعب يديه ويلطع رجليه ، والربان يوحنا يمسد رأسه ويضربه بلطف قائلا له : لماذا تركت الصومعة واتيت ياصغيري؟! فركض النمر قدامه حتى صعد الى الصومعة . والذين كانوا معه ورأوا هذه العجيبة ، خافوا واندهشوا ومجدوا الله العلي الذي اعاد الانسان الى المجد الاول السابق للمعصية ، والى السلطان الذي به كانت الخليقة كلها تطيعه ، واعطاه ان تتآلف معه حتى الحيوانات المفترسة كما كان في البداية .[2]

كان للربان يوحنا تلميذ يدعى ايشوع رحمه .[3] فهذا حكى للربان (يوسف) ان الربان يوحنا كان قد تعود على الطلوع احيانا الى الجبل لزيارة الرجال القديسين الساكنين في الجبال والقفار في ذلك الزمان . فخرج في احدى الليالي ليذهب كعادته . ودعا هذا الاخ ليرافقه حتى القمة ثم يعود . وبينما كانا سائرين على مفاز ضيق يدعى

١-هو دير الرأس المذكور آنفا .

٢-سفر التكوين ١ : ٢٨ .

٣-معناه : يسوع صديقه .

درب الشياطين ،[٤] قال له الاخ : اكاد احترق من العطش يا ربان! وكان في ذلك الممر الضيق شجيرة غار (حوردفني) ، فقطع القديس خمسا اوست من اوراقها واعطاها له قائلا : خذ يابني وكل من هذا الحشيش فانه يبرد غليلك! فاكل الاخ تلك الاوراق دون ان يعلم ماهي .وقال انه لم يذق قطشيئا طيبا مثلها ، لانها كانت حلوة الطعم ودسمة ولذيذة جدا . فارتوى ظمأه وانتعشت نفسه ، وابقى ورقة واحدة في يده ليتفحصها عند شروق الشمس ، ويرى ماهذا الشيء العجيب الطعم الى هذه الدرجة .

اما القديس فقد شعر بما نواه فقال له : يابني كل الورقة التي بقيت في يدك لئلا تصبح مرة عند طلوع النهار . فاجابه الاخ : نعم سيدي . ولم يأكلها . وبعد فترة اعاد عليه نفس الكلام قائلا : كل يابني تلك الورقة لئلا تصبح مرة عند بزوغ الشمس . فقال : نعم . ولم يأكلها . ولما وصلا القمة صافحه واخلى سبيله ليعود الى صومعته . وعند الصباح ، رأى الاخ ان الورقة من شجرة الغار . فتعجب من هذا جداً ، ولما ذاقها نفذت مرارتها حالا الى مخه . وحينذاك ندم لعدم انصياعه للقديس . وحمد القوة الالهية التي احالت الاصناف المرة حلوة ، كما احالت هذا الصنف المر حلواً بصلوات القديس ، لكي تُعرف القوة الخفية المعطاة لاتباع المسيح ربنا .

قصة الظبية وفرخيها

كان للربان يوحنا تلميذ آخر اسمه يونان ، وكان يسكن معه في الصومعة ويقوم دائما بخدمته . فهذا حكى للربان (يوسف) ماروواه الربان لنا وهو : في يوم من الايام اقبل الى الربان يوحنا رجل مسيحي من قرية بابوسا (بوزان) . فطلب بركته وعرض عليه حالة فقره . فاوعز الربان الى الاخ فاعطاه شيئا من الزاد الذي كان لديه . ولما همّ ذلك الرجل الفقير بالخروج عاد الى القديس وقال له : عندي اطفال صغار ، وليس لي ماأطعمهم في بداية هذا الصوم ، ارجوك ان تصلي الى المسيح ليقيض لهم شيئا يأكلونه . اغتم له القديس وقال : اذهب وعند نزولك الى الوادي ، تأتي عنزة جبلية وتقف امامك ومعها فرخاها ، فخذ احد الجديين واترك الاخر لأُمه . فكان كذلك كما

٤-في الاصل «نربا دذيوي» وهو الدرب الضيق الوعر المنعرج على شفير الوادي العميق الواقع الى شرقي دير الربان هرمزد والمؤدي الى كرم الدير . وقد توهم الرهبان واهالي القوش بتسميته «كلّيا دنهرا دأيوي» : «وادي نهر الغيوم» والصحيح هو : وادي درب الشياطين ، كما يتضح من الاصل .

قال القديس . اما الرجل فقد نسى امر القديس بطمعه . فاخذ الجديين وذبحها . وللحال قال القديس : ابني يونان ، ان ذلك الرجل الفقير ذبح ولدي العنزة كليها!! . لكن الرجل بعدما ذبح كلا الجديين ، وقع عليه خوف شديد وأخذ يرتجف ويضطرب دون هوادة . فحمل الجديين القتيلين وأتى الى باب الصومعة وطرق . فطلع الربان يونان اليه قائلا : ياتعيس الحظ ، لماذا توقحت وتخطيت امر القديس؟ . ثم أدخله عند القديس ، فارتمى الربان يونان لدى قدمي القديس طالبا منه ليرأف بالفقير . فقال الربان (يوحنا) لذلك الفقير : لماذا تجاسرت واثكلت العنزة بولديها الاثنين؟ أما أمرتك ان تأخذ واحداً وتترك الاخر لها؟ . فبكى ذلك الرجل وقال له : لقد اذنبت ياربان ، صلّ علي فانني مائت لامحالة ، واولادي يصبحون يتامى ! . فرسمه الربان بالصليب ، وزالت عنه تلك الرجفة التي وقعت عليه . فاطلقه ليذهب الى بيته . فرمى الجديين قدامه وخرج مهرولا .

اما أُم الجديين فكانت واقفة في كهف فوق صومعة الربان ، تثغو ثغاءً عاليا ، فاغلق الربان يونان الباب ودنا من القديس ، والجديان لازالا قدامه . فبسط الربان يوحنا يمينه ورسم الصليب على ذينك الجديين القتيلين قائلا : باسم الاب والابن والروح القدس امين ، قوة الثالوث الاقدس تحييكما! . وللحال قفز امامه كلا الجديين القتيلين ، وتسلقا الكهف نحو امهما .

ياللعظمة النعمة التي لاتوصف ، الموهوبة للبشر بالمسيح ربنا ، فانهم رغم كونهم بشرا ضعفاء ومائتين ، صاروا آلهة ومثل الله باعث الموتى الصرعى من زمان . حقا لقد ارتفعت الطبيعة البشرية بالمسيح الذي هو منها ، الى هذه الكرامة العالية ، بحيث اصبحوا ابناء الله وآلهة ، ويعملون بالله مثل الله كل مايريدون .

اللهم سبحانك على نعمتك ، ثم سبحانك اللهم على نعمتك التي لا توصف ، التي سكبتها علينا بابنك الحبيب ربنا يسوع المسيح ، الذي لك وله وللروح القدس ، المجد الواجب لمجدك امين .

الربان يونان تلميذ الربان يوحنا ، حفظتنا صلواته امين

كان الربان يونان هذا من بلد المرج ، وكان تلميذا مرافقا للربان يوحنا كما ذكرت اعلاه ، يعمل بين يديه بطاعة بسيطة كاملة . فانه كان متضعا للغاية ونشيطا في ممارسة الحياة الرهبانية المقدسة ، اعني في الجهود التي تبذل داخل الصومعة ، وفي الخدمة

الخارجية قدام القديس .

حكى الربان (يوسف) ان الربان يونان حكى مايلي :

في احد اسابيع الصيام ، بينما كان في صومعته ولمّا يزل مبتدئا ، داهمته فرقة كبيرة من الشياطين لمحاربته ، واثناء صراعه المرير معها ، أتى الربان يوحنا ووقف بينه وبينها ، ورسم الصليب ازاءها قائلا : ماذا تريدون من ابني الحبيس؟ ابعدوا ياملاعين ، فلا سلطان لكم عليه! . ومنذ ذلك اليوم نجا الربان يونان من صراع الشياطين.

وكان الربان (يوسف) يقول عنه انه بلغ الى مرتبة عظيمة ورفيعة . بحيث انه كان في العالم بجسده فقط ، اما بفكره فكان مقيما في مافوق السماء . وكان دائما ينخطف بفكره الى الالهيات ، حتى انه كان يتناول الطعام وهو لايدري به ، او لايأكل ولايدري ايضا . وكان يطوي اياما دون ان يذوق شيئا ، ولايحس بذلك . فكان يأتيه تلميذه ويوقظه ويقدم له شيئا ما ليأكل . واحيانا كان يخرج لتناول الاسرار المقدسة بعد تناوله الطعام . فكان تلميذه يعيده ويراقبه . وفي حالة انخطافه لم يكن يحس ولايعرف هل استمر يوما او اياما . ولهذا السبب كان يستفسر دائما عن الايام .

الى هذه المرتبة السامية وصل هذا الطوباوي . جعلنا المسيح اهلا لها جميعا امين .

قصة راهب ساطع النور
كان في دير الربان هرمزد

حكى عنه الربان (يوسف) دون ذكر اسمه فقال :

كان كريم الاخلاق وعالي الهمة ومتقدا بمخافة الله . لان قوة الغضب تطهرت في نفسه ، فكان يتصرف فيها طبيعيا وفطريا ، هذه الحالة التي يسميها بعض العلماء «كلباينبح بالذئاب الليلية الخاطفة» . فكان هذا الطوباوي يتحرك دائما بقوة الغضب كما هي بالاصل في فطرة النفس .

كان رجل في قرية تدعى الدير الجديد ، [1] يلحق الاذى بالرهبان والمبتدئين المارين من هناك . رزق أبنا ، فارادت والدته ان تعمده في الدير رغم ممانعة زوجها الشرير ، فصعدا بالطفل الى الدير . فحمل احد الاخوة الطفل على يديه ودخل به الهيكل ليصلي

---

١ -موقع هذه القرية مجهول لدينا . ويبدو من سياق الكلام انها احدى القرى القريبة من دير الربان هرمزد .

الاخوة عليه . ولما دنا من ساطع النور ، سأله عن الطفل ابن من هو . وحين علم انه ابن ذلك الرجل ، بسط يده على الطفل وقال : حربة الرب تضرب هذا الطفل بخطيئة والده المتعدي على الرهبان ! وللحال مات الطفل بين ذراعي ذاك الذي كان يحمله . ولما احس والداه سجّسا الهيكل بصوت بكائهما وعويلهما المرير . فدعا الطوباوي والد الطفل وقال له : ان الحربة التي قتلت ابنك ، كان ينبغي ان تضربك انت بسبب اثمك ، لانك تسيء كثيرا الى الاخوة ! لكن الله اطال صبره عليك لعلك تندم على الشر الذي تقترفه .

فبكى ذلك الرجل قدامه ، ووعد بقسم انه لن يسيء الى الأخوة مرة اخرى من ذلك اليوم فصاعدا . فاعطاه (الطوباوي) ثلاث قطع من ذخائر القديسين قائلا له : اذا وفيت بوعدك يرزقك الله بثلاثة بنين ، وهم يرثون بيتك من بعدك . فآمن ذلك الرجل بما قاله الطوباوي له ، ولم يسيء الى احد من الأخوة بعد ذلك اليوم . لكنه لدى مرورهم بالقرية كان يستضيفهم في بيته ويحتفي بهم . وقد تم فعلا قول الطوباوي له ، فرزقه الله بثلاثة بنين ، وعمّد الرجل ابناءه في الدير ، شاكرا وممجدا الله الذي ترحم عليه .

في ليلة من ليالي الاحد ، بينما كان ساطع النور متكئا في زاوية من الهيكل كعادته ، جلس القارئ ليقرأ اثناء فاصل صلاة الجلسة .[1] فوصل الى الاصحاح الذي يقول فيه الانبا اشعيا :[2] تناول حتى ثلاث كؤوس . اما القارئ فاراد ان يمزح فقرأ : تناول حتى ثلاثين كأسا ! » فصرخ به (الصوباوي) من زاويته قائلا : طعنتك رمح الرب ! يالقحتك ، كيف تمزح وتمرح وانت جالس في مجمع تخدمه الملائكة ! . فوقع الكتاب حالا من يد القارئ ، وسقط على الارض ميتا . فحمله الاخوة ودفنوه مثل رفيقه حنانيا[3] الذي طعنته رمح الغيرة الالهية نفسها .

الى هذه المرتبة من صفاء قوى النفس وصل هذا الطوباوي ،[4] وأعطي له سلطان

١-بالسريانية : بساق موتبا ، وهي فترة أستراحة فاصلة بين صلاة الجلسة (موتبا) وصلاة الليل او السهر (صلوثا دلليا او دشهرا) .

٢-من مشاهير نساك صعيد مصر في نهاية القرن الرابع .

٣-اعمال الرسل ٥ : ١ - ٦ .

٤-في الصحيفة ٣٢١ من المخطوط حاشية تقول : يقع تذكار ساطع النور في اول ايلول . وجاء في كتاب الاب حنافي ، اثور المسيحية جـ/ص٥٤١ ، ان الربان هرمزد عُين له في القرن التاسع تذكار في التقويم الكنسي ، اليوم الاول من ايلول ، على اثر شفاء رجل اعمى تشفع به . فلعل ساطع النور هذا هو الربان هرمزد نفسه؟! .

كهذا بحيث كانت كلمته نافذة المفعول حالما يتلفظ بها .

سبحان من نصره ، ولتفض علينا رحمته دائما ، وعلى الكاتب الشقي واخوته امين .

الربان ايشوع برنون

تتلمذ هذا الطوباوي في دير القديس الربان هرمزد ، وكان من تلاميذ الربان يوحنا . ومن بداية تتلمذه في الرب مؤيده ، اختار الاعمال الشاقة التي تمارس في الجسد ، وكان نشيطا فيها ومثابرا عليها جدا .

ان كثرة الاعمال الجسدية تثير عادة على النشيط غيرة الشياطين ، لانهم لايطيقون الصبر لرؤيتهم جسدانيا يقوم باعمال الروحانيين . ولهذا السبب يحاولون جهدهم ايقاع الاخ الشغول ، في الاستكبار القاضي على الجهود ، وفي الكبرياء المجاهدة ضد الله .

لذا فالاخ بحاجة الى تواضع عميق ، ليذل نفسه في كل شيء ، ويحتقر ذاته قدام الجميع . لكي يقدر بالرب يسوع رئيس المتواضعين ، على النجاة من الاعداء المضاددين والمقاومين له .

وبما ان هذا الطوباوي عرف ذلك حق المعرفة ، فقد اهتم كل الاهتمام برذل ذاته ، حتى انه كشف هذا الرذل واظهره قدام الناس . روى عنه الربان (يوسف) انه في يوم من الايام ، بينما كان الاخوة مجتمعين في الهيكل لصلاة الاسرار المقدسة (القداس) ، اقبل هذا الطوباوي الى الهيكل بهيئة مدهشة وغريبة جدا . فوجهه ملطخ بالسواد ، وقد علق حول عنقه قلادة من عظام ، وشد حزامه وقميصه فوق ركبتيه ، وهو راكب على عكازة وبيده عصا ويركض كأنه راكب على مطية . وبهذه الصورة دخل الهيكل حتى وقف قدام باب المذبح . ثم خرج من الهيكل ودخل في جناح المبتدئين ، ومن هناك عاد ثانية الى الهيكل . فركض تلميذه نحوه ، واسرّ له باذنه على حدة وقال له : هل تريد لمنفعتك الذاتية ان تكون علة أذية للاخوة جميعا؟ .

حينئذ خفض رأسه وحدق بالارض ثم ذهب الى صومعته . فبقي الاخوة كلهم مأخوذين بالدهش والحزن على رجل فاضل كهذا مسه الشيطان . ثم لحق به تلميذه وغسل وجهه .

وبعد ايام وقع تلميذه على قدميه طالبا منه بالمودة والمحبة التي كانت له معه ، ليطلعه على السبب الذي حدا به الى اظهار ذلك التواضع ورذل الذات العجيب . فقال له وقد استحوذ عليه ملتمس المحبة : اعلم يابني ، انني كنت لمدة سبعة ايام في صراع شديد

ومرير لا يوصف ، مع الشياطين الذين كانوا يحاربونني بدهاء لايقاعي في الاستكبار الذي منه تتولد الكبرياء مهلكة الانسان . وبذلت كل الجهود لرد هجومهم . وفي تلك الايام تسلحوا واحاطوا بي وحاربوني بوقاحة وخباثة قاسية ، هؤلاء الملاعين المكارين . ولما تفاقم علي الوضع ، التجأت الى ذلك التواضع وذل الذات ، حتى اباذهم المسيح من امامي ، وانقذني من هجومهم بفضل حنانه .

في يوم من الايام مر بعض الاخوة بباب صومعته ، فسمعوه وكأنه يخاطب امرأة ويقول : آه منك ايتها التعيسة، الى متى أستعبد لك ، وانت تستعبدين لي ؟ أما كفاك حتى الان ! خافي من الله وحرريني من عبوديتك هذه التي لا منفعة فيها ؛ واقوال اخرى كثيرة مشابهة لها . فركض الاخوة نحو رئيس الدير والشيوخ واخبروهم بان لدى الشيخ امرأة في صومعته . ذهل رئيس الدير والشيوخ بهذا الخبر وتأسفوا على الرجل الفاضل الذي نال ثقة البلد كله ، ويزّل مثل هذه الزّلة النكراء . فقاموا وذهبوا الى صومعة الشيخ وطرقوا الباب ، ففتح لهم الشيخ ودخلوا ، وصلّوا حسب النظام المتبع . لكنهم ازاء شيخوخته الوقورة ، خجلوا من ان يقولوا له شيئا . فقال لهم : اعملوا ما من اجله اجتمعتم وأتيتم ! . حينئذ طأطأوا رؤوسهم وحدقوا بالارض ، واقروا بانهم اخطأوا فطلبوا المغفرة .

اما الشيخ فقال لرئيس الدير : لا يليق بمنزلتك وادارتك ان تشهر زلات المخطئين امام الجميع ! بل ان تكتمها وتتدبر الامر ، وتوبخ وتنصح للافادة وليس للاهلاك . واذا سقط احد في زلة ، لا سمح الله بذلك ، فلا يحق لك ان تشهره وتفضحه ، لئلا يكون هذا الفضح لهلاكه وهلاك اخرين ايضا بسببه ، بل ان تصلحه وتوبخه خفية وبلطف . والان دعنا من هذه الامور ، وهلموا بنا الى المطبخ ، فتعلمون لماذا فشل الاخوة الذين اخبروكم .

فلما دخل رئيس الدير والشيوخ الى مطبخه ، وجدوا عنده قدرا صغيرة فوق النار . فقال لهم : اعلموا ياابائي واخوتي ، ان بطني هذه الدبة المفترسة ، لا زالت منذ خمسين يوما تسألني وتطالبني بطبيخ تلتذ به . واليوم وبعدما ضقت ذرعا بها ، اعددت لها هذا الطبيخ حسب رغبتها ، وكلمتها ناصحا بتلك الكلمات التي سمعها اولئك الاخوة ، لعلي انجو من هذه العبودية التي شددتني الطبيعة بها الى هذه الدبة الحقيقية . والان وقد جمعنا المسيح كما اراد ، فلنتصرف بمحبة ونتنعم بما رزقتنا النعمة . فزاد في القدر ماء ، واضرم تحتها النار بشدة ، الى ان غلي الماء تماما واشتد فورانه . فوضع خبزا يابسا في صفحة وبذر عليه قليلا من الملح ، ثم اخذ القدر وحطَّ يده على فمها ليمنع مافيها

من النزول مع الماء ، فنزل ذلك الماء وهو يفور ، جاريا على يده بكل حرارته المحرقة . فنظر الشيوخ ولم يروا في القدر سوى عدة قطع من الحجارة لاغير . فقدم لهم واكلوا من طبيخ الحجارة ذاك المنتظر منذ ايام عديدة ، والذي بسببه حاكم بطنه محاكمة قاسية ، واعده لكي تلتذ به . فاندهش الشيوخ من تجلده وزهده وصبره وتقشفه ، وعلو مرتبته وسمو فضائله ، ومجدوا الله المعتني بذوي الألفة معه ، على القوة التي تعطى للقديسين ، وبها يرتفعون الى مافوق العالم ، فتهون الصعاب عليهم ، لابل وحتى النار الهائجة تهدأ معهم خلافا لطبيعتها ، ويقهرون بتجلدهم شؤون الطبيعة ويرتفعون الى مافوقها .

جعلنا ربنا والهنا أهلاً لهذه النعمة ، لكي نتمكن بها من ان نسلك في دار غربتنا هذه حسب مشيئة رحمته بفضل من حنانه ورحمته امين .

الربان ايشوع الملقب بالكوماتي

تكلمنا سابقا[١] عن أمين خزانة الروح القدس هذا ، ومحط النعمة ومسكن الثالوث الاقدس ، انه تتلمذ لهذا الثوب المقدس في دير القديس الربان هرمزد ، وتربى في مخافة الله على يد يوحنا (الخلفتي) . وبعد وفاة القديس الربان يوحنا ، انطلق الى جبل كومتا ، ونسبة اليه عُرف بالكوماتي .

ذكر الربان (يوسف) عنه ان صمته كان عميقا جدا داخل صومعته في الدير ، بحيث انه لم يكن يكلم احدا حتى ولا من الكوة . وبما ان الصمت العميق يعمل على تنقية النفس ورفعها الى موطن الصفاء الذي يقتضيه الصمت التام المنزه عن كل تعلق ، فقد ارتقى هذا القديس الى موطن الصفاء هذا .

واذ رأى ان المخالطة لا بد وان تعرقل الفكر بالنظر والسمع وضجيج الناس ، وان من ينزل الى الميدان ينبغي له التحرر من كل شيء ، فقد خرج بالسلاح الرسولي ونزل الى ميدان الجهاد ، فقاتل وغلب وانتصر وصعد مظفرا بالغلبة ، وتوج من قبل المسيح سيد الجهاد باكليل النصر الزاهي ، فصار ابن الملك وملكا مسلطا ، فدخل وخرج في مواطن المعرفة مثل سيد المعرفة . فتمرس في المعرفة الاولى للطبيعة وتنق ، وارتفع منها الى المعرفة الثانية للطبيعة ، وبها اقام في الصفاء ، ومنها صعد الى المعرفة الفائقة

١-صحيفة ٢٩ من هذا الكتاب .

الطبيعة ، فاضحى الذهن لديه المسيح الذي يقرب ذاته ذبيحة لله ابيه من اجل الكل ؛ وبها يصبح آلها ايضا بالله الذي هو منا . ومكث في ذلك الجبل زمانا طويلا .

في يوم من الايام داهمه لصوص ظانين انه يجمع لديه اموالا في ذلك المكان . واذ هموا بتعذيبه قال لهم : وما الداعي لذلك ! ان لي تلميذين ، وما املك موضوع لديهما . فامهلوني قليلا ريثما ادعوهما اليكم ، فيعطيانكم كل ما تريدون . ثم طلع خارج كوخه ، وصرخ باعلى صوته قائلا : هلم ياابناي الى هؤلاء الرجال لتعطيا لهم ما لي عندكما . واذا بنمرين يركضان نحوه ، فوضع يمينه على الواحد ويساره على الاخر ، ودخل عند اولئك اللصوص وقال لهم : كل ما املك هو بحوزة تلميذيّ هذين ، فمدوا ايديكم اليهما فيعطيانكم كل ما تريدون . اما النمران فكانا في غيظ وهيجان ، يتربصان الهجوم على اللصوص لافتراسهم . وكان القديس يكبح غيظهما لئلا يؤذياهم . فوقع الفزع والهلع على اللصوص الاشقياء ، وخرّوا قدام قدمي القديس يبكون ويرجونه ليمنع الحيوانين المفترسين عن ايذائهم . فقال لهم مازحا : اذا اطلقتهما ليذهبا ، فمّن تاخذون المال الذي تريدونه ؟ ثم اخلى سبيل النمرين وامرهما ليذهبا الى مكانهما . وطفق ينصح اولئك اللصوص باقوال كثيرة . فقدموا التوبة واعدين له بالقسم ان لا يتعاطوا اللصوصية طيلة حياتهم . ورحلوا من عنده وقد ابتزوا التوبة والتحرر من الشر الذي كانوا فيه .

وكان رئيس اللصوص رجلا بارزا في عشيرته ، فكان يأتي دائما الى القديس ويتبرك منه . ولما قدم القديس الى دير (الربان هرمزد) كان ياتيه سنويا حاملا معه هدية كبيرة للصومعة . ولم يكن يمنعه من الدخول اليه حتى ولو صادف مجيئه ايام صوم الرب .

وبعد اقامته في ذلك الجبل لمدة طويلة ، شاخ واحتاج الى من يقوم بخدمته ، فاقبل الى دير الربان افني مارن[1] ، وهناك ايضا عاش في صمت عميق رغم شيخوخته وعجزه . وكان الرهبان والعلمانيون يتقاطرون عليه من كل حدب وصوب . واجرى الرب على يده اعاجيب وقوات عديدة لم اقف عليها انا البائس لاكتب عنها . ولكن سأكتب ، للتبرك ، الشيئ القليل الذي سمعته من الربان ، لأزين حديثي التافه ، بالذكر السعيد الذي لهذا الاب الروحي والمحفوظ عند الله . حكى الربان انه بينما كان ذاهبا يوما ما مع اخوة اخرين الى القديس ، باغتهم لص كان كامنا في الطريق ، ينوي سلب امتعتهم والاساة اليهم . فضايقهم جدا . واذ هموا بتسليم امتعتهم ، دفعته النعمة

١-راجع صحيفة ٢٩ الحاشية ٢ من هذا الكتاب .

فجأة فابتعد عنهم دون ان يأخذ منهم شيئا . ولما دخلوا عند القديس وصلّوا كالمعتاد وقعدوا ، بادرهم القديس قائلا وهو يبتسم : في الوقت الذي هجم عليكم ذلك اللص ليسلب امتعتكم ، كنت قائما بينه وبينكم ، الى ان دفعته النعمة ، فابتعد عنكم . فتعجب الاخوة بهذا ومجدوا الله .

وروى لنا الربان ايضا انه بينما كان قدامه في يوم من الايام ، انخطف القديس بالروح . وبعدما استعاد وعيه قال لتلميذه : قم يابني باعداد ما يلزم ، لان الربان قوزما قادم الينا اليوم مع اخوة اخرين . وبعد ساعة دخل الربان قوزما والأخوة الذين كانوا معه . وبعدما صلينا وقعدنا ، قال لهم القديس مبتسما : لماذا تأخرتم بعد عبوركم الخابور ؟ لاني كنت معكم الى ان عبرتم النهر. قال الربان عنه : ان القديس لم يكن يستعمل الماء كثيرا .

ففي يوم من الايام ، بينما كان الربان جالسا قدامه وينظر الى يدي القديس ، قال الربان في نفسه : كيف لا يغسل القديس يديه عندما يتناول الاسرار ! فنظر القديس الى الربان حال قيام هذا الفكر في خياله وقال له : هل تعلم يابني ماذا اعمل لما اريد ان اتناول الاسرار؟ . لي اجانة فيها ماء ، فعندما اريد ان اخرج لتناول الاسرار المقدسة ، اضع يديّ على الماء وامسحها ، وبعد ذلك اتناول الاسرار المحيية .

حينما كان الربان (يوسف) مقيما في صومعته ، فكر في نسخ العهد الجديد . فاستعد للعمل وشرع يكتب العهد الجديد . ولما نسخ (انجيل) التلميذ متى وقسما من مرقس ، افتكر بانه ليس مصيبا في عمله ، لانه يكتب قبل استشارة احد . فجمع الكراسات ووضعها في زاوية مغارة كانت داخل صومعته ، وذهب الى الربان يشوع واطلعه على نيته ، وطلب منه ان يكتب حسب مشورته .

اما القديس فقال له كما اعتاد في مثل هذه الحال : سأسأل المسيح ، وما يأمر به اقوله لك – هكذا كان القديس متعودا على القول لمن يسأله عن شيء – وفي صباح اليوم التالي قال للربان : ان المسيح لا يريد ان تكتب حاليا . حزن الربان جدا من هذا الجواب . فقال له القديس : لا تحزن ، فاني اصلي عليك فتبطل رغبتك . وصلى عليه فعاد الى صومعته . وقال لي الربان : وحياتك يا ابني ، لم يدعني فكري ألمس تلك الكراسات بيدي ، ولا ان آخذها عن الارض واضعها في وعاء ما . ولم يتمكن الربان من الكتابة بتاتا الى حين ذهابه الى دير باصياري . وهناك امره الربان موسى فكتب على مشورته . اما كيف امره وباي شكل ، فسنذكر ذلك بعون الله ، عندما نصل بحديثنا الى اخبار القديس الربان موسى .

في يوم ما اقبل الربان ابن يلدا معلم الربان موسى الى الربان يشوع ، فلم يفتح له الباب ، ولااطلع اليه وخاطبه من الكوة . وبينما كان الربان ابن يلدا راجعا الى ديره ، صادفه رجل قروي على الطريق ، فدعاه الربان ابن يلدا وقال له : لعلك تقصد الى الربان يشوع ، فحين وصولك اليه سيفتح لك الباب . فقل له : ان ابن يلدا يقول لك : هل ان المسيح أمرك بان تفتح بابك للعلمانيين ولا تفتحه للرهبان؟

فلما وصل القروي الى القديس ، فتح له الباب كما قال الربان ابن يلدا . فقال العلماني للقديس ما قاله له الربان ابن يلدا . فاقبل اليه الربان ابن يلدا . وبعدما صليا وجلسا ، قال له الربان يشوع : لماذا غضبت عليّ حين لم افتح لك الباب ؟ ألعلك لم تقرأ في كتب اخبار محبي الله ، وفي التشبيه الذي فيها والقائل : خذ لك المثل من الملك الجالس على عرشه وعظماؤه حوله ، والملك يتحدث مع احد عظمائه . فاذا امال وجهه عن الملك ، ذاك الذي يتحدث الملك معه ، وتحدث مع احد زملائه ، فما هو العقاب الذي يستحقه ذلك العبد الذي ترك حديث الملك ، وتحدث مع رفيقه ؟ . كذلك كنت انا ساعة أتيتني ، قائما قدام المسيح ملك العالمين ، واتحدث معه بفضل نعمته ورحمته ، فلم اكن قادرا على التخلي عن المسيح ومناجاته ، ولا على النظر الى شيء من كل ما في العالم .

الى هذا السمو والكمال وثقة محبة البنين وصل هذا الطوباوي صاعدا مرتفعا ، بحيث كان يناجي المسيح ربنا بدون وسيط . وكان يقف قدامه دائما مهللا مرتلا . فالمجد والشكر والاجلال للمسيح الذي عظمه ونصره ، وعلينا رحمته وحنانه مدى الدهر امين .

الربان شوحا ليشوع

أيدني يارب بصلواته امين

كان بحر الحكمة هذا وينبوع المعرفة ، الذي أتمن من قبل الرب ليعطي للناس غذاء حياتهم في امور الله ، من دير القديس الربان هرمزد ، وتلميذ الربان يوحنا (الخلفتي) وأليفه . وبعد وفاة الربان يوحنا ، شاء المسيح بتحوله الى دير القديس الربان ايشوعياب[1] . لكي يسطع هناك نور قنديل سيرته الرفيعة . فتحول الى دير ايشوعياب هذا ، عملا بمشيئة ذاك الذي يعمل كل شيء حسب ارادته .

١-راجع صحيفة ٣٨ الحاشية ٣ .

ان امجاده وسمو سيرته تفوق مقدرة لساننا الهزيل . لقد كان هادي عصره كله ، بحيث لما كان الاخوة يقصدون الربان يشوع الكوماتي ، كان يقول لهم : اذهبوا يا أبنائي الى الربان شوحا ليشوع بحر الهداية المقيم في دير الربان ايشوعياب .

وكان الربان (يوسف) بعد وفاة الربان يشوع ، يتردد عليه دائمًا ويسير حسب مشورته .

حكى الربان انه بينما كان يوما ما بالقرب منه ، يدوّن بعض الاخبار التي كان يوعز اليه بكتابتها عن سيرة الصمت ، رأى ان الربان ماهر بالكتابة ، فاراد له الاتضاع لئلا يفتخر بسرعة يده في الخط وبجودته . فقال له القديس : اعلم يا ابني يوسف انني كتبت في ليلة واحدة على ضوء المصباح ، الانجيلي يوحنا كله :– اندهش الربان بهذا ، ولم يحر له جوابا .

ذكر لنا الربان اعجوبة رآها فيه ، وجرت له كما يلي :

في احد اسابيع الصيام ، ابّان اقامة الربان في صومعته ، مرض مرضا شديدا ، وظل اياما عديدة منطرحا على الارض ، دون ان يتمكن من الوقوف على رجليه . ولم يعلم به احد ، لانه لم يتعود على مجيئ الزوار ، وخاصة في اسابيع الصيام . ولما تفاقم عليه المرض ، وصار عاجزا تماما عن الوقوف على رجليه ، استغاث بالقديس قائلا في نفسه : آه يا ربان شوحاليشوع ! ألا ترى الضيق الذي انا فيه ؟ ألا تعودني بالصلاة ليخف عني قليلا هذا العذاب ؟ . واذا بالربان شوحاليشوع واقفا في باب الايوان . فدنا القديس من الربان وقال له : كم انك تجدف عليَّ يا بني ! مد يدك نحوي . فمد الربان يده نحوه ، فامسك هو بيد الربان واقامه على رجليه معافى تماما من مرضه .

وحين وقف الربان على رجليه اراد ان يعانق القديس . اما القديس فخرج من باب الايوان ولم ينتظر ريثما يكلمه الربان . فظن الربان ان حاجة ما دعته . وبعدما انتظر قليلا ولم يرجع ، خرج الى حوش صومعته ليرى ماذا جرى للقديس . فنظر هنا وهناك ولم ير احدا .

حينئذ نخس ملاك العناية الربان كعادته في مثل هذه الاحوال وقال له : لماذا تطلب من ليس معك في الصومعة ؟ . ان القديس بالروح وافاك وشفاك ثم عاد الى صومعته . حينذاك فهم الربان ما حدث .

وبعد انتهاء الاسبوع ذهب الربان بمعية اخوة آخرين الى القديس . وبعدما صلوا كالمعتاد وقعدوا ، قال القديس للربان : كيف حالك يا بني وما احواللك ؟ . قال له الربان : بصلواتك صحتي جيدة من فضل الله . فاني ساعة امسكت بيدي واقمتني على

رجليّ ، شفيت تماما من ذلك المرض الذي اصابني . واذ كان القديس عارفا بان الربان فهم جيدا ما صنعه له ، ربت على كتفه بمودة وقال له مبتسما : اسكت يا بني ، ولا تقل شيئا لم يحدث ! - اما الجالسون معهما ، فلم يفطنوا لمغزى قولهما المتبادل ، لانهما بالرموز تكلما كلاهما .

ليس هناك تدبير يعطى جزافا ، ولو ظن اولئك الذين ليسوا مطلعين عليه كفاية ، واستنادا على ظاهره ، انه اعطي جزافا . بل ان كل تدبير يحدث لعلة ما ، وكل شيءٌ للخير يعطى من قبل الله . ولهذا السبب لا يحق لنا النظر الى شيءٌ في ظاهر التدبير ، بل الى السر الخفي فيه عن الغرباء ، والجلي لاهل البيت . ومن لا يعرف ذلك حق المعرفة فليسكت عن مجادلة المدبر الذي يدبر كل شيءٌ بحكمة ، ويعمل كل شيءٌ لخير الجميع ، ولا يقل لماذا هذا الشيءُ كذا . بل يجب عليه ان يحمد ذاك الذي يصنع كل شيءٌ حسب ارادته بحكمة ، ويسأله ليعطينا حكمة الروح ، لنعرف ونفهم الاسرار الخفية في تدابيره المدهشة .

فهذا القديس الذي نتكلم عنه ، حظي هو ايضا بتدبير ، لا يفهم كل امرء قصد واهبه الحكيم منه . في حين ان المرء يكتسب معرفة واسعة عنه ، اذا ما علم القصد الذي ينطوي عليه كما قلت .

فقد أُحي الى هذا الطوباوي من قبل المسيح ، في سر روئ الروح ، انه لن يموت في دير الربان ايشوعياب ، بل انه يموت في دير الانبا يوسف الذي بجانب بلد[1] . وبعد هذا الايحاء قام القديس وذهب الى دير الانبا يوسف ، ودخل الى بيت الشهداء الذي في الدير . وقدم الصلاة لكي يأمره المسيح بما يشاء . والمسيح معتاد بحكمته لها السجود ، على ان يكشف لقديسيه الامور الكبيرة ويخفي عنهم احيانا الامور الصغيرة ، حفظا لهم من روح الكبرياء . فيكون هذا الاسلوب معهم بمثابة الشوكة البولسية[2] ، وليعرفوا ان غربتهم ما زالت بعد في عالم الاهواء ، وان كانوا بافكارهم مقيمين فوق وفي السماء ، فانه لم يجبه عما طلب . فعلم بالمعرفة الالهية التي كان حاصلا عليها ضعف طبيعتنا ، فاتضع قدام الله ، وصلى قائلا : نعم ايها المسيح ربنا والهنا ، انا عارف واقر

١- اسس الانبا يوسف الشهر زوري ديره هذا في القرن الثامن ، بالقرب من قرية . اوانا . الواقعة مقابل بلد (اسكي موصل الحالية) . ومازالت آثاره ماثلة للعيان . (كتاب الرؤساء ص ٢٠٣ حاشية ١ ؛ الديورة رقم ١١٠ ، معجم البلدان جـ٢ . ص٦٤١) .

٢- الثانية قورنثية ١٢ : ٧ .

باني لست أهلا لتكشف لي ارادتك بدون وسيط . ولكن يارب ها أنذا طالع خارج الدير ، فاول انسان اصادفه اطلب منك ان تضع على فمه ما تريده انت فيقوله لي .

ولما طلع خارج الدير ، التقى برجل تغلبي راكبا على جمل ومتجها نحو بلد . فقال له الطوباوي : قف يارجل ، لي شيئ اقوله لك ! . فقال له التغلبي : قل ما تشاء . فقال له : انني افكر في التحول الى هذا الدير ، فما رأيك في ذلك ؟ . فقال له الرجل : أ الى هذا الحد اختلط عقلك ايها الشيخ ؟ . اذهب الى ديرك ، ومتى ما شاء الله ان يأتي بك الى ههنا ، فبغير ارادتك يأتي بك متما يريد :– فعاد الطوباوي الى ديره وهو يلطم وجهه قائلا : الويل لك شوحاليشوع !تغلبي هداك .

بعد زمان ما اصيب القديس بهيجان شديد ، فخرج من صومعته غير راص بندبير الله ، كما تنبأ له التغلبي ، وكما تم بموجب معرفة مدبرنا الحكيم السابقة ، وذهب الى دير الانبا يوسف .

وفي مساء ذلك اليوم وصل الى الدير ، ونحو منتصف الليل ، انتقلت نفسه فجأة وبدون ألم ، الى ذاك الذي احبته اكثر من العالم كله وكل ما فيه . فاجتمع الرهبان صباح اليوم التالي لتكريم جسده المقدس كما يحق له . وحفروا له قبرا في باب الهيكل . فوجدوا في ذلك المكان جثة راهب محفوظة من الفساد ، وكذلك الكفن الذي لفت به ، ولم يطرأ عليها اي تغير ، كأنما ليومها وضعت في القبر . ولم يكن احدهم يعرف الزمن الذي مر عليها . وكان في الدير شيوخ مسنون ، وما كانوا يتذكرون ان احدا دفن هناك . فارادوا ان يحفروا له قبرا اخر .

وكان في الدير شيخ تقي ، فخرج من صومعته واقبل يصيح باعلى صوته قائلا : ياللكنز الثمين ! . ثم نزل الى القبر وقبّل الميت الذي فيه وقال للرهبان : اعيدوا حجارة الغطاء[1] الى مكانها ، وضعوا هذا القديس فوق الغطاء ، لان مشيئة المسيح هي ان يرقد هذان القديسان في قبر واحد .

ان التدبير الالهي يثير الاعجاب والتمجيد الدائم . فيا للدهشة ، انه يجمع امورا كثيرة الى واحد . فليختل الاذكياء والحاذقون في المعرفة ، الى انفسهم قليلا ، ويدركوا هذا التدبير بعقولهم اذا تمكنوا . وليطلبوا ايضا من الله ليعطيهم الحكمة لعلهم يفهمون بها

١–حجارة الغطاء مسطحة ومنتظمة ، كانت توضع فوق الجثة مباشرة دون ان تلامسها لأنها مستندة على اسس مبنية اومحفورة في الصخر ، وفوقها يأتي التراب بعمق متر تقريبا عن سطح الارض . وبهذه الطريقة كانت الجثة تصان من الفساد والانحلال السريع .

السر الخفي في ما جرى لهذا القديس . كنت اريد ان اذكر شيئا عن الاسرار العديدة المخفية في هذا (التدبير) . ولكن لا يحق لنا الخروج عن سبيل سيرنا في هذه القصة ، فيطول حديثنا بتفاسير الاعمال والاخبار التي تحدث للقديسين .

المجد اللامنقطع والخالد وفي كل آن لمدبرهم ومظفرهم والمعتني بشؤونهم حسب ارادة قصده . وعلى ضعف الكاتب الشقي وغربته ، وعلى اخوته رحمة المسيح ربنا ورفيف نعمه آمين .

الربان موسى من دير باصياري
عونك يارب بصلواته امين

اما الان وقد وصل حديثنا الضعيف الى قصة ناووس النعمة هذا ، وقيّم المسيح ، الملاك الانسان ، والسروف المجسم ، الربان موسى ، دهشة الملائكة والبشر ، فحرّي بنا التنويه اولا بان قصة طويلة كُتبت عنه في ثمانين فصلا تقريبا . وفيها يطلع المرء على سيرته العجيبة والفائقة الطبيعة ، وعلى القوات والآيات التي اجراها المسيح على يده .

وكما ان اللّقاط يجري خلف القطّاف ، كذلك نحن الضعفاء ايضا ، نلقط من القوات الكثيرة التي جرت على يديه ، القلة التي لم يدوّنها مؤلف قصته ، والتي سمعناها من الربان يوسف ، ونظمّها الى هذه القصة لفائدة الذين يطالعونها .

وهذا ليس امرا جديدا . ان يكتب المرء عن الرجال القديسين ما اغفله مؤرخو قصصهم الاولون . ومن اراد الوقوف على صحة ما نقول ، فله عدة شواهد في ذلك ، منها اولا الانجيل الشريف . فان الانجيليين الثلاثة الاولين ، بعدما كتبوا عن حياة ربنا على الارض ، كتب اخيرا يوحنا الانجيلي ما تغاضى عنه اولئك ولم يدوّنوه لسبب ما وكما حسن للمسيح ربهم ورب الكل .

وقس على هذا المنوال في التواريخ الكنسية التي ألفها رجال ملافنة وعلماء ، اولئك الذين اهتم كل واحد منهم بماسها زميله عن كتابته وروايته ، ولكي لا يطول الكلام ، فالشواهد كثرة ، لمن يريد معرفة ذلك ، وخصوصا من كتاب «فردوس الشرقيين» الذي وضعه الربان يوسف رائي الخفايا[1] (حزايا) . لان المرء لا يمكنه ان يدّون في كتاب واحد ، كل ما اجترحه المسيح على يد كل قديس من القديسين ، ضمن قصة حياة كل واحد منهم .

١ــراجع ترجمة حياته في كتاب : ادب اللغة الارامية ص ٣٢٢-٣٢٨ .

فمن هذا المنطلق ايضا ، انشجع انا الشقي وحقير الكل ، فاكتب في هذه القصة ، عن مآثر هذا الاب الروحي ، للتبرك لا غير ، الشيء القليل الذي لم يذكره مؤلف قصته ، وذلك لا انتقادا لعمله ، كلا ! بل كاللاقط خلف القطاف ، ألقط وراءه كما قلت اعلاه .

ان اصل الربان موسى ، كما تخبرنا قصته ايضا ، هو من قرية جولميرد الكائنة في منطقة زوزان . واقتبل ثوب الرهبنة المقدس في دير القديس الربان مار بختيازد [١] الواقع في تلك المنطقة – ولما تحول الربان بن يلدا الى ذلك الدير لسبب تذكره القصة ، تتلمذ له الربان موسى ، وتآلف معه بمودة عميقة . وحين عاد (ابن يلدا) الى ديره ، رافقه ايضا الربان موسى الى دير مار ابراهيم الناسك الذي يسمى عرضا «باصياري» .

فارتقى صعدا من درجة الى درجة ، ومن مرتبة الى مرتبة ، من رؤيا تأملية الى اخرى ، الى ان بلغ الكمال في مرتبة الحياة الروحية .

فقد كان ذا تواضع عميق وفائق الطبيعة . وفيه تم حقيقة ما قيل عن سميّه : «وكان موسى رجلا حليا اكثر جميع الناس الذين على وجه الارض [٢]» . وانا الشقي اقول بدوري واثقا وبلا وجل ان موسى هذا كان متواضعا اكثر جميع الناس الذين على وجه الأرض ، مثل موسى الاول . بحيث انه حينما كان يُلام احيانا من قبل رجال اتقياء وشيوخ قديسين ذوي همم ، فيقولون له مضطرمين بغيرة الهية : لماذا لا توبخ الذين يستحقون التوبيخ ؟ . كان يجيبهم بوداعة وسكينة : لان اخطائي لا تسمح لي برؤية اخطاء الاخرين – معاذ الله ! انني لا اجد نقيصة في اخر غيري ، لانني خلال خمس عشرة سنة بذلت جهودا مضنية ، وطلبت من المسيح ليعطيني ان أرى خطاياي وليس خطايا الاخرين ، وان يلبسني حلته المتواضعة الوديعة لكي اعامل بها كل انسان واحتمل الجميع .

لقد كان حقا يفوق الجميع في هذه الفضيلة ، وفي الرأفة التي كان متحليا بها ، وفي المحبة الصادقة التي كانت كاملة فيه .

وقد سألت الربان (يوسف) مرة ملتمسا منه ليقول لي الى اية مرتبة بلغ القديس الربان موسى . فقال لي الربان : اعلم يا بني ان الربان موسى قد بلغ الى مرتبة الربان مار يوحنا الديلمي [٣] .

١– لم تتوفر لدينا معلومات عن هذا الدير في المصادر الرهبانية التي راجعناها .

٢ – سفر العدد ١٢ :٣ .

٣ – انظر صحيفة ٤٩ الحاشية ٣ .

ان دير باصياري ازدهر بالربان موسى وعلى عهده ، واكتظ باخوة كثيرين . اذ لم يكن في الدير على عهد الربان بن يلدا سوى ستين اخا لاغير . بينما ارتفع عدد الرهبان في ايام الربان موسى الى ثلاثمئة اخ ، شيوخ افاضل وكاملين ، واخوة متزهدين وصومعيين سكان الصمت . فقد فاق عدد الحبساء فيه عدد جميع الرهبان الذين كانوا في زمانه ، واضحى ذلك الدير حقا اورشليم العليا . وكان جميع الذين ينشدون الفضائل ، يتهافتون اليه من كل مكان . وشيد الربان موسى بهمته وعلى نفقاته الخاصة جميع صوامع الدير ، عدا تلك الاولى التي كانت مشيدة في رئاسة الربان بن يلدا . وكان يبني صوامع للمبتدئين قبل خروجهم من الحياة المشتركة .

حكى لنا الربان انه كان يوما ما عند الربان موسى فقال له : قم اصعد الى العلية الكائنة فوق المدخل ، وانزل - اذ كان له علية صغيرة فوق مدخل صومعته ، ولم يكن بامكان الصاعد اليها الاستدارة فيها - فلما صعد الربان الى العلية ، وجد على ارضيتها قرابة مكيالين من الحنطة ومثلها حمص وعدس - فعاد اليه بعد نزوله من العلية ، ولم يقل للربان (موسى) شيئا ، ولا الربان سأله لماذا قال له ذلك ، لانه ادرك بمعرفته الثاقبة ان في الامر سراً ما ، اذ انه كان قد عوده على ان لا يخفي عنه شيئا من الاسرار التي كان المسيح ربنا يكشفها له . وقال الربان : أقيمت في تلك السنة ما يقارب عشرين صومعة من محتويات العلية ، عدا ما كان يوزعه منها بسخاء على كل سائل ، حنطة كانت او شيئا اخر للطبخ ، دون ان ينفد او ينقص ما فيها . بل كان يزداد باطراد . ومن شاهد صوامع ذلك الدير وكبرها وسعتها ، يعرف قليلا من كثير عن عدد اقفزة الحنطة التي استهلكت اثناء بناء كل واحدة منها . فان الامر الذي كثر بقدرته ، تلك ارغفة الخبز الخمسة ، على ايدي تلاميذه ، وشبع منها خمسة الاف من الرجال والنساء والاطفال[1] ، هو برمزه القدير صنع ذلك على يد قيّمه الربان موسى هذا - كما كان يسميه الربان ، اعني قيّم المسيح - وكان يردد دائما : بالحقيقة لقد جعل المسيح ربنا ، الربان موسى قيّما لاهل بيته على كنزه الزاخر بمواهبه ، ليوزع منه بكامل السلطة وكما يشاء ، على البشر المفتقرين الى كل شيء .

وروى لنا الربان ايضا انه عندما كان الاخ المكلف بالخدمة في غرفة مائدة الاخوة ، يجلب الآنية التي يأخذ بها الدهن لاستهلاك المائدة ، كان يلاحظ احيانا ان القديس يأخذ الآنية دون ان يضع فيها شيئا البتة ، ويدخل بها الى الكوخ الداخلي (في صومعته)

١- يوحنا ٦ : ٥-١٣ .

ثم يخرجها وهي ممتلئة بالدهن . وقال ما هو اكثر مدعاة للاندهاش : ان (القديس) كان يقيد بقدرة صلاته ، عقل خادمه المطلع على كل ما يجري في صومعته ، لئلا يفهم ماذا يعمل ، او يستفسر قائلا : من اين ياتيه كل هذا الدهن الذي يخرجه ، وليس لديه كمية كبيرة من الدهن في كوخه :—

حينما تحول الربان (يوسف) الى دير باصياري ، لم يكن قادرا على القراءة في الكتاب ، لكونه مقيما في مرتبة النفس ، فكان كل جهده وعمله نشاطا فكريا . فطلب منه الربان موسى ليقرأ على الاخوة لدى اجتماعهم في الصومعة ، ليلتذوا بقرأته . فلما اجابه بانه غير قادر على القيام بذلك للسبب الذي ليس خفيا عنه ، قال له القديس : سأطلب من المسيح ، فتعطى لك هذه الامكانية ، لتقرأ امام الاخوة المجتمعين ليستفيدوا — ثم رسمه بالصليب وأمره ليقرأ . ومنذ ذلك اليوم ، كانت النعمة تحل الربان ليقرأ على الأخوة حين اجتماعهم في الصومعة . في يوم ما بينما كان الاخوة جميعا حاضرين في الهيكل لصلاة الباعوثا .[1] والربان موسى معهم ، جلس الربان (يوسف) ليقرأ قراءات الباعوثا ، وكان الربان موسى قد تعود على ان لا يجلس والربان يقرأ . وكان الربان يستعجل بالقراءة كحصان سريع . ثم سكت فجأة وعجز عن قرأة كلمة واحدة . فنظر الى القديس ليوميء له عن علة ذلك ، اما هو فلم يلتفت اليه . وبعد ساعة التفت اليه الربان موسى وقال له كمن لا يعلم ماذا جرى : لماذا سكتت ولا تواصل قرأتك ؟ . وللحال انحلت عقدة فمه وطفق يقرأ كالسابق . وحين نهض عن الكرسي دنا من القديس وقال له : لماذا ياربان اصابني ذلك ؟ . فقال له الربان موسى مبتسما : لكي تعرف ان مقدرتك ليست منك ، بل انها هبة من النعمة المعطاة لك باحسان ! . وقال له ايضا : كنت أرى الجمل تخرج من فمك وتتطاير كأنها جمرات نار مرتفعة الى فوق ! . ثم باركه وصافحه . فحمد الربان نعمة المسيح التي اغنته .

ذكرت سابقا في قصة الربان يشوع (الكوماتي) كيف ان الربان يشوع منع الربان (يوسف) عن القيام بالكتابة ، حتى انه لم يتمكن من ان يمسك بيديه الكراريس التي شرع بها . وفي احد الأيام قال القديس الربان موسى للربان : انني ارغب يااخي ان

---

١ — الباعوثا تعني الطلب والتضرع ، تمثلا باهل نينوى الذين تابوا الى الله استجابة لدعوة يونان النبي (سفر يونان النبي) . وبناء على ذلك درجت العادة في كنيسة المشرق منذ القرن السادس الميلادي ، على اقامة الصلوات والتزام الصوم لمدة ثلاثة ايام متتالية بعد سابوع الدنح . (راجع كتاب الصلوات — حوذرا — ٣ ، المجدل لعمرو بن متي ٤٣—٤٤ ، ادب اللغة الارامية ص ١٧٤) .

تكتب لنا نسخا قليلة تبقى لنا في الصومعة . فقال له الربان : انني في هذه المسألة تحت امر الربان يشوع ، ولا يمكنني كتابة اي شيء مطلقا . فقال له الربان موسى : ان امر الربان يشوع وامرنا ايضا ، كلاهما امران من المسيح على حد سواء ، لكني اصلي الى المسيح ليحل عنك الرباط الذي منعك عن الكتابة . حينئذ رسم يمينه بالصليب وصلى عليه وامره ليكتب . فخضع الربان لامره . ولما بدأ بكتب في اليوم الاول وكتب ما يقارب نصف عمود من الورقة ، رُفعت القصبة من يده وألقيت على بعد قليل . فقام الربان وصلى ورسم الصليب واخذ القصبة من حيث كانت ملقاة ، وحاول الكتابة لكن القصبة سحبت من يمينه ثانية . فقام مرة اخرى واخذها ، فجرى له ما حدث مرة ثالثة . فنهض وأتى الى القديس واطلعه على ما جرى له . فقال له الربان موسى مبتسما بوجهه كعادته : لقد جرى لك ذلك لانك تجاوزت امر القديس الربان يشوع ، ولتعرف مقدرتك ايضا . لكن امضى الان واكتب ، ولن يحدث لك بعد ما حدث . حينذاك فهم الربان فحوى كلام القديس . فانه اراد ان يعرف كم ان امر الربان يشوع ملزم ، وخصوصا كم ان امره هو ملزم ايضا بحيث ألغى الامر الاول . ومنذ ذلك اليوم ، شرع الربان بالكتابة ، وقد نسخ كتبا عديدة .

روى الربان انه في يوم ما قدم الى القديس الربان موسى رجل معجب بنفسه . وكان وجيه الهرزديين[1] مشهورا في ذلك البلد . فقال للقديس : اريد ان اجادلك ايها الشيخ ! فاجابه الربان موسى : انني جاهل شبيه بالبهيمة ، ولا اعرف المجادلة في شيء ! . وللحال ضرب الملاك ذلك الرجل ، فمال وجهه الى الوراء . وبطلت حواسه وقواه كلها ، وصار كخشبة يابسة لاحس فيها البتة . فاشفق الربان على التعيس . وطلب من القديس بشأنه . فنظر الربان موسى الى البائس ورسم ازاءه علامة الصليب المحيي ، فعاد وجهه واستقام كالسابق ، وانحلت حواسه وقواه عن الوثاق الذي ربطتها به العدالة (الالهية) . فشرع يتكلم ويعترف بالقديس ، ممجدا ومسبحا الله الذي يعظم وينصر قديسيه .

في يوم من الأيام ذهب الربان عند القديس ، وحكى له خبرا دون ان يعلم احد بما حكى . وبعد ثلاثة ايام ، اجتمع لدى القديس الربان والشخص الذي عنه حكى الربان الخبر . فاراد الربان موسى ان يحيط الربان علما بانه كان غير محق بشكه فيه وطلب منه ان يحفظ السر وان لا يكشفه لاحد ، وانه قادر حتى اذا ما كشفه ، على ان يجعل

١- راجع صحيفة ٦٤ ، الحاشية ١ .

السامع لا يفهم ماذا يقول ، وبخجة اولى اذا ما سكت . فبينما كان الثلاثة ، الربان (يوسف) والراهب الذي بصدده تكلم الربان ، جالسين يتحدثون ، بدأ ذلك الراهب يتحدث ، وعلى حين غرة رفع الربان موسى نظره نحو الربان ، وقال له بصوت اعلى قليلا من المعتاد : ما هو الخبر الذي حكيته لي ياربان يوسف ؟ اليس كيت وكيت ؟ . واخذ يسرد كل ما حكى له الربان . فصُدع الربان مندهشا ، ونظر الى ذلك الراهب فرآه وكأنه خشبة يابسة لا حس فيها ، بحيث لا يفهم ولا يسمع ما كان يقوله القديس ، ولا يعي على نفسه او يحس بشيء .

حينئذ فطن الربان لفكر القديس وقال له : كفى سيدي كفى ! لن اشك بعد . لكني متيقن . ثم نظر الربان موسى الى ذلك الراهب . ورسم الصليب ازاءه ، فاستعاد شعوره ووعيه ، ولم يشعر قط بما جرى ، ولا علم ان حديثه تقطع ، الا في الجزء الثاني من الكلمة التي كانت على فمه ، فكملها في حديثه . من ذا الذي لا يندهش ويتعجب من هذا القديس الذي يجعل الناطقين كطبيعة جامدة ، والسامعين والعارفين ، كأنهم لا يسمعون ولا يعرفون ! .

اخوتي الاعزاء ، ارجوكم بمحبة ان لا تتسرعوا اثر السماع الخارجي لهذه الاعجوبة ، بل امعنوا النظر فيها جيدا . فانها اعجوبة تفوق الطبيعة ، وكلها عجب ودهش .

اصيب الربان يوسف بمرض فشفاه الربان موسى

مكث الربان في صومعته خلال فترة البشارة[1] كعادته . واصيب بمرض ثقيل . وظل قرابة خمسة عشر يوما شبه مقعد لا يطيق الوقوف على رجليه . وفي يوم ما خاطب نفسه كما تعود قائلا بصوت مسموع : أما كان يجب ياربان موسى ان تعودني في هذا المرض والضيق الذي اصابني ؟ . قال هذا واذا بالربان موسى واقفا في باب الايوان حيث كان الربان ممددا . فدخل والباب موصد بالمزلاج . فقال الربان موسى : لنصلِّ . السلام معنا . فاردف عليه الربان : كيف تريدني وانا منطرح تحت وطأة المرض وعذاب الشلل ولم تتفقدني ، ان اقوم للصلاة ؟ . فقال له الربان موسى : قم الآن وصلِّ اولا ، وبعد ذلك عاتب ولُم . وعلى كلمة القديس وثب الربان واقفا على رجليه

---

١ ـ فترة البشارة ، او سابوع البشارة ، هي الاسابيع الاربعة السابقة لعيد الميلاد حسب طقس صلوات كنيسة المشرق .

مشافى تماما ، فصليا سوية وتصافحا . ولما جلسا قال الربان موسى : هل لديك شئ ، هاته لنتهنأ ! . فقدم الربان شيئا من الفاكهة وقال له : هذه الفاكهة جلبتها لي والدة شحلف . فقال الربان موسى : اذن ليت شحلف تهنأ معنا ايضا .

ان شحلف هذا كان مبتدئا ينتابه روح خبيث يعذبه جدا . ورغم التجائه الكثير الى الربان (يوسف) لم يشف منه . لان ساعته لم تكن قد حانت بعد ؛ وما ان انهى القديس كلامه الا واذا بشحلف يطرق الباب – وذكر الربان عن القديس ايضا انه حالما يريد حضور شخص ما ، وان كان بعيدا ، كان يحضر لديه دون تأخر – ففتح الربان الباب لشحلف وادخله . وبعدما اكلوا ، أخذ الربان موسى كأسا من الخمر ورسم عليها ، والربان كذلك ، العلامة المحيية (الصليب) وقدمها للمبتدئ شحلف . وبعدما شرب الخمر التي في الكأس . قال له الربان موسى مبتسما : شحلف اذا لا يخرج الروح الذي فيك بهذه الكأس ، فلن يخرج بشيئ اخر ! . ومن تلك الساعة شفي ذلك المبتدئ تماما .

(قصة كيميل)

كان في قرية تدعى كفرقورا الكائنة في رستاق عين ببل[1] ، رجل من القوم المدعوين داسنيين اسمه كيميل ، سمعت قصة تروى عنه ، فاردت انا الشقي ان اسمعها من الرجل نفسه ، لانه كان بعد على قيد الحياة . وفي يوم ما اقبل الينا ليتبرك من الربان كعادته . فطلبت منه ليحكي لي قصته مع الربان موسى . فشرع يقص علي قائلا :

انني كنت رجلا قاتلا وسفاك دماء بلا رحمة . لانه كان يزاول اللصوصية وقد قتل اناسا عديدين . وكان له شقيق قتل في قرية ماريوس الواقعة في بلد زوزان ؛ وجاء في يوم من الايام الى رحى الدير المبنية على نهر صبنا[2] . فرأى فيها الراهب كوما الذي ذكرناه سابقا . وبما ان كوما كان من قرية ماريوس التي فيها قتل شقيق كيميل المذكور ، هجم عليه وبيده سكين حادة وطرحه ارضا تحت قدميه وذبحه . وكان هذا الرجل يقسم اليمين قائلا انه احس بكل ما جرى حتى وصلت السكين الى عظام عنقه ، وبعد ذلك لم يعرف ماذا حدث له ، لان ملاك الله دفع القاتل والقاه بعيدا عن

١–تقع هذه المنطقة الى شمال شرقي العمادية . ولعل كفرقورا هي «قارو» الحالية ؟!

٢–نهر صبنا يقصد به الكاتب المياه الجارية في وادي منطقة سرسنك غربا والمنحدرة اليه من سرسنك واينشكي وارادن وغيرها .(عن رحى الدير راجع المقدمة) .

الراهب المظلوم ، واقام القتيل معافى من كل اذية . اما الشقي فقد ظل في مكانه شبه قتيل لا حراك فيه مدة اربع وعشرين ساعة . ثم استفاق من سبات ضربته تلك ، ونهض وهو لا يعلم ماذا جرى له . لكنه عرف تمام المعرفة انه قتل كوما فعلا . وبعد ذلك لم يعرف ماذا حدث له . وعقب ايام من عودته الى قريته اصيب بشلل عام ، وظل يتقلب على فراش الالم سنة كاملة . فاضطرته والدته لحمله الى القديس الربان موسى . لكنه لسوء خلقه لم يرض بهذا الاجراء ، فوضعته والدته عنوة على حمار واتت به الى القديس .

فلما رآه القديس قال له : كيميل لماذا عملت بكوما تلك الفعلة ؟ . واستدعى الربان موسى كوما ، فلما اتى ورآه كيميل تعجب واندهش من ان الرجل القتيل قد عاد الى الحياة . فقال له الربان موسى : قبّل رجلي كوما يا كيميل كي تشفى . فعمل كيميل بأمره . وذهب كوما الى صومعته . وأعد الربان موسى مائدة وجلس ودعا الرجل قائلا له : هلّم كل يا كيميل . وما ان تلفظ بهذا القول حتى وثب كيميل وقام معافى كمن لم يصب بمرض قط . وجلس الى المائدة وأكل . ثم اخلى القديس سبيله لينطلق الى بيته بعدما اسدى له النصح الكثير .

فخرج من عنده وقد نال الشفاء المزدوج اعني بالجسد والنفس . واركب والدته على الحمار الذي قدم عليه . وسار هو مشيا على القدمين . وذهب الى قريته مسبحا وممجدا الله على شفائه . ومنذ ذلك اليوم اضحى انسانا آخر . وكان ياتي دائما الى الدير ويتبرك من الرهبان . ان هذه الاخبار كلها سمعتها من فم هذا الكردي .

سارق الصوامع

كان في الدير راهب منغمس في الرذيلة والعقوق . وكان يدخل الى صوامع الاخوة ويسرق كل ما يجده . وكان الربان موسى على علم بذلك . لكنه كان يسكت عنه ويطيل الصبر عليه ، لعله يرعوي عن غيّه ويتوب عن شره . لكنه بتطاوله على أناة الله ، كان يزداد تمرغا في اثمه .

وفي يوم ما اتى الربان (يوسف) الى الربان موسى ، والتقى بهذا الرجل البليد طالعا من مدخل صومعة القديس ، وعلامات الاضطراب والجنون بادية على وجهه — فدخل الربان ورأى القديس يتقد غيرة الهية ، وهو يزمجر قائلا : حتى متى اصبر واحتمل :— فوقع الربان على قدمي القديس طالبا منه ليرأف بهذا التعيس ، ويهدئ عنه غضبه لئلا يهلك . فقال له الربان موسى : لا تجهد نفسك ، فقد انطلق السهم من القوس ، ولا يمكن ان يعود .

وبعد يومين ذهب هذا الشقي الى قرية موردني ونزع ثوبه المقدس . وعقب يومين خرج للصيد بصحبة رجال على شاكلته ، وكان بيده نبل ذو رأسين ، اطلقه بعيدا فانتصب في الارض ، فركض تعيس الحظ مسرعا وانكب على النبل المنتصب فنفذ في قلبه وطلع من ظهره . وبهذا العقاب الصارم مات هذا الرجل ونال جزأه .

يلطم رجلا على فمه

حكى لنا الربان انه في يوم من الايام كان الربان موسى واقفا مع الربان (يوسف) ورهبان آخرين على باب صومعة القديس . فقال الربان موسى للربان : اسرع بالنزول على درجات ممر الصومعة ، فتلتقي برجل شماس يريد القدوم الينا ، ألطمه على فمه وعد الي . فركض الربان حسب امر القديس ، واذا برجل شماس يحث الخطى صاعدا الدرج ، فلما وصل اليه ضربه الربان على فمه كما امره القديس . اما الرجل فعاد ادراجه حالا دون ان يقول شيئا للربان . فاستغرب الربان امر الرجل الذي قبل منه الضربة ولم يتكلم . ثم عاد الى القديس حزينا . لانه ضرب الانسان صورة الله – فالتمس الربان من القديس ليطلعه على قضية هذا الرجل – فاجابه الربان موسى : لا تحزن ، فانك لم تلطم صورة الانسان المكرمة ، بل المجد الباطل البغيض الذي كان قد حط على فم ذلك الشماس ، وكان يحثه على السير ليأتي ويمدحني قدام الاخوة المجتمعين . فارسلتك لتضرب الشيطان الذي كان على فمه . فانت لطمت ذلك الشيطان وليس صورة الله ، ذلك الانسان الممسوس ! ولهذا السبب ايضا لم يقل لك شيئا ذلك الانسان ، لكنه بعدما تحرر من الشيطان قفل راجعا في طريقه .

انظر الى هذه الاعجوبة

وروى لنا الربان ايضا انه في يوم ما أتى كعادته عند القديس الربان موسى ، فلم يدعه يمضي ليستأنس معه . فاخذ كوزا موضوعا على فوهته في جهة من حوش صومعته ، ونفخ فيه لئلا يكون تراب في داخله ، ووضعه على اسفله في نفس المكان ، والربان ينظر اليه ، ثم دخل الى كوخه الداخلي وصلى ، ثم خرج واخذ ذلك الكوز فاذا به ممتلئا خمرا . فوضعه قدام الربان ، ونظر الربان الى الكوز الممتلئ بالخمر فاندهش ومجد الله .

وبعدما اكلا وشربا من تلك الخمر العجائبية ، قال الربان : انني لم اذق قط مثل تلك الخمر ، وليس بامكاني ان اصف لكم جودتها ونكهتها ، لانها كانت بالحقيقة

خمرا سماوية وروحية ، ومن النوع الذي عُصر بالحربة التي طعنت جنب المخلص[١] .

وحكى لنا الربان نفسه هذه الاعجوبة ايضا : في يوم من الايام ، بينما كان الربان عند القديس ، طرق الباب طارق . فقال الربان موسى للربان (يوسف) : انظر من الطارق على الباب . فعلم الربان ان في الامر سرا ، لأن القديس لم يكن معتادا على ما فعل الآن . فخرج الربان الى الباب ، واذا بامرأة من قرية كفر سمخا الكائنة في بلد عين ببل[٢] واقفة على الباب حزينة كئيبة . فمدت نحوه قماطا ملفوفا على قطعة من لحم ، لا اثر فيها لاعضاء ولا نسمة حياة ، وقالت للربان : انني ولدت هذا اللحم الميت كما تراه ، فاتيت به الى القديس ، مؤمنة بانه قادر على ان يعين كآبة نفسي التعيسة !- وكان الربان عارفا بالقدرة الالهية المرافقة لصلاة القديس ، وعلم انه لم يقل له جزافا : انظر من الطارق على الباب ! بل لان اعجوبة عظيمة سيجريها المسيح على يده . فآمن ولم يشك بان طلبة المرأة ستستجاب من قبل الله . فلم يصعب عليه الامر ، لكنه اخذ ذلك اللحم الميت وادخله عند القديس ، وقص عليه ما سمعه من تلك المرأة . فأمر القديس الربان بان يرسم عليه الصليب ، وبعدما رسمه الربان ، بسط القديس يده ايضا ورسمه . وللحال تعضى ذلك اللحم الجامد بجميع اعضاء الجسم الكاملة ، ونفخت فيه النفس فصار انسانا كاملا ، وأخذ الطفل يبكي بمقتضى الطبيعة ، فخرج الربان والطفل بين يديه واعطاه لوالدته وهو يبكي باعلى صوته . فسُرت والدته ايما سرور ومجدت الله الذي وهبها ابنا خلقه من جديد !-

ولي الآن ان اقول وكلي يقين لا يشوبه ادنى شك ، بان هذا الرجل العجيب ، قد تحقق فيه فعلا وظهر علنا وعد الرب الذي لا يُكذّب ، المقطوع لعاملي ارادته والقائل : «ان من يؤمن بي يعمل هو ايضا الاعمال التي اعملها ، بل ويعمل اعظم منها[٣]» ؛ وذلك بقوة الوهية ابيهم الخفية فيهم والعاملة حسب مشيئته المجيدة .

وكما ان الرب في رسالته على الارض حوّل الماء خمرا[٤] ، مادة الى مادة اخرى ، واعاد نفس الانسان الى جسده الذي انتقلت منه بالموت[٥] ، وجعل الميت حيا ، كذلك الآن بتدبيره الذي وهبه لهذا الانسان العجيب ، عمل على يده من لا شيء

١- يوحنا ١٩ :٣٣ .

٢-ورد التعريف بهذه المنطقة صحيفة ١١٠ ، الحاشية ١ ، وتدعى حاليا عين بلبل .

٣- يوحنا ١٤ :١٢ .

٤ - يوحنا ٢ :١-١١ .

٥ - متي ٩ ؛ لوقا ٧ ؛ يوحنا ١١ .

شيئا ، اعني من لا شيء خمرا فاخرة ، ومن لا انسان انسانا ناطقا ، خليقة جديدة ، باعجوبة تفوق اللسان وتعجزه ، كما جرى في البداية بخلقة آدم[١] .

فالقوة الالهية واحدة وهي التي ابدعت الانسان الاول ، ونفخت فيه الروح وجعلته ناطقا ، وهي التي تخلق وتعضّي وتصور من نطفة صغيرة في رحم مظلم جسدا كاملا ، وتنفخ فيه نسمة الحياة ، فيصبح انسانا كاملا حيا . وهي التي خلقت الان وكونت من لحم ميت ، انسانا كاملا بصلوات هذا الانسان المتأله العامل بارادة سيده .

اللهم السجود لقدرتك والشكر لمحبتك يامحب البشر ، على عظم محبتك وجودتك التي كشفتها واظهرتها بواسطة حبيبك (يسوع) للخليقة التي ابدعتها بفضل منك .

اما انا البائس ، فلما سمعت الربان يتحدث عن هذه الاعجوبة الباهرة الخارقة الطبيعة التي تمت بواسطة (الربان موسى) ، سألته لماذا لم يخبر بها فكانت تدّون في قصة القديس ؟ فقال لي الربان : لانها اعجوبة عظيمة وقد لا يصدقها الشكاكون . فلم ارد الكشف عنها ، لان اعجوبة كهذه لا يقبلها الا المؤمنون الصادقون .

وانا اضيف قائلا ، وما اقوله صحيح ولا شك فيه ، بان هذه المعجزة ظلت خفية بارادة الله الذي علم بسابق معرفته المطلقة ، ما سُطر الان في هذا التاريخ فحفظه له . كما شاء وحافظ على قصة لعازر[٢] ، فلم يكتبها الانجيليون الثلاثة الاولون ، لان حكمة المدبر سبقت وعرفت ان الطوباوي يوحنا الانجيلي سيكتب تاريخا آخر ، وفيه شاء ان تدّون قيامة لعازر المدهشة . فربما بل وبدون ربما ، هذا هو السبب الذي جعل هذه الاعجوبة تُحفظ الى الان ، لكي تدّون في هذه القصة ، كما شاء المدبر الكلي الحكمة السابقة بمعرفته المطلقة الشاملة الكل قبل خلق الكل .

حادث دواب الدير

في يوم من الايام ، بينما كان الاخوة ملتفين حول القديس ، دخل احد الاخوة واخبره بان بغال الدير استولى عليها لصوص في الطريق – اذ كان للدير احد عشر بغلا ، وكانت محملة في طريقها الى الموصل – فلما سمع الربان موسى هذا الخبر اغتم واطرق

١- سفر التكوين ٢ : ٧ .
٢ – يوحنا ١١ .

بنظره الى الارض وظل صامتا فترة قصيرة ، ثم رفع نظره وقال للحاضرين : لا تغتموا لما جرى لانه لخيرنا ، فها ان الله يعوض لنا زيادة عما اخذ منا .

ولما دخل الموصل الراهب الذي كان يسوق الدواب ، واخبر المؤمنين بان بغال الدير قد سلبت ، اعطوه زيادة عنها ، كما قال القديس ، اثني عشر بغلا . اما الربان (يوسف) فلما انفرد بالربان موسى قال له : سيدي كيف لم تر البغال حين سلبها اللصوص ؟- فقال للربان : لان المسيح اخفاها عن عين فكري ساعة اخذت ، وحين اخبرني ذلك الاخ بشأنها ، اندهشت بالامر ولم اعرف لماذا اخفاها المسيح عني . ثم كشف لي المسيح بالسر ان ما جرى كان لخيرنا ، لان الاخوة في الاديرة الاخرى يلقون خسرانا كبيرا بحسدهم ضد ديرنا هذا ، فسمح المسيح بهذا الذي حدث ، عبرة لاولئك الذين يخسرون عبثا ، لعلهم يخففون من حدة غيرتهم الباطلة والعديمة الجدوى ، وليعوض لنا بنعمته عن الشيئ الذي سلب منا .

(بناء رحى الدير)

بينما كان الاخوة يشتغلون في بناء الرحى التي على (نهر) صبنا ، وفي يوم ما ، كان الربان موسى معهم هناك ، وحان وقت الطعام ، فمنعهم القديس عن الاكل خلافا لعادته ، وبعد ساعة واحدة ، اقبل اخوة من دير باقوقا[1] لزيارة القديس ، فوجدوه يشتغل مع الاخوة . حينئذ أمر الاخوة فاعدوا المائدة وقعدوا للاكل ، وقعد اولئك الاخوة الى المائدة مع القديس . غير ان اثنين منهم لم يكونا قد رأيا القديس من قبل ، فلما رأياه ، ساورتهما الظنون في امره . وشعر القديس بذلك ، فاشفق عليهما لكي لا يلحقهما اذى ويكون تعبهما باطلا ، وعوض الاستفادة التي انتظراها يلقيا خسرانا بفعل الشيطان . فاراد ان يشفي داء الشك الذي ألقاه الشيطان في قلبيهما . وكان هناك سلة معلقة على شجرة ، فيها عدة اقداح زجاجية ، كان الاخوة يشربون الخمر بها . فقال القديس لأحد خدام المائدة : يابني خذ السلة من هذه الشجرة وعلقها بتلك الشجرة البعيدة . ففعل الخادم كما أمر به . وبعد هنيهة اقتلعت من الجبل الكائن الى جانب الشجرة ، صخرة كأنها جبل وتدحرجت مع حجارة كثيرة ومواد اخرى ، واستأصلت تلك الشجرة الثانية من جذورها وطمرتها بحيث لم ير منها شيئ . فاضطرب الاخوة جدا وقلقوا . لكن احدا منهم لم يصب باذى . وبعدما سكن روع الاخوة وجلسوا ، قال

١- ورد ذكره في صحيفة ٤٢ . الحاشية .

ذلك الخادم للربان موسى : آه ، لمَ حولنا السلة من مكانها ؟ فالآن لم يبق لنا قدح واحد لنسقي به الخمر للاخوة .

فقال له القديس : اذهب يابني وانظر لعله قد سلم عدد من الاقداح . فذهب الخادم دون ان يشك بقول القديس ، الى حيث كانت الشجرة المقلوعة ، فوجد السلة هناك بعيدا عن كل ذلك الركام ، والاقداح سالمة فيها ، ولم ينكسر واحد منها . فاخذها واتى بها الى القديس . فاندهش الاخوة جميعا ومجدوا الله .

اما الأخوان اللذان شكّا فيه ، فلدى رؤيتهما الاعجوبة العظيمة التي جرت من دون ما حاجة اليها لولا الشك الذي داخلهما ، وعلما انها حدثت لاجلهما لكي يستفيقا من غيّهما ، وان فعل الشيطان فيهما لم يخف عن القديس ، وثبا كلاهما وقاما عن المائدة واعتذرا من القديس . فقال لهما : ما مدعاة توبتكما ؟ . فاجاباه : لان ما اضمرناه لم يخف عنك ، ولم تشاء ان يلحقنا ضرر بسببه ، فاتيت بهذه الاعجوبة .

فقبل توبتهما وعانقهما بلطف . أما بقية الاخوة فقد ظلوا رهن الاندهاش ، لانهم لم يفهموا معنى كلامهما ، ولا لماذا جرى ما جرى .

قصة الصخرة والربان موسى

كان في صومعة احد الاخوة صخرة كبيرة اعيت ذلك الاخ . فأتى الربان موسى الى صومعته نهار الاحد ، وكان الاخوة مجتمعين لديه ، وكل واحد منهم يقول شيئا بشأن تلك الصخرة . فلمس القديس الصخرة بعكازه وقلعها من مكانها واسندها الى سور الصومعة ، فانزلقت بفعل الشيطان على ساق القديس ، غير ان العناية (الربانية) ابعدت فعلة الشياطين لئلا يؤذوه ، فلم ينالوا منه مأربهم . لكن احدى ساقيه اصيبت باذية طفيفة . ويقال انه في تلك الساعة التي جرى الحادث للقديس ، اضطرب الربان افني مارن[1] الذي كان مقيما في جبل جدرون ، وقلق كثيرا فيما كان اخوة من دير الربان هرمزد مجتمعين حوله . وظل هكذا لفترة من الزمن ، ثم شكر الله الرحوم وحمده .

فالتمس منه الاخوة ليطلعهم على سبب ذلك . فقال لهم نزولا عند طلبهم : ان الشياطين ارادوا في هذه الساعة القيام بجنحة كبيرة ، فقد ألتمت شرذمة منهم ليهلكوا القديس الربان موسى ، فألقوا عليه صخرة كبيرة . فلما رأيت ذلك قلقت لامحالة .

١-في الصحيفة ٣٨٥ من المخطوط حاشية تقول : ربان افني مارن الكردي المقيم في جبل جدرون ، ودفن في دير باقوقا .(وجبل جدرون لم أهتد الى موقعه ، ولعله قسم من جبل بيخير؟.

وعندما انقذته النعمة شكرت الله مدبرنا الذي لايدع المبغضين يؤذون الساجدين له .

الربان ملكيشوع

كان في دير القديس الربان هرمزد ، راهب شيخ مرهق وتقي يدعى الربان ملكيشوع . تربى على يد الربان يوسف وارتبط معه بحب الهي . وكان بسيرته الحميدة ومزاياه الفاخرة مدهشا في تواضعه العميق ، وعجيبا في رذل ذاته . فقد اكتسب التواضع الارادي بنوع فائق الطبيعة . مع انه كان من طبعه حاد المزاج ، لكنه جاهد بتعقل جهادا بطوليا ، فغير طباعه وتحكم فيها ، فاكتسب تواضعا اراديا فائقا لايوصف . لانه رذل ذاته وسما فوق طبيعته . فورث ارض الميعاد وصار فيها سيدا وملكا ومسلطا ، ودخل صهيون حيث لامكان للشيطان ولا لملاقاة شريرة . وامتلك الوزنات العشر [1] ، وحصل جسده على وحدة حواسه الباطنية . فاضحت الخمس والخمس عددا موحدا لايتجزأ . اخوتي الطوباويين ، ان التواضع الحقيقي يرفع الانسان الى صفات هذا الشيخ التي ذكرناها ، والى افضل منها ، لابل ويجعل الانسان الترابي الها . وكما ان الله يرحم الجميع ويحب الجميع ، كذلك ايضا الانسان المتواضع ، كما راينا ذلك حقا في هذا الشيخ الذي كان متحليا بمحبة نزيهة وطيبة يعجز اللسان عن وصفها . فقد كان يحنو على الكل ويحب الجميع على حد سواء . ورغم كونه معوزا وزاهدا ، كان بارادة صالحة يوزع على الفقراء والمحتاجين ، كل ما كانت النعمة ترزقه به ، مستقبلا وخادما ومريحا عابري السبيل القادمين اليه . لانه كان يأوي اليه كل القادمين الى الدير والمارين من هناك ، باذلا لهم كل اشكال العناية فوق امكاناته ، في غسل الارجل والرأس ، في اعداد المائدة ، وماشبه ذلك . وكان هذا الشبيه بالانبا موسى الاسود ومثيله المعزي للمكتئبين ، لايألو جهدا في ارضاء الجميع ، بحيث لو امكنه لبذل ذاته عن كل المحتاجين والمتضايقين والحزانى . مع انه كان دائما بالخفاء يقدم ذاته لله عن الكل ، قربانا مقبولا وطاهرا ، رائحة مرضية لله من اجل جميع الخطاة .

كان هذا الشيخ يتردد دائما على الربان موسى ، وبعد وفاة القديس ، اخذ يتردد على الربان يوسف ايضا .

الربان ايوب ورفيقه الناسك

قص علينا (الربان ملكيشوع) انه في يوم من الايام ، بينما كان منطلقا الى القديس بمعية اخ يدعى ايوب ، قال له هذا الاخ ، وهما سائران في الطريق ، بعيدين جدا عن

١–اشارة الى مثل الانجيل (متى ٢٥ : ١٥–٢٨) .

الدير : نتمنى على الله ، لدى دخولنا الى الربان موسى ان يعد قليلا من السمك ويسمح لنا القديس بالاكل منها . لانهما كانا زاهدين عملا بمشورة القديس .

اما الربان ملكيشوع ، فلعدم رضاه بنقض زهده قال لرفيقه : لارغبة لي في ذلك . ولما وصلا الى الدير ودخلا لدى القديس ، وصلّوا كالمعتاد ، طرق الباب رجل ومعه سمك جلبها للقديس دون توقع . فاخذ الربان موسى السمك ، واراها للربان ملكيشوع قائلا : ها ان الله اعد لك سمكا كما فكرتما في الطريق ، لكنها لك وحدك ، فهيئها كما تشاء ، لانك انت تأكلها ، اما انا وايوب فلا نأكل منها .

ولما جلسوا لتناول الطعام ، فرض القديس أكل السمك على الربان ملكيشوع ، اما هو وايوب فاكلا طبيخا بسيطا . فاندهش الربان ملكيشوع وايوب من انه علم بما تحدثا عنه في الطريق ، والا عجب من هذا هو ان الذي كان متلهفا لأكل السمك منعه عن رغبته ، واطعمها لمن لم يكن راغبا فيها .

وعندما أتى هذا الشيخ الربان ملكيشوع الى الربان (يوسف) واخبره بما تكلما عنه هو ورفيقه في الطريق ، وبما عمله الربان موسى ، طلب اليه ليطلعه على معنى ذلك ، وعلى غاية القديس منه . فقال له الربان : ان القديس نازلكما على صعيدين مختلفين في صراعهما . فانه لما رأى ببصيرته الثاقبة ماتحدثتما عنه في الطريق ، والرغبة التي تعتمل في كل واحد منكما ، فانت كنت هدفا لشيطان المجد الباطل الذي ألهب حماسك لئلا تنقض زهدك ، فتعظم لدى نفسك ولدى الاخرين ، وكان رفيقك هدفا لشيطان الشراهة الذي صارعه واوقد فيه الرغبة في الاطعمة المتنوعة ؛ فاراد (القديس) ان يشغي اهواء كليكما ، كالطبيب الحاذق الذي يصف لكل مريض الدواء الناجع لمرضه . فاعطى هذا الطبيب الروحي لكل واحد منكما الدواء المناسب لدائه . فانه كسر بالتواضع الرغبة التي فيك ، فنقض زهدك الذي بسببه ومن اجله لقي هوى المجد الباطل مجالا عندك ، ومنع رفيقك عن رغبته ليبعد عنه صراع الشراهة الذي يستعبد الانسان لشهوة الأكل .

مبتدئ له قروح في ظهره

روى شيخ فاضل كان في الدير واسمه حاي مايلي :

لما كان مبتدئا امره قيّم المبتدئين بالذهاب الى المدينة بمهمة تخص الجمعية ، لكنه لم يرد الذهاب فقال للقيّم : ان لي قرحة في ظهري ، فلا اطيق السيرفي الطريق . ووضع يده على ظهره متظاهرا بالاشارة الى موضع القرحة . وفي تلك الليلة بالذات ظهرت

قرحة في الموضع الذي وضع يده عليه . فاتى الى القديس وكشف له القرحة الطالعة في ظهره . ولم يطلعه على سببها . لان المبتدئ لم يع على ذاته بأن ماجرى له كان بسبب عدم طاعته . وكانت القرحة تنتشر في ظهره يوما بعد يوم حتى اصبح ظهره قطعة من القروح . ورغم انه كان يذهب يوميا الى القديس طالبا وملتمسا صلاته ، كان مرضه يزداد ويتفاقم . وظل على تلك الحال سبعة اشهر . وكان لايطيق بعد تحمل قميصه يلامس ظهره .

وفي ليلة الفصح ، دخل مع الاخوة للاغتسال . وكانوا مزدحمين في المكان ، فاصيب بركزة خفيفة طرحته ارضا وافقدته وعيه فحملوه الى القديس . فاخذ القديس يسأله عما به ، كمن لم يطلعه قط على مرضه .

وبينما كان المبتدئ يبكي بكاءً مرا ويكشف له عن القروح التي في ظهره ، وبأن له سبعة اشهر يشكو له منها طالبا صلاته ليشفيه من مرضه ، قال له القديس : ترى ماهو سبب هذه القروح ياحاي؟ . فاقسم له حاي قائلا : انني لااعرف لها سببا . فقال له القديس : لعلك ابديت عدم الطاعة لما أمرك القيّم ! . وفي الحال استفاق كالناهض من النوم ، وتذكر ماامره به القيّم ، وماا جابه هو متحايلا . فعلم ان هذا هو سبب دائه . واقر بذنبه وطلب المغفرة . فمد القديس يمينه ورسم عليه بالماء المبارك . وكان هذا الشيخ يقسم بانه في تلك الساعة عينها شفي من مرضه الخبيث . فغادر الباب ، ولم يبق في جسمه اثر للقروح ، وراح يمجد الله ويشكر قديسه .

مبتدئ أكل جبنة في بلد

وحكى لي هذا الشيخ نفسه قائلا :

حينما كان في دير الابتداء ، ارسله القديس الربان موسى الى مدينة بلد (اسكي موصل) لدى كاتب مسيحي كان مقيما فيها ، وقال له : انظر يابني ، حالما يعطيك هدية ما من عنده ، خذها وارجع دون تأخر ، ولا تخشى شيئا في الطريق ، بل عد لوحدك ، لان الملاك معك ، وهو يحفظك من كل سوء . فلما وصل المبتدئ الى الرجل المذكور سُر به ايما سرور . وعند الطعام اجلسه للاكل معه ، وقد اعد له سمكا وغيرها احتفاءً به . وكان هذا المؤمن قد اخذ السماح من القديس ليحل زهد من يأتيه من الاخوة ، فيا كلون مما يعده لهم . ولهذا حل المبتدئ زهده وأكل مما وضع قدامه . وكان منذ زمن يشتهي أكل الجبن . ولم يجد جبنة على المائدة . فلما طلع خارج الدار اشترى جبنا وأكل ، ظانا بانه مسموح له بأكل مايشاء . ثم استلم ماا عطاه ذلك المؤمن من نقود كثيرة وغيرها ، وراح في طريقه . ولما قرب من الدير هجم عليه رجل واخذ يكيل له

الضربات الواحدة تلو الاخرى ، دون ان يقول له شيئا ، ولا ان يطالبه بما عنده ، او يأخذ منه شيئا البتة . ثم اخلى سبيله . فتعجب المبتدئ مما جرى .

ولما أتى الى القديس وسلّم له ماكان عنده ، واخبره بما حدث له مع الرجل الذي ضربه ، قال له القديس : لابد وان الرجل ضربك لسبب ما ! . فاقسم له المبتدئ قائلا : لاأعرف ماهو السبب . واذ رأى القديس انه لايعرف السبب قال له : لعل الرجل ضربك بسبب الجبنة التي أكلتها بلاسماح ! . حينذاك تذكر المبتدئ زلته واعترف بها ، واندهش من ان شيئا لايخفى عن فكر القديس ، حتى ولامثل هذه الامور الصغيرة والنافلة .

القديس يأمر احد الاخوة بالّا يذهب الى الجبل

كان لهذا الاخ (حاي) شقيق اكبر منه سنا ، اسمه الربان اسحق ، وكان شيخا مرهقا وفاضلا ، لازم الصمت العميق طوال ايام حياته . وهو حكى لي أنه لما تخرج من الابتداء ، ودخل في صمت الصومعة ، اراد الخروج الى الجبل ، بدافع شوقه الشديد الى حياة العزلة . فاطلع الربان موسى على رغبته ومابنوي القيام به .

لكن القديس لم يستحسن ذلك ، لانه لايخلو دائما من مجد باطل . فمنعه عنه وأمره بأن يعيش في صومعته عيشة التوحد . لان ذلك الدير كان ملائما جدا لممارسة كل الفضائل . اما الاخ فكان يشتد فيه الشوق للخروج الى الجبل . واخيرا غلبه شوقه اللاعج ، فحمل زوادته واتى الى القديس ليراه منطلقا الى الجبل .

فلما رأى القديس انه لايطيع ، وان شوقه مشوب بقلق قال له : اذهب يابني حسب رغبتك ، اذا كنت قادرا على الذهاب ! . فركب رغبته في طريقه . ولما نزل الى الوادي سقط في مكانه مصابا بمرض الاستسقاء ، فتورمت بطنه وصارت كزق منفوخ . وبعد جهد جهيد عاد الى صومعته . وظل يعاني من هذا المرض لعدة اشهر . وكان يستند على عكاز ويأتي دائما الى القديس طالبا الصلاة من اجل مرضه العضال . فتغاضى القديس عنه ليختبر بنفسه جزاء العقوق .

وخلال الايام التي كان فيها الأخوة يذهبون للحصاد ، اراد (القديس) ان يردع تهوره ويكسر شوكته ، فقال له : اسحق استعد للذهاب مع الاخوة للحصاد! . فاجاب قائلا : وكيف اقدر على هذا العمل؟ انني لااطيق القيام على رجلي ! . فاردف عليه القديس وكأنه لاعلم له بمرضه : ومما تتشكى يابني؟ . فكشف بطنه واراها له . فبسط (القديس) يده عليها ورسمها بالصليب ، وللحال زال الورم عن بطنه وعن

جسمه كله . فنهض كمن لم يصب بمرض قط . وذهب مع الأخوة الى الحصاد . وعاد من الحصاد متضعا وديعا . فراقت له الصومعة حيث اقام في عزلة مع نفسه .

(قصة يشوع رحمه)

قص عليّ شيخ يدعى يشوع رحمه[1] ، ان الربان موسى ارسله يوما ما الى مدينة بلد ، في شأن من شؤون الدير . واعطاه قطعة من ذخائر القديسين قائلا له : ان هذه الذخيرة هي للربان بن يلدا معلمي ، فاذا التقيت من هو بحاجة ماسة اليها ، استخدمها .

فلما ذهب الى بلد نزل في دير الراهبات[2] . وكان هناك فتى ابكم لم ينطق البتة . فالتمس اهله من هذا الأخ بشأنه . فباركه بالذخيرة التي سلّمها له القديس ، وللحال نطق ذلك الفتى وانفتحت اذناه . فتعجب كل من رأى وسمع ومجدوا الله .

(حادث اخر)

حكى الربان (يوسف) انه حينما كان يقوم بخدمة القديس (الربان موسى) اثناء المرض الذي توفي على اثره ، جاء احد الاخوة ليدخل ، وكان الوقت ظلاما ، فداس على القديس بغير انتباه ، وللحال ضربه الملاك ، فمال وجهه الى الوراء ، وخرج الى الربان بصورة قبيحة . اما الربان فاخذ عباءته والقاها على وجهه ، وارسله الى صومعته ريثما يدخل ويلتمس من القديس بشأنه . ثم أعاد الربان ، القديس الى مكانه ، وشرع يقبّل رجليه طالبا منه ليسعف ذلك الاخ . فبسط القديس يده نحو صومعة الاخ ورسم علامة الصليب . واذا بذلك الاخ مقبلاً وقد استعدل وجهه ، فاخذ يفرح ويمجد الله .

(ظاهرة !)

ويروى عن اعجوبة باهرة اجراها القديس وهي : لما دنا تابوت القديس من القبر الذي وضع فيه ، وكان جمهور من الرهبان والعلمانيين يبكون حوله ، رأى شيخ فاضل

١- معناه : يسوع صديقه .

٢-سمي هذا الدير باسم دير مار يوسف ، ويذكره الشاعر الموصلي السري الرفاء (+٢-٩٧٣م) في كتابه عن الديرة ، والكتاب مفقود .(انظر الأب حنا فيي ، اثور المسيحية جـ ٢ ص ٥٦٣ ، الحاشية ٢) .

يدعى الربان عبد يشوع من دير الربان قيوما[1] ، اعجوبة تفوق الوصف ، فانه رأى يمين القديس خارجة من التابوت ، وهي ترسم علامة الصليب على الجمهور الذي كان مجتمعا هناك .

الى متى ياترى اجهد النفس في السير على طريق مآثر هذا الرجل العجيب ، التي لاحد لها ولاميناء ولامحط ليستريح المرء فيه قليلا من عناء سيره ، والمجهود الذي تقتضيه . والذين يريدون الاطلاع على تفاصيل اكثر من هذه ، فأنهم يجدونها في قصة حياته[2] .

اما انا فقد كتبت هذه النبذات حسب مقدرتي وضعفي ، تبركا به لاغير . واضافة الى ماأهمل ولم يدوّن في قصة القديس ، فهناك امور كثيرة سمعتها تحكى عنه ، ولا يستطيع المرء ان يجمعها ويكتبها كلها . لكنني اكتفي الى هنا بالتحدث عنه ، لئلا تطول هذه القصة ، فيسأم القارئ الضعيف . ومن له القليل من المعرفة ، يمكنه بأقل من هذه القصص ، لابل بواحدة واثنتين مما كتبنا هنا ، ان يفهم ويعرف عظمة هذا الملاك المتجسد والكروب المتجسم ، ومسكن الثالوث الاقدس ، وآلة قدرة الله ، الذي ظهرت به وعلى يديه عجائب فائقة الطبيعة ، والذي اعده الله بسابق علمه لهذا الزمان الاخير ، ليظهر وينجلي ويُرى فيه ، ليوطد فينا الايمان بما أجري في الازمنة الغابرة .

ولله الذي نصره وعظم شأنه ، المجد اللامحدود واللامنقطع من كل ما خلقت مشيئته بحبه . ولتحل عنايته التي تفوق طلبا تناطرا ، ورحمته ورأفته ، علينا نحن ثمار محبته ، وعلى حنانيا مؤلف اعني كاتب عجائبه ، وخاصة على معلميه داود وشمعون الى الابد امين .

«توفي الربان موسى نهار الجمعة الخامسة بعد (عيد) القيامة سنة ١٢٥٨[3] يونانية وهي سنة ٣٣٥ هجرية»[4] .

الربان عبد يشوع

(مجدد دير اينشكي)

كان هذا الطوباوي الربان عبد يشوع من بلد داسن اصلا ، وتتلمذ في دير باصياري هذا ، على يد الربان ابن يلدا . وكان مزدانا بخصال فريدة ومزايا حميدة ،

١-دير الربان قيوما يقع في منطقة بروالي بالا على بعد ٢كم تقريبا الى شمال قرية دوري .

٢-يبدو ان هذه القصة مفقودة الى الان .

٣-اعني نهار الجمعة ٧ أيار سنة ٩٤٧ ميلادية . وعيد القيامة وقع تلك السنة نهار الاحد ١١ نيسان . وسنة ٣٣٥ هجرية بدأت في ٢ آب سنة ٩٤٦ ميلادية .

٤-الاسطر بين معقوفتين جاءت في الحاشية اليمنى من صحيفة ٣٠٢ من المخطوط .

وهماما في مخافة الله . وبعد وفاة القديس الربان موسى ، وضع الاخوة المبتدئون والمقيمون في الصوامع ايضا ثقتهم به في شؤونهم الروحية . ولهذا السبب لقي حسدا اعمى من قبل البعض الذين لايسلكون باستقامة . وبلغ بهم الامر الى ان ابعدوه عن الدير ، ولكنه بتحريك من الله وتدبير مشيئته ، انتقل الى دير القديس الربان يوسف في اينشكي .

وكان هذا الدير قد تقهقر منذ زمن وتبدد الاخوة الذين كانوا فيه . ولما تحول اليه هذا الطوباوي ، التمّ الاخوة ثانية من حيث كانوامبددين . وبما ان موقع الدير لم يكن ملائما لأوضاع الزمان ، فقد حوله الى مكان عال جدا مطل على المنطقة كلها ، لكي يسمع حالا اهالي القرى المجاورة ، نداء الاستنجاد الذي يطلقه الأخوة حين مداهمتهم من قبل الاشرار ؛ وبذل الجهود في بنائه حتى اتم كل مقتضياته اعني الهيكل وبيت الشهداء وجناح الجمعية والسور المحيط بجميع اكواخ الاخوة .

(حادث اثناء العمل)

وقد روى شهود عيان انه بينما كان البنّاء يعقد الهيكل بالحجارة والكلس—بهذه المواد شيد بناء الدير كله—خشي البنّاء وفترت همته نظرا لصعوبة العقدة وسعة عرضها . اما الربان عبد يشوع فلكونه رجلا نافذ البصيرة ، علم بالهاجس الذي خطر للبنّاء ، فأتى وعبر حيث كان يبني ، وكان بجانب البنّاء صحفة فيها ماء ، فركلها برجله والقاها الى اسفل فوق الحجارة والركام . فقال البنّاء : آه ، كيف وقعت صحفة الماء! . فامر الطوباوي احد الاخوة لينزل ويرى ماذا جرى للصحفة . فنزل ورآها سالمة دون ان ينسكب منها الماء . فحملها وصعد بها الى البنّاء ، فتعجب الرجل والذين معه . فقال الطوباوي للبنّاء : اذا كانت هذه الصحفة التي لاتسوى ولافلسا واحدا ، لم تنكسر رغم سقوطها على الحجارة من هذا العلو الى اسفل ، لكنها صينت بحيث لم ينسكب الماء منها ، فكيف يحق لك ياانسان ان تخشى وتقلق في هذا العمل الالهي؟ هاان العناية الربانية محيطة بك ، وعينها عليك ، والنعمة تحفظك وتهتم بك لئلا تصطدم بحجر رجلك . فطب نفساً اذن ، وأبعد عنك هاجس الخوف الذي خطر لك ، لان الرب لايسمح بان يصاب احد باذى في هذا البناء .

وقد تحققت كلمته فعلا ، فتم تشييد الدير ولم يصب احد بأدنى اذية . وازدهر الدير باخوة كثيرين .

(سارق الجوز)

روى اخ تقي انه بعدما سد أولئك الحساد النافذة التي منها كان يعطى الخبز ليلا (للربان عبد يشوع) ، وقبل انتقاله من دير (باصياري) ، اقبل اليه في احدى الليالي . وطلب منه ليقول له من الذي سد نافذته . فقال له : ان رجلا أتى ليلا وفعل ذلك خفية ، فكيف اعرف الان من هو؟ . فألحّ عليه الاخ ليقول له مهما كلف الامر ، لعلمه انه رجل ذو بصيرة شفافة . وبعد الحاحه الشديد قال له : قم انطلق الى شجرة الجوز القائمة على ينبوع مار ابراهيم ، واختبأ تحتها ، فمن ينزل من الشجرة ومعه جوز ، هو الذي فعل ذلك ايضا . فراح الاخ وقعد تحت الشجرة . واذا بأخ ينزل منها ومعه جوز سرقه ، فرآه وعرفه . وعاد الى الشيخ وقال له مبتسما : انني لم اطلب منك ان تكشف لي من يسرق في الليالي ، بل ان تقول لي من الذي سد نافذتك! . هكذا كانت عين فكره نيّرة ، بحيث انه كان يرى بوضوح الافعال التي تُفعل في الخفاء .

وسألت الربان (يوسف) عن هذا الطوباوي : والى اية مرتبة بلغ من الكمال؟ . فقال لي الربان : يابني انه كان رجلا رائيا ، بحيث ان شيئا لم يكن خافيا عن رؤية فكره قط .

وحكى عنه احد الاخوة الافاضل يدعى يشوع رحمه ، انه في يوم ما ، بينما كان جالسا اليه يتحدث معه عن مناجاة الله ، سأله بمودة قائلا : ترى هل يوجد راءٍ في زماننا ياربان؟ . فاجابه الشيخ قائلا : هناك رؤاة بين الرهبان ، لان العالم لايخلو من اناس اتقياء . وانا اعرف في زماننا هذا راهبا يرى الخليقة كلها كما يرى المرء القصعة الموضوعة امامه .

فانكب ذلك الاخ على رجليه ملتمسا منه بدالّة المحبة ليقول له من هو هذا الذي قال عنه . اما الشيخ ، وقد غلبه ملتمس الحب قال له : انه هذا الوضيع الذي امامك! . فاندهش الاخ ومجد المسيح ربنا الذي لازال وعده قائما للانبا باخوميوس[١] ، بأن هذا الزيّ لايفتقر الى امثال هؤلاء الرجال . وبعدما اتم الشيخ الربان عبد يشوع بناء ذلك الدير ، انتقل حسب تدابير الله التي لاتدرك ، الى دير مار ابراهيم الذي في شمرخ[٢] . وهناك انتهى به المطاف . اما نفسه فانتقلت الى ربها الذي

١- الانبا باخوميوس (٢٩٢-٣٦٢) موءسس الحياة النسكية في مصر ، وضع لها القوانين التي جمعت النساك في طاعة رئيس واحد .

٢- راجع صحيفة ٣٤ ، الحاشية ٤ .

احبته ، الى موطنها الاول ، ووضع جثمانه في بيت الشهداء بالاكرام اللائق والمتوجب له . وهو الان منبع البركات لكل ملتجئ الى صلواته . وبها ننال نحن الضعفاء ايضا الرحمة في الدارين آمين .

الربان مار اثقن الصارخ

ان هذا الطوباوي ربان مار اثقن تتلمذ هو الاخر على يد الربان بن يلدا في هذا السلك المقدس . وكان قوي البنية . وعمل الابتداء بطريقة لايمكن وصفها . وبعد وفاة الربان بن يلدا ، بذل في صومعته ، بمشورة الربان موسى ، جهودا جبارة بصمته العميق فيها . لانه كان متحمسا في تقوى الله ، وقويا في جسده للعمل . ولايستطيع المرء ان يتحدث عن اتعابه الجسدية . وكان في صيامه يطوي اسابيع عديدة واياما مكتفيا بأكل زهيد . واذا ماستعفى عن الصوم ليلا ، كان يتناول رغيفا واحدا لاغير .

ويقال عنه انه لما كان يتلو صلاته في الليالي والنهارات ، كان يرفع يديه وينحني ويركع بعد كل جملة يتلوها . هذا ماسُمع منه في شيخوخته ، حينما كان يريد تشويق المبتدئين الى مخافة الله وممارسة الفضائل . وعندما كان يُسأل عن عدد الانحناآت التي يجب القيام بها ، كان يجيب مبتسما : «اثناء صلاتي كنت اقوم باكثر من ألف انحناأة» .

ويقال عنه ايضا انه لم يرقد على الارض . ولما كان يريد ان يأخذ قسطا من النوم ، كان يسند ظهره الى كرسيه ازاء الصليب ، وبهذا الشكل يسترق النوم القليل المتاح له ، لانه كان يقضي الليل بطوله ساهرا يقظا نشيطا . ويقال انه لما اراد الربان موسى ان يطلع الاخوة على قوة تجلد هذا الطوباوي وشدة صيامه الصارم الفائق الوصف . جاءهم بالعمل التالي :

في يوم ما بينما كان الاخوة مجتمعين الى المائدة ومعهم هذا الطوباوي بالقرب من الربان موسى ، وبعدما أكلوا مما هيأته العناية (الربانية) وقاربوا الشبع ، اشار عليهم الربان موسى بالتوقف قليلا وقال لجميعهم : اخوتي اطلب من محبتكم ان يأكل كل واحد منكم حتى الشبع . لان كثيرين منهم كانوا يرغمون انفسهم على ان لايشبعوا حين جلوسهم الى المائدة .

حينئذ شرع الاخوة يأكلون من جديد ، مكتفيا كل واحد منهم بالقليل من الكثير . اما الربان مار اثقن فانه اكل معظم الارغفة . فاندهش الاخوة برجل هذه أكلته ، ويصبر لمدة ايام مكتفيا برغيف واحد فقط .

وروى لي الربان (يوسف) عنه انه خلال شتاء القحط الذي ذكرته سابقا ، لم يذق هذا الشيخ طعم الخبز . بل كان يجمع النوى من فضلات العنب المعصور ويدقه ، ويسلق من الحشيش الذي كان يأكله الدواب ، ويخلط معه النوى المدقوق ويأكل . وهذا كان طعامه طيلة ذلك الشتاء .

اخيرا وفي يوم ما تضايق جدا من الجوع ، فسقط على الارض ، ولم يتمكن من الوقوف على رجليه . فطلب من المسيح وهو طريح الأرض ، ان لا يموت جوعا في هذا الوضع الكئيب . وما ان صلى الا واذا بطارق على بابه ، قد أتاه بخبز وطعام دهين . فتناول ماارسله الله له وشكر عنايته به . ومنذ ذلك اليوم لم تدعه العناية يفتقر الى شيئ البتة .

وهذا الطوباوي هو ذاك الذي ذكرته وتكلمت عنه قبل حين ، انه اتى الى الربان (يوسف) يستشيره في قضية تخصه ، فأجابه بعدما صلى الى المسيح من أجله ، بان يعمل حسبما أمره به .

لقد بلغ وارتقى الى مرتبة عالية . اذ كان حبه للمسيح يحدو به دائما الى الصراخ بصوت عال يُسمع في جنبات الدير ، وينتقي كلمات تزيد نار حبه ضراما ، فيقول مثلا : سعت نفسي وراءك ايها المسيح ، فلقيت ذاتها في باطنها ، وعليّ استقرت يمينك من شدة وَلَه نفسي بحبك العذب . فمجدوا الرب ياجميع الشعوب الذين في باطني ، وسبحيه ياجميع قبائل نفسي ، لأن نعمته عظمت علينا ، (نعمة) ذلك الذي خلقنا من لاشيئ ، وجعل ويجعل منا شيئا لامثيل له . فهو حقا الرب الهنا من الدهر والى الدهر . وكانت شدة محبته للمسيح تضطرم بحيث لم يكن قادرا على التلفظ باسمه امام الناس . واحيانا سُمع يقول بصوته ذاك الجهير : ايها الناس هلموا جميعا وصيروا رهبانا ، لتحسوا بنعمة المسيح فيكم ، وتستحقوا حبه ألهنيئ الذي لاشبع منه ! .

وعندما كان يخرج ليرى من طرق الباب عليه ، كان بجهد جهيد يسكت برهة ، ويتهيأ للقائه . وحينما كان يطلب اليه شخص ما ليباركه ، كان يتأثر في الصميم لدى تلفظه باسم الاب والابن والروح القدس ، فيرفع صوته ويصرخ راكضا الى داخل (الصومعة) .

ولما كان يأتيه أخ ما ليكشف له سر نفسه او ليستشيره ، كان يمنعه عن كشف قضيته ، ويقول له : لعلمك يابني ، انني لست مؤتمنا على هذه المهمة ، انما لي صلاة مسموعة . فأطلب الصلاة على ما تريد ان يكون لك ، ولاتكشف لي سر نفسك . اما اذا كنت تريد ذلك ، وتكشف معاناة نفسك ، وتستشير بشأن سيرتك ، فراجع

الربان يوسف عن هذه الامور التي ائتمنه المسيح عليها ، وله اكشف افكارك واسرار قلبك .

والربان (يوسف) ايضا كان يرسل الاخ الذي يتحدث معه عن صراعاته ، الى هذا الشيخ ، لطلب صلاته فقط ، ويحذره لئلا يكشف له اسرار نفسه . اما مراجعوه من العلمانيين ، فكان يستمع اليهم ويجيبهم بسهولة ، فينالون طلباتهم بصلواته .

ويقال انه حينما كان يطرق شخص بابه وهو مائل امام الصليب في مناجاة الرب ، بتلك الحرارة والمحبة التي لم يكن فيها يحس بشيء مما حوله ، وكان الطارق يضايقه ، وهو لايقدر على الخروج الى الباب ، كان يجيبه من مكانه قائلا : ان قضيتك هي كذا وكذا ، اذهب واعمل كيت وكيت ، فقد طلبت من المسيح لأجلك ! .

واحيانا لدى جلوسه مع الربان (يوسف) الى المائدة ، كان ينخطف بالفكر ، فتبقى يده في الصحن دون حركة ، الى ان يرفعها احدهم ويضعها على جنبه ، وبعد فترة كان يسترجع فكره .

وقد استمر على هذه الحال في هذه السيرة العجيبة مدة خمس عشرة سنة والى حين وفاته .

وكان يدعى ويلقب بالربان مار اثقن الصارخ ، لان صوته لم يكن يهدأ لا في الليل ولا في النهار .

وانني سألت الربان عن سيرة هذا الطوباوي ، وطلبت منه ليطلعني على السبب الذي جعله لايرتقي الى المرتبة التي هي فوق المرتبة التي كان فيها ، والتي فيها يعطى للراهب التنعم بمواهب المسيح بصمت وبدون صوت ولان الحالة التي فيها يُغلب الراهب على امره فيُسمع صوته دون ارادته ، في الدرجة التي بلغها من مرتبة النفس ، فانها تعطى له بفضل الله ، واذا ماتقدم في مرتبة النفس هذه ، بسيرة تناسبها عن فطنة ورشاد ، فانه يرتفع في هذه المرتبة الى درجة اعلى ، حيث يكون تنعمه كله باطنيا وبصمت . فلا يقوى على الكلام حين تضطرم في نفسه موهبة حب المسيح . لاننا وان كنا نقول مرتبة ، سواء الاولى التي هي مرتبة الجسد ، او الثانية التي هي مرتبة النفس ، او (الثالثة) التي هي مرتبة الروح وهي الكمال ، الا ان في كل واحدة منها درجات عديدة ومتنوعة ، وفيها مداخل ومخارج ، وسبل ومنازل كثيرة .

هذا ، فلما طلبت من الربان كما قلت ليطلعني على قضية الشيخ ، فامتنع ، اضطررته بالحاح المحبة ، فسرد علي بالسر قضيته كلها قائلا : اعلم يابني ان هذا الرجل كان يقوم باعمال مضنية لايقدر بشر على وصفها . ولما طرأ عليه التغير الذي ذكرته

اعلاه ، وطلب بالصلاة ليعرف لمن يكشف امره ، اوحى اليه المسيح ليبوح للربان بما في قلبه ، كما وامر المسيح الربان ليستمع اليه ويجيبه بما يلزم ، فرأى الربان ، كما قال لي ، ان ماطرأ عليه هو تغير يحدث مابين مرتبة الجسد ومرتبة النفس ، وهذا يجري للاخ في انتقاله من تلك الى هذه . فصحح الربان مسيرته في طريقه ، وأراه مافيها من سبل ومن كبوات ايضا ، والكمائن التي ينصبها المحاربون المقاتلون مع من دخل حديثا فيها . وعلّمه كيف ينبغي ان يسير ، واية اعمال يكثر منها او يقلل ، وماذا يعمل وماذا يتجنب ، وماذا يحذر وماذا يقبل .

وبعد هذه (التوصيات) حذره وامره لئلا يطلع احدا عليها . ثم ارسله الى صومعته بعدما زوده بالصلوات والسلاح المناسب لهذه المعركة . اما هو فقد تمسك بكل ماامره الربان ، فسار قدما في طريق سعيه ، بقدر حرصه على ماامره به .

وبعد زمان ما ، ذهب هذا الشيخ الى الربان عبد يشوع الذي كتبنا عنه سابقا ، وكشف له سر نفسه وتفاصيل سيرته . وبما ان كل انسان نال من الله موهبة خاصة ، فهذا اؤتمن على هذه وذاك على تلك[1] حسب علم المدبر الحكيم ورضاه ، فقد التبس الأمر على الربان عبد يشوع . ولعل الله اخفى السر على هذا الرجل الرأي الخبير جدا بهذه الامور ، لعدم طاعة هذا الشيخ . فانزعج الربان عبد يشوع من الشيخ قائلا له امورا مضادة لما يفيده . فعاد من عنده قلقا ، ودخل صومعته ، ولم يجد في نفسه شيئا مما كان قد وهب له . فداخله الفزع والسجس . ثم اقبل الى الربان (يوسف) واطلعه على وضعه . فقال له : ألم آمرك واحذرك بالّا تكشف قضيتك لأحد! فكيف تخطيت امر المسيح؟ ليس لان الربان عبد يشوع رجل لاقيمة له ، حاشا! فانني لااسوى التراب الذي يدوس عليه ، بل لان المسيح شاء ان لاتكشف سرك لغير من أمرك بمكاشفتَه . والان امضي الى صومعتك ، واعمل كيت وكيت ، الى ان تنال رضى المسيح ، فيعيد اليك الموهبة التي منحك اياها بفضله .

وقال الربان : ان هذا الشيخ مكث في صومعته سبعة ايام ، وكأنه رجل اعتيادي لم يقتبل الزي الرهباني بعد . وعقب ذلك ترأف المسيح على أتعابه ، فرد اليه الموهبة التي منحها له برحمته . فعاد الى سيرته ، والى حيث كان قد وصل في طريق سعيه ، مقدما المزيد من افعال الشكر والتمجيد لمن لايتراجع بمواهبه . وبهذا الجهد الفريد الذي بذله ممجدا وشاكرا ، بلغ الى مثوى حب المسيح ومحبته ، الذي تشترك فيه النفس والجسد

١- اولى قورنثية ٧:٧ .

معا . ومن يضطرم به لايمكنه الاحتفاظ به باطنيا بصمت وفي نفسه فقط . ولظن الشيخ القديس ان هذا هو الحد المبتغى ، ولخوفه ايضا مما جرى له ، وهذا الخوف كان يعتمله دائما ، فقد تمسك باسلوب الشكر بكلتا يديه . ومكث على هذه الحال والمنزلة من الصوت المسموع ، دون ان يجاهد للعبور منها والانتقال الى منزلة اخرى ، لان سفينة اتعابه استقرت فيها ، حسب مشيئة مدبره الكلي الحكمة .

ان ما دونته ، والمنازل التي ذكرتها ، والجهود الواعية وانواع المسالك التي فصلّتها ، يعرفها جيدا ويعي ما اقول ، ذاك الذي دخل ذلك الموطن وطاف في مدنه ، وسار في طرقاته ، ورأى بعيني نفسه ما هناك ، فهو يصدق هذه الامور . اما من لم ير ذلك الموطن ، فانه يقف تعيسا معي خارج المسكن الخارجي ، دون ان يشعر بما يوجد في ذلك الداخلي ، ولعله يعترض على من يتكلم عما يوجد في قدس الاقواس ، لانه لايؤمن بما فيه . أهّلنا الرب للدخول اليه . وهناك نرى المسيح ، لا المسيح (حاليا) ، والله ، لا الله (حاليا) ، بل الله (كما هو) ، والمسيح المسيح اله الكل ، بفضل حبه الحنون الذي أهّلنا لاسراره امين .

رحل الربان مار اثقن من هذا العالم سنة ٣٥٩ هجرية[١] . صلواته علينا جميعا آمين .

الربان يوحنا الداسني (الثاني)

كان هذا الطوباوي من بلد داسن ، وكان له زوجة واولاد ، وكان رجلا صدّيقا وفاضلا في العالم . وفي احدى السنين خرج كعادته مع زوجته واولاده ورفاقه قاصدين بلد الموصل . فمروا على دير باصياري . فوقف هو في باب صومعة الربان ابن يلدا ليتبرك منه . فلما رآه الربان ابن يلدا ، أوحت اليه النعمة ما هو في سابق علم الرب ، وماذا سيكون من هذا الرجل . فقال له القديس : هلم يايوحنا وصر راهبا : . فقال له الرجل : ان لي زوجة واولاد ، فكيف يمكنني ان اصير راهبا؟ . فاجابه الربان ابن يلدا : اذن امض الى الحصاد ، فها ان الله يعد لك حصاداً جيدا ، وبعدما تحصد ما تحصده حسب مشيئة الله ، عد اليّ ، فأن لي شيئا اقوله لك! .

فانطلق هذا الرجل وزوجته واولاده جميعا الى بلد الموصل . وبعد أيام قليلة ، توفيت زوجته واولاده جميعا . حينئذ علم السر الخفي في ما قاله القديس له ، فترك

١-سنة ٣٥٩ هجرية بدأت في ١٤ تشرين الثاني سنة ٩٦٩ ميلادية .

الحصاد وعاد الى الدير . واخبر القديس بما جرى له ، وكيف انه دفن زوجته واولاده في الموصل . فقال له الربان ابن يلدا : بما ان المسيح حررك من العالم ، فاقتبل الان ثوب الرهبنة المقدس ، وها ان المسيح يسكب عليك رحمته ، فتفلح في هذه السيرة الملائكية ، وعوض الارمل وابن العالم ، يجعلك بتولا له ، وابن مدينته المقدسة .

فانظم هذا الرجل الى حياة الجمعية ، ومارس الابتداء بنشاط ، ثم خرج من الجمعية واقام في صومعته اقامة حسنة .

وكان متواضعا بالفطرة ، كما واكتسب التواضع الارادي الذي يُكتسب ببذل الجهود . وفي سلوكه كان دأبه رذل الذات . وكان متسماً دائما بعلامات حزن روحي رزين ، عقبه اخيرا فرح في الله وُهب له .

وكثيرا ما كان الربان ابن يلدا يقول للاخوة : اذا اردتم رؤية ارمل هو بتول للمسيح ، فانظروا الى يوحنا الداسني ، الذي رفعه الله من الجلوس مع الابرار بني العالم ، واجلسه مع القديسين بني النور .

وبعد وفاة الربان ابن يلدا ، استولى عليه الاسى وخنقته الكآبة ، فأتاه الربان موسى وشجعه قائلا له : لاتحزن ولا تتضايق ، فان كان الربان ابن يلدا قد رحل عنا ، فها ان ملاكه معنا ، وهو يرشدنا ويعين ضعفنا . حينذاك تشجع وعمل حسب مشورة الربان موسى .

ولقد ارتفع الى مرتبة عالية ، ودخل المنزل الذي دخله نبي الله الطوباوي داود فقال عنه : «الليل يضيء كالنهار في هذا الموطن ، والظلام كنور المصباح الكبير ، والظلمة لاتتحكم فيه ، لان نوره مثل شمس البر ، لايقدر الليل على اطفائه مطلقا مهما تكاثفت ظلمته»[1] .

الى هذا المنزل دخل حقا هذا الطوباوي الربان يوحنا . ولم يكن يرى ظلمة الليل ، لان النور المشع من داخله كان يضيئها له . وكان احيانا يخرج من صومعته ليلا والظلام دامس ، ويقبل الى الهيكل لتناول الاسرار المقدسة ، فيبادره الوافه المتعود على تصرفه قائلا : لقد انتهينا من اقامة الاسرار ياربان . ثم يناوله كسرة من الخبز المكرس ويعيده الى صومعته ، دون ان يخامره شك في ان الوقت نهار وليس ليلا ولاظلاما . وكان الوافه يروي هذه الامور عن هذا الشيخ الارمل الذي اضحى بتولا للمسيح .

١- مزمور ١٢٨ : ١٢ . بتصرف .

وقد تبسطت معرفته بهذا المكان البسيط ، بحيث لم يكن يعرف شيئا عما حوله . اذ كان له تلميذ يقوم بخدمته اسمه بختيشوع [1] ، لازمه مدة تنيف عن عشر سنوات ، ولم يتعلم اسمه . فتارة كان يدعوه : داديشوع ، وطورا يسميه باسم آخر . ولما كنت ادخل اليه انا البائس وأسأله مازحا عن اسم تلميذه ، كان يجيبني : اعتقد انه يدعى داديشوع ! . وكان وجهه مشعا كنور الشمس .

(رجل مصاب بالجذام)

في يوم من الايام خرج من صومعته واتى الى باب الدير حيث كان يقف الفقراء القادمون الى الدير . فراى هناك رجلا مصابا بالجذام وملقى على الارض ، وقد تآكل جسمه وتشوه . فاقترب منه ولاحظ جروحه تنزف صديدا على الارض ، فحمله الى صومعته واخذ يخدمه لمدة ثلاث سنوات تقريبا . فتقيح جسمه كله وانتن ، بحيث لااحد كان بامكانه المرور بجانب صومعته بسبب الرائحة الفائحة منها . اما هو فكان يحمله ويقلّبه في منامه ويمسح القيح السائل من جسمه ، فتتلوث يداه . وبدون ان يغسلهما كان يأكل الخبز ولاتتقزز نفسه . وهكذا خدمه حتى وفاته .

وبعدما دُفن ذلك المجذّم وعاد الشيخ الى صومعته وهمّ بالدخول ، شاء الله ان يكشف له بان ذلك الصبر كله الذي تحلى به في خدمة الجسم المتهرئ ، ليس ملكة في الطبيعة البشرية ، لكنه هبة من القدرة الالهية ، ويعطى للانسان بانعام (الهي) . فلما اراد ان يفتح الباب ويدخل ، لم يتمكن من تحمل الرائحة الكريهة التي كانتَ تفوح من صومعته . فمكث على الباب مندهشا . حينئذ ادرك السر الخفي في ذلك ، فتواضع امام الرب ، واقر بضعفه الشخصي ، وبعظمة قدرة المسيح التي تصبح بها الصعاب هيّنة ، وبها ايضا تجلد في خدمته لذاك المضروب بالقروح ، وصبر على معاناتها ، وها انه الآن لايتمكن بقوته من الدخول الى المكان الذي كان فيه ، بل بقدرة الرب . فاتى الى الربان يوسف وطلب منه ليذهب معه الى صومعته ، ويصلي الى الله من اجله ، ليتمكن من الدخول اليها . فقام الربان وذهب معه . ولما وصلا الى الباب ، رسم الربان علامة الصليب وفتح الباب ودخلا كلاهما وصليا ، فطرد الله تلك الرائحة الكريهة من الصومعة . فجلس الشيخ في صومعته ، وعاد الربان الى صومعته .

وروى لي شيخ يدعى داود ان هذا الطوباوي شفى رجلا من مرض البرص ، كان قد قدم اليه ، ولكن لم يقل كيف ومن كان ذلك الرجل . وبعد حين تأكدت من انه هو بعينه ذلك الرجل الذي شفي .

---

١ -كلمة مركبة من : بخت (فارسية) معناها : حظ او نصيب ؛ ويشوع : يسوع نصيبي .

(خيبة لصوص)

في يوم ما هجم لصوص على الدير لينهبوه ، فتبدد الرهبان كلهم في الجبال ، اما الربان يوحنا فلم يخرج من صومعته . فدخل اليه حوالي عشرة رجال ، فوجدوه واقفا قدام الصليب بدون فزع ، ولم يخف ولاتحرك من مكانه ولانظر اليهم . فضربهم الملاك ، فتسمروا في اماكنهم ولم يتمكنوا من تحريك ارجلهم لا الى الامام ولا الى الوراء . فالتمسوا منه باكين ليحلهم ليخرجوا . فرسم الصليب ازاءهم ، فانحلت قيودهم وطلعوا الى رفاقهم . وطردهم الرب جميعا فتركوا الدير دون ان يلحقوا به اي اذى . فعاد الرهبان الى الدير يشكرون الله . اما الشيخ وكأنه لم يعرف ماذا جرى ، اقبل لتناول الاسرار ، فبادره الوافه قائلا كعادته : لقد اقيمت الاسرار .

الى هذه الدرجة من البساطة وصل هذا الشيخ الفريد الصفات ، الذي بصلواته نستحق جميعا للدخول الى ذلك الموطن الفائق الوصف والكلي البساطة آمين .

الربان جبرائيل الوافه

كان هذا الربان جبرائيل من قرية بابوسا (بوزان) . واقتبل الثوب المقدس في دير القديس الربان هرمزد . ثم قدم الى الربان موسى وطلب منه ليتحول عنده . فامره القديس بان يكمل اولا مدة الابتداء في الدير الذي أحتفل فيه برتبة حلق الرأس .[1] فمارس الابتداء مدة اربع سنوات ، وبعدها انتقل الى دير باصياري . فانضوى تحت ارشاد الربان . واشار عليه الربان بان يمارس هناك ايضا الابتداء كاملا .

وبعدما عمل سنة في الرحى . كلفه القديس بخدمة الهيكل قائلا له : اذهب ياجبرائيل الى خدمة الهيكل حتى الموت ، لان ارادة المسيح هي ان تعمل فيه قدامه طوال ايام حياتك .

وقد تم قوله فعلا . اذ لازم خدمة الهيكل حتى يوم وفاته . وخدم مذبح الرب قرابة خمس وثلاثين سنة باجتهاد يفوق الوصف . ولايمكن التعبير عن الجهود التي بذلها في خدمته . ولم يتلفظ بكلمة واحدة قدام المذبح طيلة زمان خدمته للمذبح . ولكنه عندما كان يريد ان يكلم احدهم ، كان يرمز له ويخرج معه خارج الهيكل . وهناك يكلمه بما يشاء ثم يعودان الى الهيكل . ولم ينطق بكلمة اثناء حمله الصينية والكأس . وفي كل مرة يقترب من المذبح لرفع الصينية اوالكأس ، او لاعادتها اليه ، كان ينحني امامه عدة

١ـسياتي الكلام عن هذه الرتبة في الفصل الثامن من الكتاب .

مرات . ولم يكن يقعد على الارض حالما يبدأ باعداد خبز القربان والى حين اقامة القداس في الساعة التاسعة . ولما كان التعب يثقل عليه ، فينوي الاستراحة قليلا من سهره ، كان يتكئ على التنور ويخطف غفوة من النوم واقفا على رجليه . انه لم ينطرح على الارض ولم يمدد رجليه قط . حتى ولااثناء المرض الذي توفي به ، والى ساعته الاخيرة ، حين امسكنا به ومددناه امام الصليب .

ولم يملك قدرا لطبخ الطعام طيلة الخمس والثلاثين سنة التي قضاها في الهيكل . بل كان له صحفة واحدة فقط . وعندما كان يأتيه احد ويريد ان يعد له طعاما ، اوأي شيئ آخر ، كان يسكب ماء في الصفحة ويضعها في التنور . ثم يلقي في صحن قطعا من الخبز اليابس ، ويبذر ملحا عليها ، اوقليلا من الطرخون ، [1] وشيئا من دهن الزيت ، ويسكب عليها الماء الذي في الصفحة . وهذا كان طعامه .

انه لم يحل زهده قط ، حتى ولا اثناء مرضه المميت . وكان زاهدا بفاكهة العنب والتين حسب قانون المبتدئين . وطلية هذه المدة كلها ، لم يخفف ولم يعف نفسه عن قانون واحد من القوانين الصارمة التي سنها لنفسه ، ولم يعمل شيئا بدون مشورة . بل كان يؤدي كل مايعمله بأمر الربان (موسى) ومشورته . وكانت تطرأ عليه تغيرات كثيرة في سيرته الخفية مع نفسه .

في يوم من الايام بينما كان يقيم القداس سريا مع رفيقه ، فوصل الى (صلاة) انحناءة الحلول ، [2] في تلك اللحظة الرهيبة والمعجزة عن الوصف ، حين ينزل الروح دون انتقال ويقدس ذلك الجسد فيصبح جسد المسيح ، انخطف عقله وولج في بحر الاسرار العجيبة والالهية ، فتمايل وانطرح امام المذبح ، وظل لفترة ما فاقد الوعي . ثم استرجع وعيه ، ونبه رفيقه الذي وقف مندهشا مبهوتا ، لئلا يعرف احد بذلك . اما هو فأتى الى الربان (موسى) واطلعه على ماجرى له ، وطلب منه ليسأل المسيح لكي يسمح له بالخروج حالا الى صومعته ، لانه لايقدر على ضبط شعوره ، لئلا ينكشف امره السري مع الله . اما الربان فقال له : اذهب الان ريثما اقدم الصلاة واسأل المسيح في هذه الليلة ، ونهار الغد صباحا اقول لك بماذا يشاء المسيح .

فلما أتاه صباحا قال له الربان : ان المسيح لايريد ان تخرج من الهيكل ، لكني طلبت منه ليعطيك الصبر في خضم الاسرار التي تنكشف لك ، ولتتمكن من تقبلها ،

---

١ -الطرخون او كشك : أكلة مؤلفة من حنطة ولبن وخضروات وملح ، تكبس لمدة ايام ثم تؤكل

٢ -هي صلاة حلول الروح القدس على الخبز والخمر في ذبيحة القداس .

فتنعم بها في باطنك سريا . ومن ذلك اليوم لم يحدث له ماحدث كالسابق ، بل انه كان يتنعم في باطنه سريا ، دون ان تبدو عليه علامة غريبة .

حكى لي الربان جبرائيل نفسه انه قصد في يوم ماصومعة الربان موسى ، والاخوة مجتمعين لديه كالمعتاد . فوقف معهم في الصلاة . وبعدما انهوا صلاتهم ، وتبادلوا السلام كعادتهم ، وكان الربان موسى واقفا قدام الصليب على رأس تلك الطغمة المباركة، مر هو ايضا ليتبادل السلام ، فقبّل الصليب وعيناه شاخصتان الى القديس حتى وصل اليه ، ولما وقف ازاءه غاب القديس عن نظره ، فمكث مندهشا في مكانه . وظن انه تباعد لسبب ما ، فاخذ يجول بنظره منتظرا ليراه ويصافحه ، وظل هكذا لفترة ما ، ثم قال له القديس : لماذا لاتبادر بالسلام ياجبرائيل؟ . وعلى اثر قوله ظهر له القديس واقفا في مكانه ، فبادره بالسلام متعجبا مما جرى . ولما انفرد لوحده اقام الصلاة ليطلعه الرب على سره ذلك ، فتبين له شبيها بما جرى للرب مع مريم (المجدلية)[1] عندما قام من القبر ، فانها لم تره وتعرفه الاحين تكلم معها ودعاها باسمها : مريم ! . وكذلك القديس في حالته الروحية ، لم يره هذا الطوباوي الذي وحده احس بما جرى ، الا لما دعاه باسمه : جبرائيل ! .

وروى لي هو نفسه انه لما دنت وفاة القديس ، بكى قدامه وقال له : لعهدة من تتركني في هذا العمل الشاق الذي كلفتني به؟ . فقال له القديس بعد حديث طويل : اذا دعتك حاجة ما ، فهلّم الى مقر الراحة حيث يسجّى جسدي ، واطلعني على حاجتك .

ويقال والقول صدق انه في ليلة ماجرى للربان جبرائيل امر عسير ، فصلى امام ضريح القديس وكشف له امره ، فاتاه صوت من داخل الضريح حاملا اليه الجواب الشافي .

قضى هذا الطوباوي في الهيكل بهذه الخدمة الجليلة والملائكية والفائقة الطبيعة ، مدة خمس وثلاثين سنة كما ذكرت اعلاه ، ولم يتخلّ عنها الى ان دقت الساعة ، فحملوه واخرجوه كما قال له القديس .

وليلة اصيب بالمرض الذي مات به ، راى راهبان تقيان رؤيا عجيبة متشابهة ، وكان احدهما الربان داود المرداوي الذي ذكرته سابقا . وفي نفس الليلة أتاني وحكى

١- يوحنا ٢٠:١٦ .

لي مارآه . فقد راى وكأن الهيكل الكبير في الدير قد سقط ، وليس بامكان احد من الموجودين ان يقيمه كما كان . وفي صباح اليوم التالي اصيب الربان جبرائيل بمرض ، فحُمل الى صومعة اخيه (الربان يوسف) . فعلمت حينئذ ان الرؤيا التي رآها هذا الاخ تشير الى موت هذا الطوباوي . اما الاخ الاخر واسمه حنّون الذي راى هذه الرؤيا ، فبعد ايام حكى لي رؤيا سقوط الهيكل ، مشيرا الى موت خادمه الهمام .

واثناء مرضه قال الربان جبرائيل امام الاخوة الحاضرين لديه : اخوتي ، يشهد لي المسيح الشاهد الحق ، انني في هذه الخدمة التي أديتها امام مذبحه ، لم اسمح لنفسي بالأكل حتى الشبع ، ولا بالشرب حتى الارتواء ، بل كنت آكل واشرب لسد الرمق لاغير .

ولما شاء المسيح ، فانتقلت نفسه الزكية اليه ، ليدخلها الملكوت ثواب الأتعاب التي تحملها في خدمته امامه ، وحُمل جثمانه الى الهيكل بالاكرام اللائق به ، كشفت حينئذ مافي قلبي لرئيس الدير وللشيوخ ، وهو ان يدفن جثمان القديس في غرفة الشمامسة الواقعة مابين الهيكل وبيت الشهداء ، فوافقوا هم ايضا على ذلك .

وحينما شرع البعض بحفر القبر في المكان الذي اشرت اليه ، روى لي احد الاخوة رؤيا رآها عن ذلك المكان فقال : رايت قبل ثلاثة ايام وكأني دخلت غرفة الشمامسة هذه ، وكأن هيكلا صغيرا وجميلا جدا قد بني فيها ، واذا برجل عليه ثياب بيضاء جالسا فيه ، فسألت الرجل : لمن هذا الهيكل؟ . فقال الرجل : ان ماتراه قد هيأة الرب للربان جبرائيل الوافه . وامسك ذلك الرجل بيدي وادخلني الى غرفة الشهداء . فرأيت عشرة رهبان مزينين بحلل وجالسين بانتظام . فقال لي الرجل : ان هؤلاء القديسين الذين تراهم جالسين ، ينتظرون قدوم الربان جبرائيل اليهم . فاسمع انت ايضا يابني ، فان لديك الجص الذي به يكملون بناء مقر راحته . فعمل الاخ كما أمر به ، وقدم الجص الذي لم يكن يوجد الا عنده ، فبني القبر به . وانتقل (جبرائيل) من الحياة الزمنية نهار الاثنين التالي للاحد الذي تتلى فيه ترتيلة : «كنيستك من القدم» .[1] وفيه يقع تذكار القديس الربان ابن يلدا ، وبعد سنتين لوفاة الربان (ابن يلدا) . طيب الله ثراهما ، وصلواتهما علينا امين ثم امين .

١-وهو الاحد الثاني من «تقديس الكنيسة» حسب تقويم كنيسة المشرق .

مقال مقتضب يتطرق بنوع عام الى دير باصياري

والاخوة الذين أقاموا فيه

ان العناية الربانية الضابطة الكل ومدبرة الكل بحكمة ، معتادة على ان تختار وتفرز في كل جيل وزمان شعبا وبلداً ما لتبين فيهما بوضوح قدرة الخالق العظيمة واهتمامه بالجميع . فتظهر حينا بنوع عام في شعب وبلد واحد ، وحينا آخر بنوع خاص في اناس مختارين من ذلك الشعب وفي مكان معين من ذلك البلد .

كما اختارت في البدء بقعة عدن عموما ، وميزت الفردوس خصوصا ، ومن سكانه الاتقياء آدم وهابيل واخنوخ ونوح واشباههم . وفي زمان آخر اختارت ابراهيم واسحق ويعقوب ، ثم الشعب الاسرائيلي عموما وارض الميعاد التي يُظن أنّ الله يسكن فيها وحدها ، وانه يبسط عنايته على شعبها ويخصهم بمحبة هم وحدهم فقط . وبعدما اختار هذا الشعب عموما ، اختص له منه سبط يهوذا بشخص داود الطوباوي ، وصهيون التي فيها ملك الطوباوي داود .[1]

ولما اشرق على الخليقة شمس البر بنوره الساطع ، اختار الشعب المسيحي عموما ، وفرز منه الرسل خصوصا ، واستعاض عن صهيون بعلية الرسل ، وعن اورشليم بانطاكيا التي كان فيها اخوة كثيرون ، وكانت مزدانة بكل الجمالات الروحية .

وبعد زمان وكما شأت حكمة المسجود له من الكل ، فرزت الحكمة قفار صعيد مصر والرجال الافاضل الذين اقاموا فيه ، وفيه ظهرت حقا قدرة الله اللامحدودة . وهكذا ، لئلا يطول بنا الكلام ، الى ان سطع في المشرق نور القديسين الذين تلألأوا فيه . ومنهم تلاميذ مار اوجين ،[2] ومار ابراهيم الكبير ،[3] والاخوة الذين

١-ان الكاتب ياتي هنا بمفاهيم تاريخية حسب نظرته الخاصة قبل ألف سنة ، مستندا الى معطيات من العهد القديم خاصة ، تحت نظرة دينية بحتة .

٢-مار اوجين هو حسب التقليد الشرقي مؤسس الحياة الرهبانية في كنيسة المشرق ، لذا اعتبره رهبان هذه الكنيسة أباهم الكبير .(كلدو واثور ، جـ ٢ ، ص ٣٣-٣٩) .

٣-مار ابراهيم الكبير (٥٠٣-٥٨٨) مؤسس الدير الشهير في جبل الأزل ، على بعد ٤ ساعات الى غربي نصيبين .(ادب اللغة الارامية ، ص ١٦١-١٦٤ ؛ كتاب الرؤساء صحيفة ٢١-٢٢) .

عاصروهم ، وفي جبل الأزل ايضا الشبيه بصهيون وبالعلية المقدسة . من هذه الامكنة انتشر النور في المشرق كله ، فامتلأت الاديرة والمناسك برجال اتقياء سكنوا فيها .

وبما ان العناية الربانية عملت كما اعتادت وحتى الان ، فحينا ما اختارت دير باعابي الذي اسسه مار يعقوب ، فازدهر بالف رجل ، نساك افاضل ، لم يكن هذا العالم اهلا لهم ، وحينا اخر اختارت هذا الدير او ذاك ، في هذا الزمان الاخير ، اختار الله دير ما ابراهيم في باصياري هذا ، وفرزه رافعا شأنه فوق اديرة عصرنا كلها ، وانحدر من السماء وحل فيه ، وانتهر الماردين فادبروا عنه ، فاضحي بحق اورشليم العليا ، بقوانينه وانظمته الملائكية ، وبالسير الروحية التي يمارسها الأخوة المقيمون فيه ، وبالرتب والصلوات والذبائح التي تقدم فيه للثالوث رب العالمين المسجود له من الكل .

والان نريد ان نبين ولو طال الحديث رغم اقتضابه ، كيف اصيب هذا الدير بالخراب سابقا ، وكيف تجدد وازدهر ثانية .

لما خرج مار ابراهيم الناسك مؤسس هذا الدير المقدس (من دير الأزل) وافترق عن جوقة مار اوجين ومار ابراهيم (الكبير) المباركة ، واتى الى هذا الجبل (متينا) ، شيد ديرا في هذا المكان وسكن فيه . وكان هذا الدير يدعى سابقا دير مار ابراهيم الناسك المجاور لباصيّاري . وبعد وفاته بزمن ما ، تبدد الاخوة المقيمون فيه ، فخرب واقفر . وهنا اسرد خبرا وهو :

في يوم من الايام مر الربان يوسف مؤسس دير اينشكي ، باسفل هذا الدير ، واذ رآه خربا ومقفرا قال للذين كانوا معه : ان الله سيحل قدرته على هذا الدير ويجعله شهيرا باخوة كثيرين ، وسيتم ذلك بواسطة اثنين من اعمدة النور ، وآباء ابائهما لم يولدوا بعد .

وعقب زمان مديد وسنين عديدة اقبل اخوة من دير القديس مار سبريشوع في باقوقا وسكنوا في هذا الدير . وفي تلك الايام تتلمذ للسيرة الرهبانية الربان ابن يلدا . وبعد ذلك بزمان تبدد الاخوة الساكنون فيه ثانية على اثر سطو داهم . فذهب الربان ابن يلدا الى دير مار بوختيازد في بلد زوزان ، فالتقى (هناك) بالربان موسى وهو بعد في دير الابتداء . فتآلف معه واتخذه تلميذا له ، من اجل ماسيصنعه الله بواسطتهما .

وبعد حين استقر الوضع في تلك المنطقة ، فعاد الربان ابن يلدا الى هذا الدير ، ورافقه الربان موسى ايضا .[1] فاخذ نور مآثرهما يشع في البلد كله ، وتقاطر الناس

١-من هنا نستنتج ان هذا الدير كان مهجورا وخربا طيلة القرن السابع والثامن والتاسع . فاغفل ذكره كتاب العفة وكتاب الرؤساء ، ثم اعيد بناؤه وازدهر من جديد في القرن العاشر .

قادمين اليها من كل صوب ، فبلغ عدد الاخوة في عهد الربان ابن يلدا ، ستين رجلا ، كما ذكرت قبلا ، وعلى عهد الربان موسى ثلاثمئة اخ .

ومنذ ذلك الحين تجلت فيه عناية خاصة وفريدة ادهشت الجميع واذهلتهم . فصار الدير كتلة من نور ينير هذه المناطق كلها ، بشيوخ اتقياء وكاملين واخوة حريصين ومجدين ، تفوق سيرتهم وصفنا الباهت نحن الجهال .

فأن نسك تلاميذ انطونيوس ، وزهد تلاميذ الابنا بولس ، وتقشف تلاميذ الابنا مقاريوس ، وتوحد تلاميذ الابنا ارسانيوس ، وصيام وجهاد تلاميذ الابنا باخوميوس ، وبساطة تلاميذ الابنا فاولا ، وتواضع تلاميذ الابنا موسى ، ومحبة ووفاق تلاميذ الابنا فومن ، مع كل جمالات تلك السيرة التي كانت تعاش في الصحراء ، تجلت وكملت وتمت في هذا الدير ، وتحققت بالفعل والواقع . وكما ان في الجسد اعضاء كثيرة ، ولكل عضو عمل خاص به ، وجميعها ملتحمة ومرتبطة بالرأس ملكها ، والانسان مع ذلك جسم واحد ، كذلك مختلف انواع الفضيلة التي تتصف بها سيرة الكمال في الحياة الرهبانية المقدسة ، كانت مجتمعة في هذا الدير . فكان كل واحد من الاخوة يولي اهتمامه بمجهود خاص اكثر من رفيقه .

فهذا بالصوم التام ، وذاك بالسهر الطويل ، وهذا بالصلاة المتواصلة مع انحناء وتضرع كثير ، وذاك بالقرأة الحكيمة ، وهذا بالعمل الفكري ، وهذا بالصلاة الروحية ، وهذا يتفوق بهذه وذاك يسبقه بتلك .

وكانوا جميعا منضمين متحدين مرتبطين بذلك الانسان المقدس ، ويؤلفون جسم الرهبنة الواحد المزدان بكمال الحب الالهي ومحبة البشرية . كانت شريعة الصيام تلزم المبتدئين بان لايتناولوا الطبيخ ولا الخضر ، عدا ايام الاحد ، فما اذا أعدّوا طبيخا بسيطا لاغير . وكان البعض منهم يأكلون (منه) والبعض لا . وكانوا منقطعين ايضا عن أكل العنب والتين وغيرها . ويحكى مايلي :

(حادثة الكمثرى)

في يوم ماعاد احد المبتدئين من كرم الدير ومعه كمثرى كبيرة وجميلة ، فاعطاها لمبتدئ آخر كان يحبه ، وهذا قدمها لآخر ، وهو بدوره قدمها لرفيقه ، وهكذا تنقلت بين ايدي المبتدئين جميعا ، ورجعت الى المبتدئ الذي جلبها . فاخذ الثمرة واتى بها الى القديس الربان موسى ، وحكى له ماجرى ، وكيف ان الثمرة مرت بجميع المبتدئين ولم يكن من يأكلها . فاخذ القديس الكمثرى ودخل صومعته ، ووضعها شهادة امام الرب

وشكره على هؤلاء البنين الذين وهبهم له . فمن حقه ان يصرخ بثقة وبلا وجل ويقول : «ها انني والذين اعطيتهم لي ، هؤلاء الابناء الابرار وذوي الهمة في كل شيء» .[1]

بهذا الصيام والصلاة الدائمة والاتضاع والطاعة الواعية ، كانوا يكملون باجتهاد تمرسهم في الابتداء ثم يخرجون الى صوامعهم . فكانوا ينطلقون بيسر على درب العزلة الوعر ، فتهون عليهم مافيه من صعاب . فان جميع الاخوة سوى القلة منهم المكلفين بخدمة الجمعية واخوتهم ، كانوا يقيمون في عزلة صوامعهم . وفي بداية الاسبوع ونهايته ، كما وفي الاعياد الربانية والتذكارات المعينة ، كان الشيوخ والصومعيون يجتمعون في صومعة القديس ، فيتلون القرأة المقررة ، ويقيمون صلاة الاوقات الثلاثة ،[2] والاسرار ايضا (القداس) ومزامير العصر . وفي وقت الغذاء كان الاخوة كلهم يجتمعون الى المائدة في الغرفة التي خصصها لهم ، ويتناولون معا مما رزقته النعمة ، بمودة ومحبة شاملة .

حكى لي الربان (يوسف) انه لما كان الربان موسى يريد ان يسهّل عليه خدمة الناس التي ألزمه بها ، وان يؤديها بدون تذمر ، قال له : في عهد الربان ابن يلدا كانت تهيأ مائدة للاخوة ليلة الاحد لليوم التالي . فدعاه الربان ابن يلدا يوما ما وقال له : لايمكنني غدا الحضور الى المائدة ، فانت كل هنيئاً مع الاخوة واصرفهم بسلام . فقال له الربان موسى : انهم يأتون لرؤيتك والاستئناس بك ، فكيف لاتحضر معهم؟ . وبما ان الربان ابن يلدا كان رجلا كاملا في الامور الروحية ، بحيث كان يصعب عليه النزول الى مستوى الامور الدنيوية ؛ ضجر من هذا القول ، فاجابه بحدة : انا لا آتي ، رح! . ثم عاد الى موضعه .

ولما قرع ناقوس الغذاء ، اقبل يدعو الربان موسى بصوت خافت قائلا له : نعم يااخي ها انني حاضر الى مائدة الاخوة ، لان مهماز المسيح أنّبني بشدة من وقت ماقلت لك لااحضر . ترى بماذا نجيب ذاك الذي يريد ان نكون خداما وعبيدا للناس! .

ان القوانين والانظمة التي سنّها القديس للدير ، لم تكن مغايرة بشيء عن تلك التي كانت للانبا باخوميوس ، لابل والحق يقال ، انها كانت شبيهة جدا وعلى قدر المستطاع ، بانظمة الملائكة الطغمات الروحية . في رئاسة القديس وبعد وفاته ايضا ، والى زمن هذا التغير الذي طرأ على العالم بعد وفاة الربان يوسف ، وجد في هذا الدير

١- اشعيا ٨:١٧-١٨ . بتصرف .
٢ - سياتي الكلام عنها فيما بعد .

اناس اتقياء شيوخ بلغوا الكمال ، واخوة متمرسون ، لم يكن هذا العالم أهلا لسجاياهم الحميدة التي لايمكن وصفها . ولم يكن لي الاهتمام قبلا بالاستخبار عنهم والاطلاع على سيرتهم . اما ماذكرته وسأذكره في هذا التاريخ ، فقد سمعته من الربان (يوسف) عن البعض منهم . والبعض الأخر كنت شاهد عيان لاعمالهم ؛ مكتفيا بالقليل نزولا عند طلب ذاك الذي ألجأني الى الكتابة .

لما دخلت انا الوضيع هذا الدير شاهدت فيه مئتين وسبعين رجلا . منهم مبتدئون يعيشون الحياة المشتركة ، ومنهم خمسون أخا يمارسون قوانين الزهد التي وضعها الربان موسى . وكانوا لاينقطعون عن الصلاة الدائمة رغم اعمالهم المضنية . ومنهم مئة وخمسون اخا صومعيون متفرغون للصمت ، من بينهم حوالي ثلاثين شيخا افاضل واخوة ذوي خبرة تؤهلهم ليكونوا مؤسسي اديرة وقادة ومرشدين ، اناس كانوا في العالم ، اما بسلوكهم وافكارهم فكانوا فوق العالم وفي السماء ساكنين .

والباقي كانوا يتناوبون على الخدمة والقرأة والصلوات (الفرضية) . فالبعض كانوا يقومون للصلاة في الساعات الاولى من الليل ، ويستريحون في ساعاته الاخيرة ، والبعض الاخر كانوا يأخذون اولا قسطا من الراحة ، ثم ينهضون لاقامة الصلوات الحارة حتى الصباح . وهذا كان دأبهم في النهار ايضا . فمنهم يتقدمون للصلاة ويتأخرون للقرأة ، ومنهم يقدمون هذه على تلك ، لكي لاتنقطع بهذه الطريقة لحظة واحدة خلال ٢٤ ساعة ليلا ونهارا ، الصلاة اوالقرأة ، الترتيل اوالتهليل ، كما هي الحال في كنيسة السماء . وهذه شبية بها . حيث لاينقطع فيها ابدا تمجيد الهنا له السجود .

وكان المرء يشتمّ من كل جنبات الدير ، عرف الذبائح العطرة المرضية لله ، رائحة ذكية للرب ، تعطر النفوس وتنعشها في تقوى الله . ومع اشراقة الصبح كل يوم كانت تُفتح في الدير اكثر من مئتي نسخة من كتاب العهد الجديد ، الذي يذكّرها بنعم الله التي سكبها علينا في حياة ابنه ، فتقدس النفوس بكلماتها وتحرك وتوقظ الناطقين وغير الناطقين الى تمجيد المسيح على محبته لنا .

فلدى دخول المرء الى الدير ، سواء كان مؤمنا من اهل البيت ، او غريبا من ديانة اخرى ، كان يقف مندهشا معجبا بالاصوات المتدافعة من جميع الصوامع ، كأنها رنين النحل في نخاريبها .

فمن هنا يسمع صلاة . ومن هنا تلاوة ، ومن هناك تضرعا وبكاءً ، ومن تلك تمجيدا وشكرانا ، اصوات بعضها مسرورة وغيرها حزينة ، مختلفة متنوعة ، وكان

يرتوي بما يستنشقه من العطور الذكية ، فيسهو عن نفسه ، وفي دهشته هذه يشعر وكأنه قد انتقل الى اورشليم العليا .

من يمكنه التحدث عن الفضائل التي كانت تمارس في هذا الدير . ان اليراع لعاجز حقا عن وصفها لانها فوق الوصف والسماع . فمن لايأخذه العجب لدى رؤيته ذلك الجمع الملتحم بالوفاق التام والحب الالهي ، بحيث كان كل واحد منهم مستعدا لبذل ذاته عن رفيقه بمحبته المخلصة له ، بكل تواضع ومخافة الله .

وبما ان الشيطان يفرح اشد الفرح بالخصام الذي يقع بين الاخوة ، ولم يكن له اقل اثر في هذا الدير ، فقد كان في اقسى الضيق والغم ، لرؤيته جماعة من الناس الضعفاء والمعرضين للاهواء ، يعيشون كالملائكة الروحين والكاملين ، بوفاقهم المتبادل ، بمحبتهم التي لاتطلب ماهو لها ،[1] بتواضعهم المسيحي ، برأفتهم الالهية الشبيهة برأفة الرسل ، التي لم تدع فيهم احدا في عسر وآخر في يسر ، بل كانت كفاية هذا تساعد حاجة ذاك ، لتقوم بينهم المساواة التي ارادها بولس .[2]

ولكن ما لي والى متى اجهد النفس باوصافهم العديدة التي لاتحصى ، وقد قطعت وعدا على نفسي باقتضاب الحديث عن فضائل تلك الجماعة الروحانية ، وهذا تبركا لاغير .

ومع ذلك ، لايحق لنا ان نغفل عن ذكر البعض ، اولئك الذين سمعت عنهم والذين شاهدتهم ايضا ، ووعدت بان اعطر حديثي بقصصهم . اما الكثيرون الذين لم ارهم ولم اسمع عنهم ، لاني لم اكن مهتما بذلك فيما مضى ، فاني اتركهم تحت ستار الصمت ، ولمعرفة المسيح الذي سطّر ذكرهم في سفره ، ولن يزول مدى الدهر .

الربان يوزاذق[3]

روى لي الربان (يوسف) عن شيخ تقي يدعى الربان يوزاذق . وكان حقا مثل سميّه عمودا من نور . اذ لم يجلس على الارض بتاتا ، لافي الليل ولا في النهار ، بل كان يقف على رجليه دائما ، ويمشي مصليا مرنما ، اويصلي بالفكر الصلاة التي تتلى في الموطن الذي لاموطن فيه ، والتي يقتضي لها جسد شفاف وروحي كهذا الذي قد تحرر من الثقل

١- اولى قورنثية ١٣ : ٤ .

٢- الثانية قورنثية ٨ : ١٤ .

٣- كلمة عبرانية تعني : الله يبرر .

الضاغط الى اسفل ، ومما يجذبه الى الاستلقاء على الارض ، والذي يمكنه الاقامة في الموطن الاعلى الذي يرتفع اليه .

فسألت الربان : وماذا كان يعمل لما كان الجسد يطالب بحاجته؟ . فاجابني : كان له قطعة من خشب ، يسند ظهره اليها حينما يريد ان يرتاح قليلا ، اذ يغلبه النوم ، ولامفر من ان يستسلم له لفترة قصيرة ، فيظل واقفا على رجليه بهذا الشكل ، وهذه كانت راحته لااكثر.

وعلى هذا النمط من السيرة عاش لسنين طويلة ، متفوقا على الروحيين بكثير ، لانهم قادرون على ذلك بطبيعتهم المتحررة من الجسد الذي يجذب ويلقي بثقله الى اسفل ، ويطلب حاجته بقوة وارغام . اما الجسداني الذي لم يتحرر بعد من صفاته الطبيعية تماما ، وان كان قد تحرر جزئيا بفضل الله ، فمن المذهل والمعجز حقا ان يصبر كالروحي على الوقوف الدائم ، هذا الوضع الذي قد لايصدقه الشكاكون . ولما اصيب هذا الشيخ بالمرض الذي توفي على اثره ، ذهب الربان ليعوده في مرضه ، وكان هو كعادته واقفا على رجليه ويخطو ذهابا وايابا ، قال له الربان : اجلس هنيهة لأراك! . فقال له الشيخ : لعله خفي عنك ايضا ان هذه عادتي وفريضة علي ، فلا اطيق الجلوس على الارض الى ان تنتقل النفس ، وحينئذ يسقط الجسد ويستريح .

وظل كعادته واقفا على رجليه ، الى ان حانت الساعة ، فسقط على الارض دون ارادته امام الصليب . ولما وقع راى ملائكة واقفين قدامه . فقال لهم بصوت عال : لماذا تركتم (نفسي) الشقية تتيه هنا وهناك؟ . تقدموا وخذوها لنمضي في طريقنا . فتقدم الملائكة واخذوا تلك النفس الزكية ، وارتفعت معهم الى موطن النور ، حيث يسكن القديسون ابناء النور .

الربان بابي

وسمعت امورا عظيمة تحكى عن شيخ آخر يدعى الربان بابي . فانه كان يطالع الكتب ليلا بلا ضوء وكأنه في النهار . لان القوة الثالثة في نفسه وهي قوة الفهم اي الادراك ، كانت قد تطهرت ، وصفت عين فكره فصار على مثال فطرة آدم ، ولم يكن فيها بحاجة الى النور المحسوس ، بل كان يرى بذلك النور العقلي ، وبه يقرأ في ظلمة الليل بدون نور مركب من مادة .

ويقال عنه ايضا انه كان يعقّب على كل جملة يتلوها بانحناءات حادة . وكان الربان موسى قد وعده بان يدُفن هنا عن يمينه ، كعربون بينهما ، ريثما يقيمه هناك قدام

المسيح مع الذين هم عن يمينه . وتحقق وعده فعلا ، فوضع بطريقة عجيبة عن يمين القديس .

(آخرون)

وقد سمعت عن الربان اسرائيل التناوي والربان سهدا المنشاوي ، والربان حزقيال والربان يشوع الحديثي ، قصصا متنوعة ومدهشة ، لا يسعني الكلام عنها كلاً على حدة . فقد بلغوا الكمال ، وكانوا رجالا لا يستحقهم العالم ، لانهم قاموا باعمال عظيمة ومجيدة ، وساروا سيرة روحية فائقة الطبيعة ، بحيث كان يندهش بهم كل من يراهم ، ويمجد الله الذي نصرهم .

الربان داود

من لم يكن يندهش لدى رؤيته ذلك المتواضع الحقيقي الربان داود الداسني ، ذلك الأنيس والطيب المعشر ، الذي كان محياه يشع دوما بنور الهي مثل الطوباوي موسى (النبي) الذي كان حليما اكثر جميع الناس الذين كانوا في زمانه .
بالحقيقة لما كنت اجلس اليه واتحدث معه ، لم اكن اجد فرقا فيما لوكنت احدّث ملاكا وارى روحانيا .
فقد كان حبه عذبا ، ومعشره طيبا ، وكلامه لطيفا ، ولقاؤه طافحا بسكينة تنعش النفس ، ومحياه بشوشا ، وشيبه وقورا .
فمن ذا الذي لم يكن يتمنى اللقاء به ، او من ذا الذي كان يشبع من التحدث اليه !-
ومن بدء جهاده سن لنفسه قانونا ، وهو ان لا يعطي النوم لعينيه في الليالي ، كما شهد له ايضا الربان موسى وقال : ان داود جندي همام للمسيح ، وساهر يقظ وحريص في سهره المنتي . وبعدما تكلل بالنصر في جهاده ، وتتوج بتاج الابناء الاحرار ، وصعد من الميدان مسرورا بقانون السهر الذي التزم به وسار فبلغ النهاية .

وبما ان السهر المتبصر ينقي النفس ويطهر قواها - فقد عادت نفسه الزكية الى برارتها الفطرية ، وصارت تعمل باقسامها اي بقواها حسب الفطرة . ولهذا السبب اكتسب ذلك التواضع العميق ، والفرح والمحيا الذي كان يشعشع بسناء الهي . لان قوة الشهوة اذا تحركت في الانسان حسب فطرتها ، فان وجهه يشع بالنور الذي يشرق عادة من محبة الخير والصلاح . وكذلك قوة الغضب اذا تحركت حسب خواصها الفطرية ، فان الانسان آنذاك يكتسب التواضع البصير والوداعة مع الجميع . كما وان

القوة الثالثة التي هي الفهم ، اذا ما عادت الى فطرتها ، بمعرفة الطبيعة من جديد ، فانها تفعم الانسان فرحا وطيبة مع الجميع وللجميع على حد سواء[1].

وبما ان هذا الطوباوي تمرس بوعي على السهر الحريص والمنقّي كما قلت اعلاه ، فانه ازدهى بالتواضع والفرح وما شابه ذلك.

(ماراسحق النينوي والربان يوسف الرائي)

روى لي اخ وصدقت كلامه الذي وقفت على صحته عن تجربة فقال :

كنت اضطرم حبا ومودة لاثنين من اعمدة الجماعة الرهبانية المقدسة ، اعني بهما مار اسحق اسقف نينوى ، والربان يوسف الرائي ، لدى مطالعتي تآليفهما العجيبة والفذة. وكان انشغافي بهما يزداد اتقادا ، فطلبت من الله الغني بمواهبه التي يفيضها مجانا وبلا اثرة على الذين لا يستحقونها كما على الذين يستحقونها ، ان يريني هذين القديسين ، وكيف كان مار اسحق يجلس ويكتب عن الاسرار التي دوّنها في رسائله ، لعل نفسي المعذبة بشوقها اللاعج ترتاح قليلا.

وبما ان الله رحوم وكثير النعمة ، ولا يعطي مواهبه حسب استحقاق السائلين ، بل حسب محبته الفائضة النعم ، فيستجيب الطالبين وان كانوا غير مستحقين ، وبهذا تُعرف محبته للجميع ولطفه مع الجميع ؛ فانه لم يرفض لهذا الاخ طلبه ، ولكن اظهر له حسب رغبته الروحية هذين القديسين ، ليس كما في الحلم ، كلا ، بل في رؤيا خاصة وفكرية ترى بوضوح . وان صح القول لقلنا ، انه رآهما حقيقة وبدون ادنى تبدل . فقد رأى القديس الربان يوسف الرائي كما احضره الله في صورة فكره شبيها بهذا الشيخ الربان داود ، في بهاء طلعته وقامته ، وفي كل شيءٔ ، اعني في وداعته وبشاشته وسناء محياه ، ونظره المخفوض الى اسفل ، وطلاوة لسانه ، وفي لباسه ايضا ، وفي كل شيءٔ كما قلت .

اما وقد اظهر الله هذا الشيخ للاخ المذكور فرآه ، فهذا لا يعني ان الربان يوسف مماثل له ، انما حين اظهر له القديس الربان يوسف ، شبّه اوصاف هذا الشيخ باوصاف القديس ، اي ان صورة الربان داود هذا كانت شبيهة بصورة القديس الربان يوسف الرائي .

---

١ –ما رأي علماء النفس المعاصرين ، في هذه التحاليل النفسية الدقيقة ، التي توصل اليها راهب بسيط عاش في عزلة صومعته ، قبل الف سنة ؟!.

كما واظهر الله (له) ايضا القديس مار اسحق بذاته ، وكما هو بالصورة التي اراها لي والمطبوعة في فكري .

ان هذه الرؤيا رواها لي هذا الاخ الصادق ، فدوّنتها هنا ليعرف منها المرء عظمة هذا الشيخ الذي نتحدث عنه .

وقبل وفاته بايام قليلة ، رأى اخ ما حكاه لي قائلا : رأيت رجالا قديسين متسربلين بنور ساطع ، وهم يخرجون من بيت الشهداء ، حاملين معهم الانجيل والصليب ، ومراوح واغصان السعانين ومباخر وقناديل كثيرة ، وهم سائرون في الطريق المؤدي الى صومعة الشيخ . فقال هذا الاخ لواحد من اولئك القديسين : سيدي ، الى اين يذهب هؤلاء القديسون ؟ . فاجابه قائلا : انهم منطلقون في طلب الربان داود . وفي تلك الايام انتقلت نفس الشيخ من جسده ، وارتفعت الى موطن النور الذي يسكنه القديسون الى يوم النشور . اما جثمانه فوضع في بيت الشمامسة المذكور آنفا . اسعد الله ذكره ، وصلواته علينا جميعا امين .

الربان يشوع (المنشاوي)

كما وياخذني الدهش لدى تذكري ذلك الشيخ الممتاز بصلاح سيرته الربان يشوع المنشاوي[1] ، الذي كان كيانه كله مضطرما بنار الحب الالهي ، وكان شكله شكل ملاك حقا ، حتى ليخجل من ينظر اليه إلاّ بدالّة المحبة .

فهذا دخل في سلك الرهبنة على عهد الربان ابن يلدا . ويحكى عنه انه كان يرى الملائكة ينزلون الى صومعة الربان ابن يلدا ويخدمونه . وبعد وفاة القديس ، راى الملائكة انفسهم ينزلون الى صومعة الربان موسى للخدمة عينها . وقد كشف هذه الرؤيا للربان موسى قائلا له : ان الملائكة الذين كنت اراهم نازلين الى صومعة الربان ابن يلدا معلمك ، أراهم ينزلون ايضا الى صومعتك ليخدموك كما خدموه . فمنعه عن كشف هذه الرؤيا ما دام على قيد الحياة . وهو كتم هذا السر حتى وفاة القديس . كان هذا الشيخ قد اصيب بداء الشلل ، بسماح من التدبير الالهي الذي تخفى معرفته الدقيقة حتى عن الكروبيم والسرافيم . ومضى عليه اكثر من عشرين سنة دون أن يمشي على رجليه . وكبديل عن مصابه هذا ، اعطي له فرح وسرور لا حد لهما . فكان دائما يعيش هذا الفرح مبتهجا مسرورا . وكان لا يشبع من تمجيد الله بمسرة لا توصف . ولما كنت احضر لديه للتبرك منه ، فأراه يطفح بهذا الفرح والسرور ، كنت ادهش بتنوع تدابير الله مع قديسيه ، فكنت اقول له مبتسما :

١-نسبة الى قرية منيانش الواقعة في منطقة بروار ، قضاء العمادية .

ترى مما ينبع فرح قلبك وسرور نفسك ، وبماذا يقوم ؟ . فكان يجيبني : ان فرحي يأتي من الله ، وقلبي يبتهج بالمسيح ربنا الذي اعطاني ان أراه في قلبي وأسر به الى حد لا يمكنني فيه من السيطرة على نفسي ، كما تراني الان ويراني غيرك . وهذه حالي دائما ، لان رؤيته لا تغادر فكري لا ليلا ولا نهارا . وهذه هي حقا الدرة التي يجدها الانسان في حقل نفسه ، ومن فرحه بها ينسى ويرذل كل ما في العالم ، ويصبر على المشاق كلها من اجلها[1] . فكنت امجد الله الذي يوزع مواهبه بطرق عجيبة على اصفيائه .

في يوم من الايام دخلت اليه انا واخي ، اسكنه الله في موطن الابرار والصديقين ؛ فقال الشيخ لاخي : بما ان الأمير الذي ترافقه انت ، تجرأ واخذ الجزية من الرهبان . فانه سينال عقابا لا رحمة فيه ! . فشرع اخي يلتمس منه ليردّ غضبه عن التعيس ابي تغلب[2] ، فاجابه : لا تجهد نفسك ملتمسا ، لأن السهم غادر قوسه ، ولن يعود حتى يحل عقاب الرب بهذا الجبان . وقد تمّ قوله فعلا ، ونال الشقي جزاءه . وعاش هذا الشيخ مئة سنة تقريبا .

الربان ابن حدبشبّا[3]

وكنت اعجب وياخذني الاندهاش بذلك الشيخ الربان ابن حدبشبّا الحوميدي[4] ، الذي كان محياه يسطع نورا فيضيُ كالشمس ، وكان فقيرا جدا ، لا يملك سوى قميص واحد وبديله ، ولا يقبل شيئا من احد ، ولم يتخذ طعاما مطبوخا ، بل لم يكن في صومعته إناء يستعمل للطبخ . وحينما كنت اقوم بخدمته في الدير . كان في نهاية كل اسبوع يدخلني اليه لأستأنس معه . ولم يكن له شيُ يقدمه لي عدا الخبز والملح . فكنت أدهش بتجلده ، وامجد الله على القدرة التي يعطيها للبشر الترابين . فيصبرون ويتجلدون على مثل هذه الاعمال التي تفوق الطبيعة . في نهاية سابوع مار ايليا[5] ، خرج كعادته لتناول الاسرار المحيية ، وجسده سليم لا اثر فيه لمرض . وبعد تناول الاسرار مكث في مكانه خلافا لعادته . فرآه الوافه ، فتقدم نحوه ليرى ماذا جرى

١- متي ١٣ : ٤٤-٤٦ .

٢- راجع صحيفة ٥٦ ، الحاشية ٣ من الكتاب .

٣- معناه : ابن الاحد .

٤-نسبة الى قرية حوميدا التي لم اتمكن من العثور على موقعها .

٥ -سابوع ايليا يشتمل على عدة اسابيع سابقة ولاحقة لعيد الصليب الواقع في ١٤ أيلول حسب تقويم كنيسة المشرق .

له ، اذ رآه واقفا يحدق اليه خلاف العادة . فلما اقترب الوافه منه ، صافحه الشيخ وعانقه بحرارة وقال له والبسمة تطفح من محياه : وداعا ، صلِّ من اجلي ، لأنني منطلق في طريق ! — ثم خرج مسرعا ، ولم يمهله ليسأله الى اين ينوي الذهاب . وكان له صديق ، التقى به هو الآخر على درب صومعته ، فقال له ايضا : وداعا ياأخي وداعاً ! . واسرع بالعدو نحو صومعته . فدخل وقبّل الصليب ، ورسم وجهه بالماء المبارك ، ثم استلقى بانتظام امام الصليب ، وأسلم نفسه لباريها . فاحتفى بها الملائكة بالاكرام اللائق بها ، وارتفعت معهم الى موطن ميراثها .

وبعد قليل وافينا الى صومعته ، ودخلنا فوجدنا ذلك الجسد المقدس مسجىً امام الصليب بوقار مهيب . فرفعنا المجد لله على ما رأينا وسمعنا من الوافه ، وشكرناه على عنايته التي يحيط بها قديسيه .

الربان اسحق

ذكرت سابقا في القصة التي جرت مع القديس الربان موسى ، عن الربان اسحق الشيزوري [١] العجيب بين الأفاضل ، الذي لا يكذب المرء اذا سماه ملاكا ، لانه بلغ كمال الروحيين بمقدار ما هو مستطاع للجسدانيين .

فقد كان قويا في جسده ، وفي نفسه ايضا بافكار مخافة الله ، وقضى على الخصام الذي بينهما بفضائله الألهية . وتفوّق في جميع مسالك الجسد والنفس والفكر ، باذلاً في سبيل ذلك اقصى الجهود المضنية . وبعد هذه الاتعاب الجسدية والنفسية التي افلح فيها ، توصل الى مرتبة الفكر النافذ . فتجرد عن العالم تماما ، حتى انه لم يكن يتحمل وجود شيء معه في الصومعة ، بحيث لو دخلها المرء لما وجد فيها شيئا من اللوازم الضرورية التي لا بد منها للجسدانيين ما دامت غربتهم هنا على الارض .

اما مستلزماته القصوى فكان يقوم بها له شقيقه الربان حاي ، ذلك الشيخ الوديع والعامل الهمام والمجاهد الباسل المليء بصيرة ذهنية وروحية .

فقد كان مجرد اللقاء به يضرم المرء بمخافة الله ، لان كلامه كان لطيفا ومؤثرا باحاديثه الروحية المشوقة ، لا يشبع منها المتحدث معه . وكان شيب شيخوخته ناصعا ، ومظهره الوديع زاهيا جذابا ، لا يسكتني النظر اليه لجزيل الفوائد المتدفقة منه . وكان يمتلك ايضا الرؤية الفكرية التي كان يكشف بها مسبقا عن امور كثيرة قبل

١ -نسبة الى قرية شيزور ، وموقعها مجهول لدينا .

حدوثها . انه لم يغير شيئا في سيرة الصمت التي عاشها ، حتى ولا اثناء التغيرات التي طرأت على الدير ، وبسببها عمّت البلبلة جميع انظمته وقوانينه الالهية ؛ لكنه استمر متمسكا بطريقته ، وصبر بصمت عميق على كل ما كان يحدث له ، حتى لقيه الموت فيه ، ومنه نقله الى ملكوت السماء ، ليبقى مع المسيح ربنا مدى الابد .

الربان يعقوب

ومن ذا الذي لا يندهل بالربان يعقوب الخاوي[١] ، اذا ما امعن النظر في سيرته العجيبة والفائقة الطبيعة .

فانه منذ بداية جهاده وحتى نهايته ، لم يلغ شريعة الصيام الشديد الذي فرضه على نفسه . بل كان يذوق الطعام مرة واحدة كل يومين . وفي اسابيع الصوم الالزامية ، كان يأكل مرة واحدة لليالها مهما كان عددها . وفي الاسابيع الاخرى كان ليلة يأكل ، وليلة يقضيها دون ان يتذوق شيئا .

ولم يقبل بالتخلي عن قانونه هذا حتى في شيخوخته العميقة . ولم يكن يدخل احد الى صومعته ، لا علماني ولا راهب ، عدا ذاك الذي كان يقوم بخدمته ، وفي وقت الضيق والمرض فقط ، وليس دائما وحسب رغبته .

الربان جبرائيل

ومما يدعو الى الدهش ايضا ، ذلك العمود الذي لا يُكسر ولا يتزعزع الربان جبرائيل التاروني[٢] ، الذي اختار لنفسه الوقوف الدائم على رجليه ليلا ونهارا . ولم يكن يسمح لنفسه بالجلوس الا فترة قصيرة للراحة . وكان يصلي ويقرأ ويشتغل واقفا على رجليه ، حتى تورمت ساقاه وصارتا كمن اصيب بداء الاستسقاء .

الربان يشوع عمه[٣]

ومن ذا الذي لا يندهل ويمجد الله لدى سماعه بتجلد الربان يشوع عمه ، وتقشفه وزهده العجيب . فانه خلال خمسين سنة ونيف لم يطبخ لنفسه شيئا في صومعته التي لم يدخل اليها السمن بتاتا . ولم يذق الدهن الذي يستخرج من الخشب ، خارجا عن

١-بالأصل : شَهْيا ، وتعني المقفر ، الخاوي . ولعل الكاتب يقصد به الخاوي من الاكل والشرب ، كما يفهم من متن القصة ، فصار لقبا له .
٢- لم نطلع على موقع قرية تارونا .
٣ - معناه : يسوع معه .

مائدة الاخوة وصومعة الربان (موسى) . ومنذ اليوم الذي اقتبل فيه الثوب المقدس ، لم يذق سمن الغنم ولا غيره من المواد الدهنية . ولم يتعاط الخمر مطلقا من يوم تتلمذه وحتى وفاته . ولم يلغ زهده بفاكهة العنب والتين وغيرها حتى ولا في شيخوخته . لقد كان صلب العود في الاعمال الجسدية ، ومستنيرا جدا في نشاط الفكر والاعمال النفسية .

ان قصة حياته اسمى من ان يطالها حديثي الضعيف . فقد تحمل التبدلات المضطربة التي بلبلت الدير ، معتصما بالصمت الذي اعتاد عليه حتى الموت .

انه لم يقتن شيئا ، ولا اخذ شيئا من احد . فكيف كان يقيت نفسه اذن ؟ لا احد يعلم .

اخوتي ، حقا كانت مدهشة سيرة هذا الرجل الفقير ، الذي لم يكن يملك شيئا ، ولم يكن يصله شيء من الجمعية ابان اضطراب الدير ، ولا من جهة اخرى . ومع ذلك فقد واصل سيره كالسابق مهتما باقتناء الفضيلة .

ويضيق بي الوقت لاتحدث ايضا عن البسيط في الله الربان مار أثقن ابي اللحية الشبيه بباولا البسيط ؛ ذلك الصبور الذي فاق الجميع بتجلده . فانه تحمل مرضا مؤلما مدة تزيد على الخمسين سنة شاكرا على الدوام ، فقيرا ومحروما من احد يقوم بخدمته ؛

وعن الربان بولس الوديع والطيب المعشر .

والربان حنانيشوع الداسني المتجرد تماما ، البطل في الاعمال المضنية القاسية .

وعن اسرائيل سيباط العميق الصمت الذي لازم السكوت كل ايام حياته .

وعن الربان مارن عمه الغيور على الامور الالهية وصانع المعجزات .

وعن الربان اوريّا المتجرد عن كل شيء ، والكامل في ممارسة الفقر افضل من كثيرين .

وعن الربان يشوع الفاعل المستعد والعامل النشيط .

وعن الربان رحميشوع الممتاز السيرة ؛ والربان حنانا ، والربان داود ، والربان نثنائيل ، والربان مرلاحا ، وشيوخ كثيرين كاملين واخوة مجدّين متفرغين للعمل السماوي ، تفوق قصة مآثرهم السرد والوصف .

فالى هنا اقف مستعينا وطالبا الرحمة بصلواتهم ، لترتاح سفينة حديثي التعبة في بحر قصص هؤلاء القديسين .

ولتكن صلواتهم سورا حصينا للمعمورة جمعاء ، ولا سيما لكنائس جميع المسيحيين ، وللدير الذي تظفروا فيه امين .

الفصل الثامن

اسلوب الربان (يوسف) في ارشاد (الرهبان) الذين عهدوا بانفسهم اليه ، وكيف كان يديرهم بحكمة ، حسب ضعف زماننا الأخير الذي هرم وقارب الخبال . يارب ساعدني برحمتك امين .

ان بين جميع الكائنات ، كائنا واحدا فقط ليس شبيها بها ، وهو اسمى من الكل وفي كل شيئ ، وله وحده المعرفة المطلقة التي لا متى فيها ، وهي فيه من طبيعته وبدون اي تعلم .

اما بقية الكائنات ، فالبعض منها غُرزت معرفتها في طبيعتها ، حسبما شأت تلك المعرفة المطلقة ؛ والبعض الاخر يكتسبها بعلم من الغير ، لكي يعرف الجميع حكمة تلك المعرفة الفائقة الكل . فالله خالقنا واحد باقانيمه الثلاثة ، ومعرفته ليست زمنية ، انها ازلية فيه ، لا تقبل الزيادة ولا النقصان ، لا من الكل ولا في الكل . لان الله معرفة ، ومعرفته جوهره ، وجوهره معرفته .

ان الكلام عنه مضن ، وادراكه مستعص على كل عقل . وكما اننا لا نعرف ماهية الله في جوهره ، كذلك ولا نعرف ماهية معرفته فيه . فكل ما يخص الله يعز فهمه على جميع الخلائق .

ان معرفة الكائنات الحاسة التي خلقها الله عجماء وبدون نطق ، مغروزة في طبيعتها من قبل الباري الحكيم . وطبيعتها بما هي عليه ، هي محركة معرفتها . فليس الكلب مثلا بحاجة ليتعلم خارجا عنه ، النباح والحراسة التي لاجلها يقتنى ، لان طبيعته تعلمه ما هو عليه . وكذلك الديك ايضا لا يتعلم بعلم ما الصياح في الاوقات المعلومة والمعيّنة ليلا ونهارا . هذا ما يصعب جدا على الناس ان يعرفوه .

ولكي لا يطول الكلام (نقول) ان معرفة كل جنس من اجناس الحيوانات غير الناطقة والعجماء ، هي غريزية في طبيعته ، وطبيعته تعلمه ما هو عليه .

غير ان خالقنا له السجود ، كوّن بحكمته السامية ، الطبيعة الناطقة ، من نظامين مختلفين ، احدهما غير مرئي وما فوق الجسد ، والآخر مرئي وخاضع للجسد الزائل .

فالكائنات غير المرئية اعطاها مع وجودها معرفة تامة لكنها غير كاملة ، لانها تقبل الزيادة . فاليوم يتعلمون ويعرفون ما لم يعرفوه أمس . وهكذا تزداد معرفتهم الى ان يبلغوا الكمال في عالم الكمال .

وبما ان جنسنا البشري هو اكتمال الخليقة كلها ، المرئية منها وغير المرئية ، وهو صورة الله ومثاله ، ومستقل بحرية ارادته مثل خالقه ، فان معرفتنا تزداد بالتربية حسب ما نحن عليه ، ولو ان معرفة النفس في الواقع مغروزة في طبيعتها . لكنها تزداد تقدما كما قلت مع نمو الجسد . فنحن بحاجة الى التعلم والدرس على الاخرين ، والى المعرفة الكامنة في طبيعة المخلوقات .

وهذا النظام لم يضعه الله عبثا وجزافا ، ولكن بحكمة لا توصف . وهذا يتضح من ان الكائنات كلها ، قبل ان توجد كانت في سابق معرفة الله الذي يعلم كيف سيكون البشر في تصرفاتهم ، وفي مختلف نواياهم حسب الافكار التي تخطر لهم ، يمينية كانت ام يسارية ، وحسب عنف شهوة الانسان الشريرة منذ حداثته كما يقول الكتاب[1] . فهو اذن لا محالة بحاجة الى مناخس تقوي ضعفه .

ولهذه الاسباب وغيرها جعل الله البشر جميعا محتاجين بعضهم الى بعض . فهذا محتاج الى ذاك في قضية ما ، وذاك محتاج الى هذا في قضية اخرى . والجميع بمسيس الحاجة الى التعلم المتبادل ، لكي نتوصل بجهد جهيد الى معرفة ما يلزم .

ولا يمكن لنا ان نعرف ونتعلم بدون التعلم من الآخرين . لكي لا يدفعنا التكبر الدفين فينا الى التشامخ والاستعلاء على من هم دوننا ، ولئلا نستعلي على الله ايضا ، كما حدث للكثيرين الذين استكبروا بافكارهم وانتفخوا بكبريائهم حتى ادعوا لنفسهم اسم الله ، علما بانهم من الاخرين تعلموا واقتبسوا ماتعلموه .

فاي شيء لك ياانسان لم تنله باحسان ؟ وان كنت قد نلته احسانا ، فلما تفتخر كأنك لم تنل[2] ؟ . ان الكلام الحي والمقدس يوبخ استعلأنا :-

وبما ان الله يريد خلاص الجميع ، فقد جعل ان نكتسب المعرفة والعلم بعضنا من بعض ، وان تعطى مواهبه لنا على ايدي بعضنا للبعض . في حين ان الله هو مانح جميع المواهب والمعارف ؛ وذلك لكي نتضع امام الله وامام بعضنا البعض . لان الله لم يرد ان نعرف ونتعلم بدون وسيط ما هو ضروري لنا ، ولو انه هو معلم وسطاء خيورنا وكل

١- التكوين ٨ : ٢١ .
٢- اولى قورنثية ٤ : ٧ .

شيء اخر . والعناية بحياة الجميع رهن يديه ، لكي لا نستعلي على بعضنا البعض كما قلت ، فتسيطر الكبرياء على نفسنا .

لذا فقد كوّن الله خلقتنا نحن البشر ، بحيث نكتسب المعرفة ونستنير بالعلم على مدى نمونا ، وبالدرس على الاخرين ، وذلك حسب نوعين من النمو ، نتقدم فيهما ونكبر ، اعني نمو الجسد ونمو النفس .

فكما ان جسدنا ينمو ويبلغ من الطفولة الى الفتوة ، ومن الفتوة الى الشباب ، ومنه الى الرجولة مرحلة الاكتمال ، ومنها نصل الى الشيخوخة ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل نكتسب المعرفة والعلم المناسب لها ، كذلك الحال في نمو النفس وتدرجها في مراحلها التي هي الهية ، وخلالها نحتاج الى وكلاء وقيّمين حكماء يجيدون التعليم ، اعني بهم قادة ومرشدين يهدوننا الى الطريق الذي نسلكه في هذه الحياة الرهبانية التي تدهش الملائكة .

فاذا كنا فيما يخص العلم الدنيوي وقضاياه اعني الصناعات ومعلوماتها العملية ، وما يخص علم المعارف الزائلة ، نحتاج الى معلمين حكماء وخبراء اختصاصيين في صناعاتهم ، لنتعلم منهم ونفهم كل ما يلزم لنا ، فكم بالاحرى ، وبدرجة اولى نحتاج لا محالة ، في هذا العلم الالهي ، وهذه الصناعة الروحية اعني الحياة الرهبانية ، الى معلمين متضلعين منها ، لكي نتعلم ونفهم منهم وبهم عظمة علمها العجيب .

واذا كان اولئك الذين ينوون السير على الطرق للمرة الاولى ، في البر او في مسلك البحار الخطر ، يحتاجون الى أدلاّء وملاحين اكفّاء ليرشدوهم الى السبل والدروب ، فكم بالحري اولئك الذين يريدون السير على درب الرهبانية هذا ، وفي بحر الصمت هذا ، يحتاجون الى قادة ومرشدين خبراء في جميع طرقاته ، ليطلعوهم على السبل والمفاوز والمداخل والمخارج ، لكي يسيروا مستقيما ، ولا يضلوا الطريق عن جهل ، فيصبحوا فريسة لذئاب المساء وكواسر الليل .

وأخيرا اذا كان اولئك الذين يريدون تعلم الحرب ، والوقوف بين صفوف المقاتلين ضد الاعداء ، يحتاجون الى عسكريين اختصاصيين في فن الحرب ، ليتعلموا منهم فنون المعركة ، وكيف يجب ان يتقدموا ويتأخروا ، لئلا يُطعنوا عن جهلهم فيموتوا ، فكم بالاحرى ايضا اولئك الذين اعدوا انفسهم للحرب الروحية مع الاهواء والشياطين ، هم بحاجة الى اناس متضلعين من فن الحرب الروحية هذه ، ليكونوا لهم مرشدين ومدربين على فنون التقدم والتأخر في المعارك ، لئلا يصاب احد هناك بغتة من قبل الكمائن التي تطلق النار في الظلام فيموت .

ان الله لم يرد ان يكون بلا وسيط هاديا لمن فوّض امره اليه ، مع انه هو مرشد الجميع ، وبه ومنه يأتي النصر والظفر في المعارك ، بل ان نتعلم على الآخرين ونتثقف بما يلزم . وبهذه الطريقة نكتسب التواضع والتنازل والتحرر من الكبرياء والتشامخ ، كما قلت اعلاه . لذلك ، ففي هذا الزمان الاخير ، اقام الله الربان يوسف الذي نتحدث عنه ، هاديا ومرشدا لجميع الذين يسلكون طريق الرهبانية هذا . ومن المألوف لدى الرب في تدابيره المعبودة ، ان يمنح الحكمة والمعرفة اللازمة لكل من يقيمه على مهمة ما ، ويمده بالقوة والعون ليتمكن بهما من ان يرعى حسب مشيئته ، الموهبة التي افاضها عليه ، واقامه وكيلا عليها . فقد اعطى لأمين خزانة الحكمة الالهية هذا ، حكمة فريدة من نوعها ، ومعرفة وحيدة في زمانها ، ليقود سفينة اولئك الذين وضعوا انفسهم بين يديه ، ويدبّر ويعلّم ما يصلح لزمانه القاسي الخالي من التقوى الالهية ، والممتلئ ، عكس ذلك ، من كل برود وتهاون . وبما ان الربان قبل مضطرا هذه المهمة على عاتقه ، كما ذكرت قبلا ، فقد كان يرشد بحكمة ، الاخوة التابعين له ، والوافدين اليه من كل صوب .

وكانت خطته في ارشادهم كما يلي :

- مستهل الابتداء -

لما كان يتقدم شخص للدخول الى الدير ، كان يأمره قائلا :

«عليك يابني ان تشتغل مدة خمسين يوما ، بموجب القانون الذي وضعه الاباء القديسون» .

هذا هو القانون المفروض على الذين يدخلون حديثا الى الدير ، وقبل احتفالهم برتبة حلق الرأس ، لأرتداء ثوب الرهبنة المقدس ، ليختبروا نفسهم ، ويُجرَّبوا خلال خمسين يوما باشغال متعبة ومضنية .

انها فترة الاختبار الاول ، وهو اساس البناء في هذا القصر الفخم . وكان يعلّمهم مشيرا عليهم ليشتغلوا بمنتهى الطاعة للاخوة المقيمين في الدير ، ويتضعوا مفتكرين بانفسهم قائلين : ترى من يؤهلنا لهذا الثوب المقدس الذي ننتظره! ، وان يأكلوا وحدهم ولا يختلطوا مع اخوة الدير ، وان يرقدوا ليلا في غرفة المطبخ ، ليشعروا بهذا الاسلوب من رذل الذات بانهم لا يستحقون الاختلاط مع الاخوة .

وكان يقول لهم : «ينبغي لكم ياابنائي ان تتضعوا كما يجب لانكم مقدمون على عمل عظيم ، ومتى رأى الرب تواضع انفسكم ، يؤهلكم لما تنتظرون» . بهذه الطريقة كان يعلّم التواضع للمبتدئين الذين لم يحتفلوا بعد برتبة حلق الرأس ، لكي يستحقوا هذا

الثوب المقدس بتواضعهم . لأن خبرة المبتدئ الذي شرع حديثا ، لا يمكنها تقبل تعليم اكثر من هذا .

رتبة حلق الرأس[١]

بعدما كان الاخ يقضي مستهل الابتداء في الشغل . كان يأمره للقيام برتبة حلق الرأس المقدسة ، فيقول له : « يجب عليك يابني ان تقدم لله في هذه الليلة سهراً وقربانا ، فتقف حسنا و بكل هدوء بين صفوف الاخوة في الهيكل من المساء وحتى الصباح . ومع كل مجدلة وصلاة تنحني وتركع . وتقف خاصة اثناء اقامة الاسرار المقدسة بمخافة ويقظة امام درج المذبح ، لأنك مزمع آنئذ لتقتبل موهبة الروح القدس ، ونعمة التبني[٢] ، اي ان اسمك يُكتب مع القديسين أبناء النور . لاننا كما نقتبل بالمعمودية المقدسة نعمة التبني ، كذلك ايضا برتبة حلق الرأس التي نقتبلها ، ننال حلول تلك القوة التي اقتبلناها بالعماد . وان اسماء الذين يلبسون هذا الثوب ، تُكتب في سفر اسماء القديسين . وهذا جلي ايضا من تلك الرؤيا التي رآها ذلك الشيخ القديس رائي الروئ اذ قال : ان تلك القوة التي تنزل على المعمودية المقدسة ، رأيتها تنزل ايضا على اولئك الذين يقتبلون ثوب الرهبنة المقدس هذا .

الابتداء

بعدما يحتفل الاخ برتبة حلق الرأس المقدسة ، فيُقبل دخوله في الدير ، كان (الربان يوسف) يوجهه توجيها آخر ، فيقول له : «انظر يابني ، ها ان الله قد أهلك للاشتراك مع القديسين . فبماذا يقدر الترابي يابني ، ان يشكر المسيح على هذه الموهبة ، الا ان يقرب نفسه قربانا وذبيحة لله عوض النعمة التي صنعها له .

«لذا يجب عليك يابني ان تسلك امامه باهتمام فائق منزه عن ادنى كسل . وافتكر انك لا تستحق عظمة الموهبة التي نلتَها . واتضع كما ينبغي امام الله بالخفية ، لانه أهّلك لهذه الموهبة الرفيعة التي لا تستحقها . كما واتضع امام اخوتك علنا . لكي تحل عليك بركة الرب ، وافتكر بانهم افضل منك امام الله ، واعتبر نفسك اوضع وأدنى وآخر الجميع بالخفاء والظاهر» .

١–بالسريانية : «سوفارا» وتعني حلق الرأس على شكل دائرة او اكليل . وهي فريضة سنها للرهبان مار ابراهيم الكبير في القرن السادس .(انظر : كتاب الرؤساء ص ٢١ . حاشية ٢ ، أدب اللغة الارامية ص ١٦٣) .

٢– رومية ٨ :١٥ .

«واحذر على نفسك وانتبه لئلا يخدعك الشرير فتفكر بانك ها قد نلت ثوب الرهبنة مثلهم . لأن الثواب لم يوعد للثوب الظاهر بل لذاك الذي يمارس في الخفاء وفي طوايا النفس ، والذي يُكسب التواضع ورذل الذات لاولئك الذين يكتسبونه بالاتضاع – وبهذه الطريقة تتعلم الطاعة البسيطة – اذ لا طاعة بدون تواضع ، كما ولا حياة في الفضيلة بدون طاعة . يابني اكتسب الطاعة التي تجعلك فوق كل ماهو دنيوي . انظر يابني ، لا تستهن بما اقوله لك . ان التواضع أُم الطاعة هو اعظم الفضائل التي ينبغي للانسان ان يمارسها . والشاهد الصادق على ذلك ، ما قاله الرسول الطوباوي الذي لما اراد ان يبين عظمة الفضيلة التي عاشها المسيح ربنا في العالم ، تغاضى عن جميع فضائله ، واسرع نحو أُم الطاعة ومربية الفضائل كلها فقال : «وضع نفسه واطاع حتى الموت[1]» . اذ لم يكن ممكنا بدون التواضع الكامل ، ان يبذل نفسه بهذا الخضوع الكلي حتى الموت من اجل الجميع بمحض ارادته . فانه اذ كان مزمعا على ان يقبل الموت من اجل الجميع بارادته ، وضع نفسه مسكن الالوهية ، واطاع بتواضعه العجيب للآب الذي ارسله الى العالم ليخلص به العالم . واسلم نفسه للموت الرهيب . ولأي موت اسلم نفسه بطاعته لأبيه ايها الرسول الطوباوي ؟

– للموت على الصليب ، لموت الهوان وعار صليب اللعنة أسلم ربنا نفسه من اجل الجميع ، وصار لعنة عنا[2] .

وماذا نال من ابيه ثوابا لطاعته الكاملة ايها الواعظ الحق؟

– لذلك رفعه الله عاليا ، واعطاه اسما افضل جميع الاسماء ، واجلسه بمجد عن يمينه ، وآتاه السلطة بسلطان عظمته ، وجعله وارثا للعالمين ، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة وتسجد ، مما في السماء ، الكائنات اللامنظورة ، ومن السفليين ايضا الكائنات الناطقة ؛ ويعترف كل لسان بان يسوع المسيح هو الرب لمجد الله ابيه[3] .

«فانظر يابني الى اية كرامة ترفع وتعلي الطاعة المتأتية عن التواضع . يابني ، اتضع فترتفع ، كما قال المخلص[4] . ولا تستكبر بفكرك لئلا تقع في فخ ابليس[5] .»

١- فيلبي ٢ :٨ .

٢- غلاطية ٣ :١٣ .

٣- فيلبي ٢ :٩-١١ .

٤- متى ٢٣ :١٢ .

٥- اولى طيموثاوس ٦ :٧ .

«ومع التواضع والطاعة ، ليكن لك الوداعة واللين مع الجميع . وليكن كلامك خافتا ورصينا ، بحيث لا يسمعك الاّ من تتحدث معه فقط . ومع كل قول تتلفظ به ، عوّد نفسك على ان تقول بروح طيبة» .«عفواً» . فأن الشياطين ترتجف اشد الارتجاف من هذه الكلمة التي يقولها المرء لاخوته . وهذا بشهادة الاباء القديسين .

«لا تخاصم قط في اي امر كان ، وان كنت انت المحق فيه ، بل تخلّ عن رأيك في كل شيء . واعمل بما يقوله لك اخوك ، لئلا تتعود على رد الكلام لأخيك ، فتصرّ على رأيك بدون انقياد .»

«افهم ما اقوله لك يابني : لا تصرّ على رأيك بتاتا وان كان صحيحا ، بل اعمل ببساطة ما يقوله لك اخوك والقيّمون دون ان تعارض ، لكي تكتسب لنفسك الطاعة الكاملة ، والتحرر من المخاصمة التي تولد كل المنازعات . ومتّا أُمرت بشيء ، اندفع بحماس لعمل ما فيه ، وابذل وسعك للقيام بكل ما في الجمعية من اشغال يدوية اذا امكن . ومتّا كملت ذلك قدر المستطاع ، قل ما قاله الرب :«انني عبد وخادم ، انما عملت ما كان يجب عليّ عمله[1]» .

«احترم رئيس الدير والقيّمين والوكلاء ، واطعهم كما للمسيح . ومتى ما أمروك بشيء ما ، نفذه بسرعة وعناية تامة . واعلم ان الله يؤتيك الراحة في صومعتك حسب طاعتك في الدير .»

«عوّد نفسك على تناول الطعام مرة واحدة في اليوم ، دون ان تتعاطى انواع الاطعمة ، بل الخبز وحده ، والطبيخ البسيط ، وهذا ايضا مرة او مرتين في الاسبوع وليس كل يوم .

«ولا ينقطع فمك عن الترنيم ، ليكون عملك مضاعفا . اذ بينما يكدّ جسدك بالعمل الخارجي ، تنشغل نفسك في العمل الباطني بالصلاة والترنيم .

«انتبه على ان لا ترقد ورجلاك ممدودتان بارتخاء ولامبالاة ، بل وانت جالس على الارض ، وظهرك مسند الى الحائط ، اخطف النوم المألوف .

«وفي وقت الصلاة الجماعية ، قم مسرعا الى الصلاة مع اخوتك» .

ان (الربان) لم يكن يسمح للمبتدئين بالاكل من الفواكه الصيفية ، بل كان يمنع عنهم تذوق العنب والتين وجميع الثمار الصيفية . بهذا الاسلوب وبهذه الطريقة كان

---

١ - لوقا ١٧ : ١ . النص بتصرف .

يرشد الاخوة في الابتداء ، الى حين خروجهم الى الصومعة . وكان يأمر كل واحد منهم بعمل ما يراه مفيدا ومناسبا له .

ومع ان قانون ممارسة الابتداء هو لمدة ثلاث سنوات ، فانه كان يضيف اليها فترة اخرى حسب الاشخاص .

فهذا يأمره بالعمل لمدة ثلاث سنوات ، وذاك لاربع سنوات ، ولآخر اقل او اكثر من هذا . ولم يكن اسلوبه هذا اعتباطا . بل من كان يتوسم فيه علامات تدل على تقواه العميقة ، ورغبته للاقامة في الصومعة ، بما اظهره من جدارة في الابتداء ، فبعد اكماله ثلاث سنين ، كان يأمره بالخروج الى صومعته . ومن كان يراه متجها باستعداده نحو السيرة التي تُمارس خارج الصومعة ، كان يشير عليه ليعمل فترة اخرى ، لعل الشوق الى الصمت يتحرك فيه ، والا فيقول :«دعه يعمل حسب تقواه الضحلة ، خشية ان يكون عمله البطالة بعد خروجه من الحياة الجماعية .

عندما كان الاخ يزمع ان يخرج من الابتداء ، كان يأمره بان يقيم سهرة صلاة ويقدم قربانا ، ويطلب الصلاة من جميع الاخوة الطوباويين اثناء اقامة الاسرار المقدسة .

وبعدما كان الاخ يخرج من الابتداء ، كان يردد عليه مثل هذه الكلمات :«اعلم يابني ، ولو ان الأباء الطوباويين عرفوا وبينوا ان الطرق التي يسير فيها الرهبان الى ملكوت السماء ثلاث وهي : ان يلازم الراهب صومعته بصمت ، اعني ان يلازم الصمت من اجل الموهبة التي ينتظر نيلها من الله ، وهي تطهير جسده ونقاوة نفسه ، وليس من اجل المجد الباطل والكسب الدنيوي ، وهذا ما اقرّ به اقرارا حسنا ، اي ان يخدم من اجل الله ، اعني ان لا تكون خدمته من اجل شيء ارضي بل من اجل الله وحده ، او انه عليل فيعترف بعدم مقدرته على العمل بسبب الامراض التي يعانيها ، فيشكر الله ويحمده على تأديبه ، وهذا يُعتبر عملا جليلا عند الله ؛ ولكن بما اننا في الزمان الاخير ، وقد خمدت منذ زمان حرارة مخافة الله ، لذا تنوعت ايضا طرق الرهبان في عصرنا . وها انني اضعها قدامك ، وانت يابني فاختر منها ما تشاء ، وانا اصلي من اجلك .

فالطرق ثلاث وهي :

اما الاقامة بصمت في الصومعة .

واما الاهتمام بالعلم والاقامة في الهيكل .

واما العمل في الكروم والزروع .

اذن فكّر يابني واختر لك طريقة تريدها .

فاذا اختار الاخ احدى الاثنتين اعني اما العلم واما الكروم ، فيعامله كعضو ضعيف . ومن يرغب في العلم ، يأمره بالاهتمام في خدمة الهيكل بكل عناية . ومن يتقدم للعمل في الكروم والحقول والزروع ، يشير عليه باطعام الفقراء والمساكين من عمله .

اما الذي يختار ، حبا بمخافة الله ، طريقة الصمت المضنية الشائكة ، فيحيطه بعناية خاصة ويحبه ، ويحرضه على ان يهتم في السنة الأولى ، بالخدمة في الهيكل ليلا ونهارا ، لكي يكتسب خلالها المقدرة والعون على ملازمة الصمت .

فكل واحد يأمره بمزاولة هذا العمل لمدة سنة ، او اقل او اكثر ، وآخر لمدة سنتين وحتى ثلاث سنوات ، حسب ما يراه مفيدا للاخ .

(سيرة الحبساء) :

بعدما يكمل الاخ العمل في خدمة الهيكل حسب أمره ، يأمره حينئذ بالاقامة في الصمت ، بعدما يكون قد خصص سهرا وقربانا لتقديس الصومعة . ويدعو الكهنة والاخوة الى الصومعة ليكرّسوها ويصلوا عليه . فيغلق الاخ باب صومعته ، ويضع على العتبة من الخارج صخرة خاصة .

والأخوة الحبساء لا يفعلون ذلك عبثا ، بل رمزا للصخرة التي وضعت على باب قبر ربنا ؛ فيفكر الحبيس بانه قد مات عن العالم وبات يحيا في الله ، وها انه قد وُضع في قبر صومعته ، لان الصخرة قد وضعت على بابها . وبهذا العمل لابد وان يلوم نفسه ، اذا ما افتكر بما ليس لله وللحياة فيه ، او اذا حوّل نظره وافكاره الى الامور الدنيوية ومسائلها .

حينذاك كان الربان (يوسف) يثبّت الاخ في صومعته خلال السنة الاولى حسب المنهاج الآتي . فينبهه باديءَ ذي بدء قائلا :

«انظر يابني كيف تسير مستقيما حسبما آمرك به ، دون ان تخلط نظاما بنظام . بل فليكن منهاجك كما يلي :

قراءة العهد الجديد

واظب على قراءة العهد الجديد منذ الصباح وحتى الساعة الثالثة (من النهار) ، لتطلع على اعمال ربنا المتجسد ، وعلى محبة الله لنا ونعمه الفائقة الوصف التي اغدقها

علينا في نهاية الأزمنة[1] . على ان تقدم اولا امام الانجيل له السجود ، عشر سجدات[2] منتظمة ، وتقنت له ، لوقت كاف ؛ بركعات وصلوات مخصصة لذلك ، الى ان تتركز افكارك من الطياشة بما حولك . واسأل الله متضرعا لينير عيون عقلك وقوى نفسك ، لتفهم القوة الخفية في اقوال ربنا ورسله القديسين ؛ ولترى وتعرف الاسرار المخفية فيها ضمن جسم المداد ، التي تراها عيون النفس التي تطهرت وتنقت من درن الخطيئة .

ثم قف على رجليك ، وخذ الانجيل المقدس بين يديك ، وقبّله وضعه على عينيك وقلبك دون شبع ، وقل متضرعا بخشوع عظيم : «نعم ايها المسيح ربنا ، ها انك تُعظَّم في بشارتك المقدسة على يديّ النجستين ، وانا غير مستحق لذلك ، ارجوك ان تتكلم معي كلام الحياة والعزاء بفم بشارتك المقدسة ولسانها الناطق ، واعطني يارب ان اسمعها باذنين جديدتين باطنيا ، وان اتغنى بمجدك بلسان الروح امين .

واقرأ في الانجيل ثلاثة فصول وانت واقف على رجليك ، وفصلين في اعمال الرسل ، وثلاثة فصول في الرسائل . وفي وسط كل قراءة اعمل عشر سجدات .

وبعدما تنتهي من القراءة في العهد الجديد ، اعمل عشر سجدات حادة وحارة ، وركعة ترافقها صلوات خاصة بها ، وهي للشكر على ان المسيح أهّلك لتقرأ وتهذ في الاسرار الخفية منذ الازل .

وقت الساعة الثالثة

«ثم اتلُ صلاة الساعة الثالثة ، وهي صلاة الشكر لله الذي احبنا فاوجدنا من العدم . فان الله خلق آدم في الساعة الثالثة[3] . وفي الساعة الثالثة وقف المسيح ربنا امام الديان ليجدد جميع الخلائق .

فمن اجل هذه النعم اعني تكويننا وتجديدنا بعدما فسدنا ، رتب الأباء صلاة الساعة الثالثة . والغاية منها خصوصا ، تقديم الشكر لله على ما انعم علينا بتدبيره المزدوج : اولا لانه اتى بنا من العدم الى الوجود ، وثانيا لانه جدد الطبيعة برمتها بعدما فسدت وبليت بالخطيئة . فعلينا ان نستفيض بالشكر في صلاة الساعة الثالثة هذه .

١- اولى بطرس ١ :٥ .
٢-بالأصل «مطونيا» ويقصد بها الكاتب : الركوع بحيث يلامس الجبين واليدان الأرض .
٣-ان هذا القول اجتهاد خاص ، وهو غير ثابت لاهوتيا ولا كتابيا !.

اما انت فقم اولا بصلوات وسجدات . وفي نهاية كل مرميث[1] ، ارفع ثلاثة تسابيح ، وارفقها بثلاث سجدات ، وفي نهاية الهولال[2] أدِّ عشر سجدات ، مع عشرة تسابيح . ثم هلّل وصلِّ ، وعقّب بالهولال الذي يليه .

وبعدما تنتهي من تلاوة الهولالات المخصصة لهذا الوقت ، اعمل ثلاثين سجدة مع التسابيح واختم الصلاة .

وبعدما تختم الصلاة ، أدِّ عشر سجدات الشكر لله الذي أهّلك للخدمة امامه والتكلم معه بالصلاة .

ومارس هذا الطقس من السجدات والتسابيح والشكر في جميع الصلوات .

وبعد صلاة الساعة الثالثة ، لايكن لك عمل آخر الا القراءة المختارة من كتب الأباء الطوباويين . وانتق لك القراءة التي تناسب مستواك وسمعك .

الساعة السادسة – او الظهر –

«ولما يحين وقت الظهر ، قم للصلاة . وعليك ان تبدي علامات الحزن في هذه الصلاة اكثر مما في جميع الصلوات الاخرى ، مع تنهدات وسكب الدموع بألم وكآبة . لان آدم الاول خطئ في الساعة السادسة عندما مد يده الى ثمرة المعصية ، فسقط واسقط نسله كله . وفي الساعة السادسة بسط ربنا يديه على صليب العار عوض الخطيئة جمعاء ، فبرر نسله كله برمته . ولهذا السبب رتب الأباء صلاة الظهر ، وهي صلاة الساعة السادسة . فينبغي لنا اذن ان نكتئب ونتألم في هذا الوقت .

وليكن مقصدك كله في صلوات هذه الخدمة ، الاقرار بضعفك وخطاياك وتجاوزاتك ، لكي يترأف الرب عليك ويغفر خطاياك وزلاتك .

وحالما تنتهي ، عد الى القراءة ، الى حين صلاة الساعة التاسعة . واعلم يابني انك حينما تكون قائما في الصلاة ، فانت تكلم الله وتناجيه . وحينما تقرأ في الكتاب المقدس ، فالله يكلمك ويعلمك بواسطة المداد والورق ، التعاليم الملائمة للحياة حسب مضمونه . وفي كلتا الحالتين يقتضي لنا انتباه كثير ، سواء حين يكلمنا الله ، او حين نتكلم نحن معه . افهم يابني ما اقوله لك .

---

١ -المرميث تلاوة تشتمل على عدة مزامير من سفر المزامير (داويذا) .

٢ -الهولال يشتمل عادة على ثلاث مرميثات .

الساعة التاسعة

«وفي الساعة التاسعة بادر الى صلاتك ، وكن منتبها جداً في هذه الصلاة ايضا . لان الله في الساعة التاسعة طرد آدم من الفردوس موطن ميراثه . وفيها صرخ ربنا على الصليب[1] واسلم روحه من اجله لأنه طُرد من ميراثه ، ولكي يعيده الى موطن ميراثه ويجعله فيه سيدا وملكا .

فمن لي اذن بالدموع التي لا يحق للمرء ان يسكبها من عينيه في هذا الوقت ، اذ يرى بنظر فكره ، بأي خزي كان قائما رأس جنسنا وهو يُطرد من ميراثه ؛ وبأي تواضع كان ربنا (معلقا) على صليب العار واللعنة من اجل ذريته ! هذا ما لا يطيق العقل التمعن فيه بدون قوة الهية تعضده ، لئلا يضمحل ويغنى من قساوة المشهد الاول ، وروعة المشهد الثاني ، وهو ازاء جلال الاسرار الخفية في الرؤيين . اللهم المجد لنعمتك ، بل والشكر لاسمك القدوس ! كم انك عظّمت التدابير التي اتخذتها من اجلنا .

حقا اقول لكم اخوتي ، لو ان القوة الالهية لا تعضد العقل حينما يتمعن في هذه الامور وينظر ويرى ويفهم ، لكان يضمحل حالاً ويغنى ويتلاشى بين سيول الاسرار المدهشة والالهية ! فتلك القوة الالهية تسند العقل ازاء خضم التأملات في اسرار التدابير الالهية .

«وبعدما تنهي صلاة الساعة التاسعة هذه ، زاول ما لديك من شغل يدوي اذا وجد . او اذا اردت ان تعد لك طعاما فهيئه ، الى ان يحين وقت صلاة المساء .

صلاة المساء

«ولما يحين الوقت ، قم لصلاة مزمور المساء[2] بكل انتباه واستعداد ، وانت ذاكر في صلاتك هذه جميع النعم التي افاضها الله عليك وعلى كل الجنس الآدمي الضعيف والخاطئ . لان الأباء القديسين وضعوا ورتبوا مزمور المساء ، مكان القربان والذبيحة لمصالحة الله . وكما كانت تُقرَّب مساءً في العهد القديم ذبائح سلامة وقرابين شكر ، كما يقول المزمر الطوباوي داود وهو يرتل لله : «تقبّل يارب قربان يديّ كقربان المساء[3]» . هكذا يجب علينا نحن ايضا يابني ان نقرب وقت مزمور المساء ، من شفاهنا ونفوسنا ، ذبائح وقرابين ناطقة ، لله صانع خيراتنا ومانح معوناتنا» .

١-ان ربط التواقيت بين هذه المعطيات الكتابية ، ليس سوى اجتهاد خاص كما نوهنا آنفا ، حسب التفسير القائم في زمان المؤلف .

٢-مزمور المساء «الرمش» مكون من مزمور : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١١٨ الفقرة ١١٦،٥٠ .

٣- مزمور ١٤٠ : ٢ .

صلاة السوباع[1]

«وعقّب على مزمور المساء بصلاة السوباع ، اعني صلاة الشكر عن جميع النعم التي اغدقها الله علينا طيلة النهار ، فأهّلنا ونحن غير مستحقين ، لنهذّ في اسراره المقدسة الابدية ، التي لم يكشفها من قبل للعالمين ، وكشفها الان بالروح في ربنا يسوع المسيح ، واعطانا لنكون فيها ورثة حبه وابناء ميراث يسوع المسيح ، لكي نثبت على مواعيده ، وعلى الرجاء المحفوظ لطبيعتنا المائتة برمتها . وبعد صلاة السوباع ، هيّء لك شيئا تأكله ، وتتناوله لسد الرمق ، وليس بشراهة وبتنويع الاطعمة اللذيذة . اما الطبيخ فهيئه لك مرة او مرتين في الاسبوع لئلا تتأذى من الجفاف الشديد . وليكن بسيطا ايضا ، واعمله بدون اعتناء بالغ . واذا قيّض لك الله شيئا خاصا ، فتناوله بشكر ، واشكر فضل من رزقك .

صلاة السوباعية[2]

«وبعدما تأكل مما رزقتك النعمة ، اتلُ صلاة السوباعية مهما امكنك ذلك . ولتكن غايتك منها ان تقدم لله صلوات خاصة وتضرعات ، في هذا الوقت من المساء والليل ، لكي ينقذك من شر الشياطين المتحمسين لهلاكنا . وارغم نفسك على ان تسكب الدموع من عينيك . ولا اقول الدموع التي تسيل اعجابا بالاسرار الالهية ، ولا دموع الكآبة والألم ، بل دموع الخوف والضعف وما فيه من وحشة . فاذا ما رأى الرب دموعك قدامه «يوصي بك ملائكته القديسين لكي يحفظوك من رهبة الليل المخيف والمليء هولا ، وينقذك من وباء يسري في الدجى ، ومن غائلة تفسد في الظهيرة[3]» .

«وبعدما تقرب هذا القربان ايضا ذبيحة لأجل حفظك ، اسند ظهرك الى الزاوية التي ازاء الصليب ، ولملم رجليك ، ولا تمددهما كيفما كان وبدون مبالاة ، وارسم وجهك واختم نفسك بعلامة الصليب حافظ مؤمني الرب . والى ان يأخذك النوم ، أهذذ بما انعم الله عليك طيلة النهار . وعوّد نفسك على ان لا تعطيها من النوم الا قليلا لراحة جسدك .

---

١ -بالاصل «سوباعا» وتعني الشبع ، وهي صلاة يتلوها الراهب مساء قبل تناوله وجبة الطعام الوحيدة في اليوم .

٢ -بالسريانية «سوبعتا» وهي صلاة يتلوها الراهب قبل النوم ، وتسمى حاليا . صلاة الحفظ «سوتارا» .

٣ - مزمور ٩٠ :٦-٧و١١ .

صلاة الليل

«ولما توقظك نعمة ربنا ، قم لصلاة الليل بنشاط وشوق حار . وقبلما تبدأ بالمزمور ، قل كلمات مختارة تنفض عنك الثقل والكسل ، وايقظ نفسك بشجاعة ، واعمل سجدات حارة الى ان تستيقظ قواك وتجتمع افكارك . ثم ابدأ بصلاة الليل . على ان تكمل نظام السجدات الذي ذكرته آنفا .»

«اما في السوباعية ، وبعد تناول الطعام ، فلا تعمل سجدات ، بل استعض عنها بانحناءات [1] . لئلا تصاب بوجع ما ومرض بسبب امتلاء بطنك . لان السجدات بعد الاكل ، عادة ما تسبب فتوقا وامراضا للانسان تقعده عن اداء الحركات في الصلوات .

أداء السجدات والانحناءات

(السجدات) وهي ان يسجد المرء امام الصليب بحيث يضع ركبتيه ورأسه على الارض .

اما في الانحناءات فلا تصل الركبتان الى الارض ، بل يداه ورأسه فقط ، ويبقى جسده كله متدليا الى فوق .

وصلاة الليل هي بمثابة جهدنا كله في هذا العالم ، والظلام رمز له ، اذ اننا نشقى فيه كثيرا ، منتظرين الخروج منه الى عالم النور ، والنهار رمز له .

(مزامير الصباح)

«اما في مزامير الصباح ، فايقظ نفسك وقف قدام الله حسنا وبانتباه بالغ . لأن الظلام اكمل سلطانه اي دور هذا العالم ، وها قد اشرق بغتة نهار نور العالم الجديد .«واعلم يابني ان كل يوم يقضيه الراهب في صومعته بتكميل قوانينه ، يصور به رمز كلا العالمين .

«لما يشرق صباح اليوم التالي ، ابدأ مجدداً باعمال البارحة ، واعتبر انه النهار الوحيد الذي لك في العالم ، وهو (النهار) الذي انت فيه . لان الامس قد مضى ولن يعود ثانية ، والغد ليس لنا ، لاننا لا نعلم اذا ما نعيش غداً ام لا ، اذن ليس لك من العالم الا نهار واحد وهو الذي انت فيه ، وفيه انت موجود . لذا فاهتم بحرص لئلا تقضيه فارغا وبطالة ، فتجد نفسك معوزا وفقيرا . وافتكر ربما في آخره يصل الموت ،

١–بالأصل «كوركاحا» وتعني الحناءة ، كما يصفها المؤلف .

فتذهب في ذلك الطريق الطويل فارغا وبلا زاد ، لأنك صرفت نهارك بطالا وبالأباطيل . واحذر ذلك الفكر الجاهل الذي يعدك بحياة طويلة ويعظك لتفكر عن غباء : «غداً اجتهد ، وان كنت اليوم قد تهاونت قليلا» ! اننا لا نعلم ماذا يكون من أمر الغد ، وما حياة الانسان سوى وهج يزول ويتلاشىٔ . فلا تتكل على الايام المديدة ، ولكن فكر كم كنت بعيدا عن هذا اليوم فأتى وأدركك. وهو ايضا يستعجل ليعبر مع امثاله . فلا تتخلَّ عن الفضيلة وتقول : «لبيّكِ غدا يانفسي» ! لان الغد ليس لنا .

«فانظر يابني اذن ان تفي النهار الذي انت فيه حقه باهتمام كلي . لان الغد اذا اصبح لك ، فمن الواجب عليك ان تفيه حقه ايضا ، اذ لا يوجد نهار لست فيه مدينا لله كثيرا ، عوض النعم التي افاضها عليك سابقا وكل يوم ، بالخيرات التي يغدقها عليك ، بنسمة الحياة التي يعطيكها في استنشاق الهواء ، بحفظك من الابالسة والاشرار وكل الاضرار .

فمن الواجب عليك ان تعبد الله اليوم اكثر من البارحة ، لانه بلغ بك اليه ، وما كنت تظن أنك تصله ، وانقذك في الايام الماضية من الأشياء التي لا زال خوفها في نفسك لعلها تصيبك باضرار . فسيرة البارحة مارسها اليوم حسب نظام قوانينها . وأدِّ خاصة في كل وقت وحين ، الشكر غير المنقطع لله الذي أهَّلك للألفة معه .

«واعلم يقينا يابني ، لو ان شعرات جسمك كله ، كانت افواها وألسنة ، لما تمكنت من أداء الشكر الواجب لله عن نعمته التي افاضها عليك ، بخلقك في الوجود ، بالنطق الذي اعطاك لكي لا تكون مثل العجماوات ، بالخيرات التي وفرها لك في هذا العالم وفي العالم العتيد بمجيء المسيح ربنا واعماله الخلاصية من اجلك ، فانه ، وهو الله الحق ، صار انسانا من اجلك وقاسى آلام الصليب والموت ليحييك ؛ بفرزك عن الوثنيين ، بالمعرفة الخاصة التي اعطاك فآمنت به مثل المسيحيين ؛ باخراجك من هذا العالم وتعاساته الكثيرة ؛ بمنحك الدالّة للألفة معه ، بتحريرك من الانجذاب الى الامور الخارجية ، باقامتك في صومعتك للتحدث معه كل حين . وأهّلك لتتلفظ باسمه القدوس وتمجده بفمك الملوث ، وخاصة لانه اعطاك ان تشكره على نعمه التي سكبها عليك . وباختصار فانت مدين لله لتشكره على نعمه ، مع كل نسمة تستنشقها وكل شم تشمه .

«تأمل يابني في هذه الامور ، وألزم نفسك بها امام الله كما يجب ، مثلما انت ملزم حقا ، لتتمكن من النجاح في الاعمال التي تزاولها في صومعتك .

«في السنة الأولى يابني ، تناول يوميا الاسرار المحيية . الا اذا كان هناك سبب معلوم يمنعك عن ذلك .

«اخرج للصلاة مع الاخوة في الهيكل في اجتماعات ايام الأحد . وسر على هذا المنوال في صومعتك خلال السنة الاولى . ولا تضف عليه شيئا الا بأمر واستشارة .

اما في السنة الثانية والثالثة ، فكان (الربان) يعيّن لكل واحد من الاخوة ممارسة وعملا اكثر ، على قدر حرارته الروحية ، وحسبما كان يراه مفيدا له . والضعفاء من الاخوة كان يرعاهم حسب ضعفهم . فنهم من يمنعه بعد سنة او اقل من الخروج الى الاجتماعات ، ومن التناول اليومي . ومنهم من كان يأمره بالخروج اكثر الى الاجتماعات وتناول الاسرار . فيقلل او يكثر حسبما كان يراه مفيدا له . ولكنه لم يكن يمنع الاخ نهائيا عن تناول الاسرار المقدسة بل تدريجيا . ولما كان يمنعه عن التناول اليومي ، كان يأمره بالتناول ايام الاربعاء والجمعة والاحد المعينة . ويمنعه فيها ايضا مكتفيا بايام الاحد فقط ، بل ومرة واحدة في السابوع[1] ، اعني في منتصفه .

ولما كان يعرف بعد مرور زمن ان الاخ يسير قدما ، كان يمنعه عن الخروج طيلة السابوع . انه كان يوجه كل واحد من الاخوة حسب ضعفه ، والمرتبة والحالة التي هو فيها .

اما لماذا في البداية يتناولون الاسرار ، ولماذا يمتنع عنها المتناولون يوميا على ضوء تعليماته ، فاعلم يابني ان المسيح عرف ضعفنا وعجز طبيعتنا ، واننا لاسباب عديدة نزلّ في خطايا كثيرة مختلفة بارادتنا او عن جهل وبغير ارادتنا ، فاعطانا برأفته الاسرار المقدسة ، اسرار جسده ودمه المقدسة لتكون لنا لمغفرة ذنوبنا وخطايانا التي اقترفناها في الجسد المائت ، ولكي نتقوى بها ايضا ضد اعداء خلاصنا الذين لا يطيب لهم خضوعنا لعظمته لها السجود .

١-السابوع ، لغة ، مشتق من لفظة سبعة ، على وزن فاعول ، كما في العربية : عشرة : عاشور ، وهو مصطلح في تقويم كنيسة المشرق . يتضمن عدة اسابيع من طقس الصلوات ، على مدار السنة المقسمة منذ القرن السابع الى اثني عشر سابوعا ، تدور حول اهم احداث حياة السيد المسيح وتعاليمه ، وتبدأ بسابوع البشارة (بداية كانون الاول) وتنتهي بسابوع تقديس الكنيسة (اواخر تشرين الثاني) .(كتاب الصلوات - حوذرا - طبعة بيجان ص ٨ ، المقدمة ؛ ادب اللغة الارامية ، ص ٢٨٣-٢٨٦) .

«فعليك يابني ان تخرج يوميا الى تناول الاسرار الغافرة ، لأن خمير الخطيئة لا زال بعد في جسدك ، لتنال منها القوة والعون ، فيمكنك الاقامة في صومعتك ، لتكميل خدمتك وقوانينك . وعندما كانت معرفة الاخ تزداد قليلا ، كان يقول له بلهجة اخرى : «لا يحق لنا يابني ان نجرؤ ونتناول الاسرار المقدسة يوميا ، وان كانت موهوبة لنا باحسان ورحمة من قبل الرب مجانا ، بل يكفينا مرة واحدة لمدة ايام ، خجلا من لطفه ، وبسبب خطايانا وعدم استحقاقنا . وبهذه الطريقة كان يوسّع معرفة الاخ تدريجيا الى ان تترسخ ، لتتمكن من قبول مفاهيم اسمى من هذه . وحينئذ كان يقول له :

«يابني ان رحمة ربنا تغفر بسهولة الخطايا التي تُقترف في الجسد ، لان الانسان يذنب بها الى ذاته والى اخيه ، وهي ناتجة عن ضعف الطبيعة وميلها الى الشر . اما الخطايا التي تحدث وتُقترف في النفس ، فان الصفح عنها صعب ، لانها تقاوم الله وتضادده بكبرياء النفس الشقية . والرسول الطوباوي يحكم على الذين يغيظون الله بالخطايا النفسية ، بانهم لا يستحقون تناول جسد الرب ودمه ، واذا جسروا فانهم يتناولونه للدنيونة وليس للمغفرة[1] .»

«فافتكر بنفسك يابني ، انك لا تستحق الموهبة الممنوحة مجانا للبشر ، لان نفسك منغمسة وملوثة بخطايا ثقيلة . فاعط الطوبى بحق لاولئك الذين يستحقون الاسرار المقدسة ، ولنفسك الويل ، لأنك لا تستحق هذه الموهبة السامية . فيجب ان تعتبر نفسك مخلوقا نجسا ، ومن جنس اولئك الذين حذّر الرب منهم قائلا بان لا يعطى لهم القدس ، ولا تُلقى الجواهر الثمينة امام ارجل الخنازير لئلا تُهان[2] ؛ كما وان «القدس يحق ويليق للقديسين[3]» .

«فانت يكفيك فقط ذكر جسد الرب الذي تتناوله في صومعتك ، وسُدّ جوعك من فضلات البنين ، لكي يؤهّلك المسيح بهذا الفكر وهذا الاعتبار الوديع ، للتواضع التام الذي هو حُلّة المخلص ، يُلبسها للذهن المتواضع ؛ وبها يرضي الله بتضحية ذاته قربانا لربوبيته .

١- اولى قورنثية ١١ :٢٧ .

٢ - متي ٧ :٦ .

٣ -النص مقتبس من طقس القداس الكلداني .

بعدما يدخل الاخ بفضل الله ، وبهذه الجهود ، الى موطن التواضع الحقيقي ، يعرف حينذاك من تلقاء نفسه ، ويتأكد من انه حقا وحقيقة غير مستحق ، ولا جميع الخلائق للموهبة السامية ، موهبة سر جسد ربنا ودمه الكريم ؛ لانه يكتشف بالسر شبه مجد هذا السر الرفيع الذي يدهش الملائكة ، وبؤسَ طبيعتنا التي تحتملها الزلات . وبهذه المعرفة التي تعطى للذهن في موطن التواضع الحقيقي ، يرتفع الذهن الى مرتبة الروح . وفي هذه المرتبة يشترك روحيا وعلويا والهيا بالسر مع الملائكة في سر جسد ربنا ودمه ، ويقتبل حقيقة شخص ربنا منزها عن كل الرموز والاسرار والألغاز ، كما سيقتبله القديسون في العالم الجديد . لان جميع الاسرار والرموز تفيد لهذا العالم . اما في العالم الجديد فان القديسين يقتبلون مثال الاسرار والرموز ذاته بلا اي وسيط .

«ان الراهب المقيم في صومعته المدة الممكنة ، يجاهد جهاد الاقامة في العالم الجديد ، لان سكناه وسيرته فيها بصمت عن العالم وضوضائه ، وابتعاده عن كل ما فيه ، وموته النهائي عنه ، وصيامه وتقشفه وسهره ويقظته ، ومناجاته الحبية لله ، وبكلمة ان تصرفاته كلها تشبه الاقامة في العالم الجديد .

وبنفس الفكرة يمتنع عن تناول الاسرار المقدسة ، لانه يتخلى عنها جسديا ويتناولها روحيا كما في العالم الجديد .

فعندما يدخل الراهب بعون الله الى موطن المعرفة ، وهي الطريق الموصل الى التواضع ، ويؤهله الرب برحمته لمرتبة الروح ، تصبح اقامته لتوه ، بسر عجيب ، في العالم الجديد . فيتنعم معهم ومثلهم روحيا بالاسرار المقدسة ، ويقتبل في نفسه المسيح بدون وساطة الرموز والاسرار ، ويتحد ذهنه به اتحادا مقدسا ، وهو يكون مأكله ومشربه بفم ذهنه الذي لا فم له ، كما هو المسيح في العالم الجديد ، مأكل ومشرب لسكانه ، منزها عن كل اسرار هذا العالم ورموزه .

«فلا لوم على الرهبان الذين يتخلون عن تناول الاسرار المقدسة في الحالتين اللتين تكلمنا عنهما . ففي الاولى يعتبرون انفسهم غير مستحقين لها ، وفي الثانية لانهم يتنعمون فيها روحيا .

ومن اختبر الحالتين في ذاته يعلم جيدا ما اقول . فهو لا يستحق تناول الاسرار المقدسة في الحالة الاولى ، اذا كان ماسكا زمام نفسه من صميم القلب وبدون اي انفعال من الخارج او من الباطن . كما ولا شك بان الذهن في الحالة الثانية يشترك روحيا وبنوع حقيقي مع الروحيين في الاسرار المقدسة .

«فأنت يابني افهم بنباهة هذه الاسرار الخفية والمدهشة . وارع حياتك عن معرفة بالاقامة في الصومعة . ولتكن سيرتك منتظمة بعيدة عن كل بلبلة . ورتّب صيامك باعتدال في السنة الاولى ، بحيث تتناول الطعام مساءً فمساء ، الى ان تروز جسدك بالجهود . وحينذاك اطل الصوم الى يومين ، ومنه الى تناول الطعام مرة او مرتين في الاسبوع . ولكن لا تعمل هذا بدون مشورة . وليكن سهرك منتصفا ، مثل الأنبا اشعيا[1] القائل :

«ليكن لك نصف الليل للراحة ، ونصفه الأخر للسهر الجاد» .

«وبعدما تتعود عليه ، اقضى الليل مثل الانبا ارسانيوس الذي كان يدير ظهره للشمسْ واقفا على رجليه الى ان يلاقيها من المشرق ، اي انه كان يسهر واقفا من غروب الشمس وحتى طلوع الفجر . وهكذا في جميع طرقك ، ابدأ بالامور الصغيرة وكمل بالكبيرة . واعمل واسلك فيها وخلالها جميعا بمشورة الشيوخ ، في الزيادة والنقصان ، في الاطالة والايجاز . واعلم ان جهد الراهب باطل بدون مشورة . لان عملنا في الصمت ليس لهذا العالم بل للعالم الجديد الذي لست خبيرا باساليبه وسبله . ولان صراعنا ايضا ليس ضد اللحم والدم ، بل ضد الرئاسات والسلاطين وضد قوى هذا العالم المظلم ، الارواح الشريرة التي تحت السماء[2] ، اعني ضد الابالسة المردة الذين يصارعون روحيا وبالكمائن في الخفاء . فلهذا السبب ومن اجل هذه الغاية يحتاج الاخ السالك في هذه الطريق ، الى شخص خبير يطلعه على فنون صراعهم واسرار كمائنهم الخبيثة ، لئلا يُطعن عن عدم خبرة وانتباه فيموت .

وكان يرشد الاخوة بطرق مختلفة ، موجها كل واحد منهم حسبما كان يراه صالحا له . واحيانا كان يعطي ارشادا عاما . ويقدم لكل واحد التعليم الملائم لحالته ، بحكمة عميقة ومعرفة واسعة . ويشرح كل فضيلة على حدة مبينا كيف وبماذا تمارس وما هي غايتها ، وما الجهاد الذي تقتضيه ، والى كم نوع تنقسم وتفصّل ، وما هو فعلها في كل مرتبة ، وكيف تُمارس احيانا جسديا واحيانا نفسيا واحيانا بالذهن روحيا .

فرأيت ان اجمع هذه التعاليم معا ، مرتبا اياها الواحد تلو الاخر ، وان كانت مقدرتي قاصرة عن كتابتها كما يليق بها ، انما باسلوب مبعثر وكيفما كان ، وحسب معرفتي الضحلة غير المثقفة .

١–الانبا اشعيا من مشاهير نساك صعيد مصر في نهاية القرن الرابع الميلادي .

٢ – افسس ٦ :١٢ .

في الصمت

الصمت هو الهدوء الذي فيه ينقطع المرء عن ضوضاء هذا العالم ومشاغله كلها ، وفيه تُمارَس جميع فضائل السيرة الرهبانية هذه . وفيه ايضا ترى النفس خطاياها وتعرف ذاتها ، ويدرك الانسان عظم رأفة الله وطول أناته علينا ، لانه بلطفه يحتمل خطايانا ويغفرها رغم كونها جلية قدامه ؛ ويعرف ايضا كم هي عظيمة القدرة الالهية التي تعين (البشر) وتحفظهم ؛ وما شدة صراع الشياطين معنا وبغضهم لنا .

فمثل هذه الامور وما يشبهها ، في الصمت يعرفها الانسان . اما خارج الصمت ، فلا يعرف الانسان كيف هو بالذات ، ويخطأ ولا يعي ، ولا يتبرر ، بل ويظن انه صدّيق . وما هذا الا لانه لا يرى خطاياه ولا يعرف انه لا يعرف ، ويظن انه يعرف بمعرفته الدنيوية ، التي هي بالذات لا تعرف ذاتها ، ولا يلقى فيها الانسان مغفرة الخطايا . بالحقيقة ليس من يرى خطاياه خارجا عن الصمت .

والصمت انواع مختلفة حسب اختلاف مراتب السيرة الرهبانية هذه . ففي المرتبة الاولى هو كسجن للمبتدئ يمنعه عن الخروج بدون جدوى من صومعته ، ويضطره الى ممارسة الفضائل كما يقتضي نهجه . وهو رادع له عن كل الخطايا العلنية المسببة من الخارج . فمن يمارسه يدعى حبيسا ، لان الله اهلّه للسكنى في صومعته .

وعندما يرتقي الاخ بعون الله الى المرتبة الثانية ، يصبح صمته من نوع آخر اسمى من الاول ، فيمسي له ميدان صراع يحارب فيه الابالسة والمقاتلين ظلما ، فينتصر وينكسر ، ويقع ويقوم ، الى ان تحل الرحمة فيجاهد ويحرز النصر ، فيُكتب اسمه مع المجاهدين الاشداء ، والمظفرين الاقوياء . فتصبح صومعته حينذاك محط الملائكة القديسين . فلا يمكن بعد ان يدعى الاخ حبيسا ، بل محاربا حقيقيا وعاملا نشيطا ، ومظفرا غلابا وبطلا متأهبا .

ولما يصل الراهب بنعمة الله ورحمته الى المرتبة الثالثة التي لا شيطان فيها ولا ملاقاة شريرة ، يتحول صمته آنذاك من نوع الى آخر . فعوض سجن وميدان صراع ، تصبح صومعته ميناء سلام يدر عليه كل عون وفرح ، اورشليم الرؤئ ، سيناء التجليات ، صهيون المعارف ، ينبوع النور ، جامعة الخيور ، قلعة مستعصية على الاعداء ، منتدى ابناء النور ، مقر ومسكن الثالوث رب العالمين ؛ ولا يدعى الراهب حينذاك حبيسا ولا مجاهدا ، ولا بشرا ايضا ومن العالم ، بل روحانيا وكاملا من ابناء مدينة الله الحي . لأنه

وان كان بالطبيعة انسانا ، لكنه يدعى الها ايضا واخا ليسوع ووارثا معه في مجده وملكوته ، ومسكن الروح محيي العالمين .

فلهذه الامجاد والعظائم والالهيات وبسببها ، يتسلح الابالسة اعداء الصالحات للقتال بكل اصنافه ضد الساكنين في الصمت ، منذ البداية ، ويحتالون بشتى الفرص ليخرجوا الاخ من صومعته ، مختلقين كل اشكال المكر والخداع .

وعندما لا يتمكنون من التغلب عليه بهذه الاساليب الشريرة ، يحثونه ليخرج من صمته تحت مظهر الفضيلة ، مثلاً ليعود المرضى ، ليخدم الاخوة ، ليأوي المعذبين ، ليفرج عن الحزانى ، ليريح المتعبين ، ليعين المتضايقين ، ليطعم الجياع ويسقي العطاش ، ويشبع الفقراء والمساكين ، ولأشياء كثيرة مشابهة ؛ فيتآمرون على الأخ قائلين كذا : انه لأفضل لك ان تكون عونا للمحتاجين ، من قعودك في الصومعة . وكأنك في سجن حيث لا يمكنك ان تساعد الا نفسك فقط ؛ ويثيرون فيه مخاوف ، ويضعون قدامه مصاعب جمة (قائلين) : لا احد يمكنه الوصول الى الميناء بهذه السيرة ، ومن الافضل للانسان ان لا يباشر بهذه الطريق ، من ان يبدأ ولا يكمل .

بمثل هذه الامور يتصارع الابالسة في النزال الاول مع الاخوة الصومعيين . اما في النزال الثاني ، فانهم يقاتلونه بأساليب اقوى من هذه : بالحزن والكآبة لا من اجل الله ، بكرب النفس ، بالسأم ، بالتجديف ، بالتكبر ، بمحبة المجد الباطل ، بالكبرياء المقاومة لله ، وبأمور كثيرة مماثلة لها ، ويعدونه بانه مسبقا قد بلغ الكمال ، فليصبح مرشدا للعلمانيين رجالا ونساء . ولهذه الغاية يفتعلون له الدواعي بعناية بالغة . فأحيانا يأتونه بتصورات كأن القرى رجالا ونساء وافدون اليه مدفوعين بالشفاء البسيط الذي نالوه منه بايمانهم . فيزلّ ويسقط في اشياء كثيرة بالكلام مع الحمقاوات والضعيفات بنات حواء . فتصبح اقامته في الصومعة بلا جدوى ، وكل جهده فيها بلا فائدة ؛ ويغررون به ايضا للخروج من صومعته ليجدد ديرا خربا ، او ليشيّد ديرا ؛ ويوحون اليه بفكر صالح وهو ان عليه ان يبذل ذاته في سبيل الله لخدمة اخوته العلمانيين ، هذا العمل الذي ليس هو خليقا به ، بل بالرجال الكاملين والشيوخ الافاضل .

وبكلمة ، فان الأبالسة يحاربون بشتى الفرص والميادين ، الاخوة الصامتين ليعرقلوا مسيرتهم في هذا الطريق المؤدي الى المنزل السماوي .

في الصوم

اما الصوم فهو السلاح الذي به يقدر الاخ ان يحارب الاهواء والأبالسة . فبه يتنقى الجسد من الرهل الذي تسببه كثرة الاطعمة ، فيشفى ويتعافى من امراضه المختلفة . وبه

ايضا تبرد شدة الاهواء الطبيعية ، وبه يضطرم الاخ حرارة لمحبة الفضائل ، وينفض الجسد عنه الثقل والسمنة ، ليكون بامكانه القيام للسهر بنشاط وتيقظ . وبالصوم لوجه الله تُقهر رغبة الطمع ، وتبطل شهوة الشراهة . الصوم هو منقي الجسد ، وان كانت محاسن الصوم هذه جزئية في المرتبة الاولى ، والاخ الذي يزاوله يدعى صائما عن كل شيء .

اما في المرتبة الثانية ، فصوم الراهب مزدوج ، لانه ينقي الجسد ويطهره تماما ، ويصقل النفس ويقدسها بالكمال . وبينما يُخمد شدة نار الأهواء في المرتبة الاولى ، فهنا يطفئها بالتمام ، وفي الاخير يقضي عليها نهائيا .
والجسد الذي رفعه الصوم الاول الى حالة النقاوة ، يرفعه هنا الى حالة افضل . ولا اقول الى حالة نقاء النفس ، بل الى حالة نقاء الجسد ، لان الحالة الاولى شيء والحالة الثانية شيء آخر .

والنفس ايضا يرفعها الى حالة الصفاء الكامل بكمال هذا الصوم المزدوج . فالأخ ، والحالة هذه ، ليس صائما عن الخبز فقط ، لكنه صائم عن الاهواء ايضا . وهذا هو الصوم الذي قال عنه النبي ،[1] وفيه تصوم النفس عن كل الشرور والاهواء . واذا لم يكن كذلك ، فالصوم عن الخبز باطل! . والاخ بهذا الصوم النفسي يدعى صائما عن الأهواء وصائما لله ايضا . وبهذا الصوم المزدوج يستحق الذهن لصوم الروحيين . وصومه روحاني وليس نفسانيا . فحينئذ يرتفع الجسد مع النفس الى حالة الصفاء الكامل . والذهن يسمو الى حالة مافوق الصفاء ، والراهب يدعى صائما عن العالم كله . ويُختم فم الذهن بختم صوم العالم الجديد ، لان المسيح وحده هو مأكله ومشربه بلا أي شيء آخر .

وبما ان الشيطان يعرف الى أية درجة يرتفع الصائم ، فانه يسعى منذ البداية لنقض الصوم المقدس ، فيتحارب مع الاخ بكل اصناف القتال : بالشراهة ، باشتهاء الاطعمة المتنوعة ، بالطمع ، بالجشع ، وباشياء كثيرة تشبهها . وعندما ينتصر الاخ عليها بمعونة الرب ، بسلاح الصوم القوي ، يحاربه بطرق اخرى : بالضعف العام ، وبالآلام التي تضطر الاخ الى حل صومه ، وبأسباب متأتية من الباطن ومن الظاهر ، كاستقبال الاخوة الذين يحق للاخ ان يحل صومه تكريما لهم ، ولاسباب مشابهة تتخذ ظاهر الفضيلة ، وتحدو بالاخ الى حل صومه .

١- اشعيا ٥٨ : ٣-١١ .

وحينما يعرف الاخ برحمة المسيح ان يميز هذه المغررات ايضا وينتصر على مافيها من شرور ، فحينذاك يجابهه بأساليب اخرى : بالتكبر والمجد الباطل والكبرياء وغيرها .

لذا يقتضي للاخوة الصائمين والصومعيين انتباه كبير في جميع مسالكهم ، وان لايعملوا شيئا بدون مشورة .

في الزهد

ان الزهد ترس متين يعترض سهام الاعداء الذين يطلقون في الظلام نبال شرهم على مستقيمي القلب . وفيه يتقوى الاخ لعبادة الله بالصوم النقي . فلا يوجد صوم صحيح خارجا عن الزهد الحازم . الصوم اعرج بدون الزهد . الصوم بالتعاون مع الزهد ينقي الجسد ويصفي النفس ، ويرفع الذهن الى حالة مافوق الصفاء .

ان الصراع الذي يعانيه الزاهد مرير ايضا كالصراع مع الصائم . فالانتباه ضروري ايضا . وعلى الاخ ان يمارس الزهد اكثر ، ولايتكل على ان الصوم وحده يكفيه ، لان الصوم باطل اذا لا يرتبط بالزهد رفيقه . فانتبه اليه يابني ، واشدد نير صومك بحزم ومشورة .

«انظر يابني . كن منتبها الى ماأقوله لك» اعمل بنباهة ومشورة كل عملك لله .

في الصلاة (اللفظية)[1]

ان الصلاة اللفظية سياج يحيط بالراهب الهمام ويقيه خداع ابناء الليل السالكين في الظلام . بها تصان جميع اعمال الراهب ، وبها يلطف جسده ونفسه على السواء . فمن جسداني يصبح نفسانيا ، ومن نفساني روحانيا ، ومن شماس مزمرا ، ومن هذا ايضا مهللا ، ومن العبد حرا وابنا ووارثا وحبيبا .

فالراهب النشيط في صلاته ، يصل بسرعة الى مرتبة النفس . والعدو ايضا يحارب بطرق مختلفة الاخ المواظب عليها : بالطيش التافه ، باضطراب الافكار غير اللائقة ، بالكسل ، باليأس مضيع الجهود كلها .

لذا ينبغي للراهب ان يكون منتبها على نفسه حينما يقوم قدام الله في الصلاة ، فيجمع افكاره من التيه والهذيذ الدنيوي ، ويشد فكره الى فهم الكلمات التي يتلفظ بها

١-في الاصل : «تشمشتا» وتعني حرفيا : خدمة روحية او مادية . والمقصود بها هنا : تلاوة الصلاة لفظا ، فرديا او جماعيا . ولذا اضفت اليها كلمة : اللفظية .

لسانه ، ويكثر منها اويقلل حسب المرتبة التي هو فيها . على ان يكون هذا بمشورة الشيوخ وامرهم .

في السهر

ان السهر لمدة ليال ، ينشط الجسد وينقيه ويجلو النفس . به يتمكن الراهب في خدمته قدام الله ، ان يجمع افكاره من الطياشة . وبه يستحق لفعل النعمة الذي يبطل هجمات الخصم . وبه يقتبل موهبة الله وقوته في صفاء صلاته المديدة فيه . حقا ان المواظب على السهر اليقظ في صلاته ، لهو من سكان مدينة الساهرين العلويين . وكما ان الزهد يتظفر بالصوم ، والصوم يكتمل بالزهد ، كذلك الصلاة تكتمل بالسهر ، والسهر يُمتدح بالصلاة . اما الصراعات التي تلاقيها الاسهار فهي : الثقل ، الكسل ، النوم الكثير ، ألم الكتفين ، ارتخاء الاعضاء ، الخوف والفزع ، وما يشبهها . «واظب يابني على السهر ، لانك تستحق فيه الأمور العظيمة السامية ، ومواهب الروح القدس التي تُقتبل في الذهن فقط . وانظر ألاّ تخفي شيئا عمن عهدت بنفسك اليه لأرشادها ، من جميع الامور التي تطرأ عليك في سهرك اثناء الصلاة ، سواءٌ أكانت يمينية ام يسارية .

في القراءة

ان قراءة الكتب تجمع الافكار والذهن النيّر ايضا ، من الطياشة الفارغة هنا وهناك . وفيها كما قلت سابقا ، يتكلم الله معك ، ويريك طريق خلاص نفسك . وبدونها لا الصلاة تتنقى بجمع الافكار ، ولا السهر يفلح بيقظة العقل .

«واظب عليها اذن يابني باجتهاد واستمرار ، فيكون لك ان يكلمك الله وجها لوجه بدون وسيط . واحذر القرأة التي تعلم معرفة دنيوية وتفلسفا وجدالا ، او مايكسب التكبر . لان الجهد المبذول في مثل هذه القراءة باطل ، لابل ومبيد لعمل الراهب الصومعي . انما طالع الكتب التي تناسب مرتبتك ، لتتعلم منها عن سيرتك ، وكيف تسلك في الطريق الممهد والمطروق ، نحو المنزل الذي يتطلع اليه اتجاه عملك .

في الصلاة (الفكرية)

الصلاة هي ذكر الله دائما ، والهذيذ بامجاده وتدابيره المدهشة والسامية . فما اصعب الكلام عن الصلاة ، انها مستعصية على معرفة اولئك الذين يفهمونها جسديا (ماديا) . لانها تمارَس جسديا ونفسيا وروحيا .

اما جسديا ، فعندما تتلى في مقام ماتحت الصلاة . والاخ يمارسها جسميا في هذه الحال ، إما بذكره الله ، واما بالهذيذ في تدابيره . واما بركعات مديدة ، واما بكل مايعمله الانسان بنية مستقيمة لاجل الله ، فهذا يُعتبر صلاة ، وهو كذلك ، كما يعلم القديس المفسر[1] قائلا : «ان كل شيئ فيه ذكر الله يعتبر صلاة قدام الله» .

اما الصلاة التي تصلى نفسيا فهي التي تصلى في مقام الصلاة ، من قبل من يستحقها بفضل الله . ولايمكن للجسداني ان يتعلم التحدث عنها ، لانها تصلى في النفس والفكر بينما جميع حواس الجسد وقواه ساكنة ، اذ لاتصلى بالفم ولاترتل باللسان . ومن يعرف ذلك ويستحقه ، عارف بما اقول ، وهو الذي دخل الى هذا المقام المقدس ، وفيه قرّب ذبائح صلاة لله الحي .

اما الصلاة الروحية ، فتصلى في المقام الذي هو فوق مقام الصلاة . ولاتصلى بحواس النفس وقوى الفكر ، بل بخلجات الذهن صورة الله ، وهنا ايضا ، من لي بمن يفهم ذلك ويصدقه!

ايها المسيح قدّرني برحمتك للصلاة في مقام لاهوتك المجيد آمين .

في السجدات والركعات

ان الانحناء وبسط اليدين والركوع الطويل في الصلاة ، يكسب الراهب وداعة الفكر والرزانة وحرارة القلب وخفة الجسد واتقاد النفس وغليان الخواطر ، بالقيام الدائم في الصلاة قدام الله . لان صلاة الاخ ، وان كان فيها تلاوات ، فهي اعتيادية وباردة وهزيلة بدون السجدات التي يرافقها الانحناء وبسط اليدين والركوع .

«فواظب يابني على هذه (الممارسات) بكل قوتك وبكل نفسك ، بحرص بالغ واجتهاد بطولي ، لكي يكون قربانك مقبولا لدى الله .

في التواضع والوداعة واللطف ورذل الذات

التواضع هو حُلة المسيح ربنا . وبدونه لامعنى لعمل الراهب كله ، وان كان كاملا في جميع الفضائل . لان التواضع يجعل الفضائل فضائل ، لابل وبدونه تكون الفضائل باطلة ومضرة ومهلكة ومضاددة . وكذا الصمت الممتدح والصوم المقدس ، والصلوات والخدم الروحية وغيرها ، ما لم تمارَس في التواضع وبالتواضع . اما في

١- هو تاودوروس المصيصي .

التواضع ، وحتى بدون الفضائل (الاخرى) فالتقوى كلها موجودة ، لانه ملح سيرة الحياة كلها . وبدون الملح ، فطعم كل شيءٍ تافه وكريه .

ان الكلام عنه وعن انواعه طويل ، فأتركه لموضعه ، حينما يدور الحديث حول المراتب بعون الله .

اما الوداعة فهي وليدة التواضع .

اللطف صفة رئيسية للخالق الهنا له السجود . فالطيب المعشر شبيه بالله . والوديع في تصرفاته شبيه بالمسيح ربنا .

اما رذل الذات فهو وليد المعرفة التامة التي تطلع الانسان على ضعفه ، وعلى انه ليس شيئا ذا قيمة بدون معونة الله .

فالمتمسك برذل الذات في جميع تصرفاته ، لايمكن للتكبر ان يشّوه تقواه .

«فاسمع يابني : اختر لنفسك التواضع . وضع نفسك ليرفعك الله على اعدائك . كن وديعا لترث ارض الميعاد . اكتسب اللطف ليفرح المسيح بلقائك . ارذل ذاتك لئلا ترتفع فتقع بيد المبغضين ظلما .

في التجرد

التجرد هو نصرة السيرة الرهبانية هذه . بدون التجرد لاصحة للصمت ولا لما فيه من ممارسات . ولااقول فقط التجرد المادي بدون فطنة ، بل والتجرد عن افكار الطمع . لانه يوجد من هو فقير ولايملك شيئا ، لكنه ليس فقيرا بالفكر ، لابل اذا امكنه يفكر ويطمع في العالم كله . ويوجد ايضا من ليس فقيرا في الوارد الدنيوي ، وهو فقير بفكره في محبة المال وجميع الشهوات .

«كن يابني فقيرا في الحاجات الزائدة وفي افكار الطمع ايضا ، لتصبح باسلا ومظفرا بسيرتك في الصمت .

في الرأفة

الرأفة شبيهة بالله ، والرؤوف هو حقا اله يمشي على الارض . وكما ان الله يرحم الجميع بدون تمييز ، كذلك الانسان الرؤوف يسكب خيراته على الجميع بالتساوي .

«كن يابني رؤوفا واسكب الخيرات على الجميع ، لترتفع الى رتبة الالوهية ، لان الرؤوف كما قلت هو اله ثان على الارض . وانتبه لئلا يضلك الفكر الذي يراودك : «يجب ان ارحم ابن الايمان افضل ممن هو غريب عنا» ! . فهذه ليست الرأفة المستقيمة

الشبيهة بالله الذي يغدق عطاياه على جميع بدون بخل ، ويشرق شمسه ويمطر على الصالحين والاشرار على السواء .[1]

كما وان الرأفة لاتمتدح بكثرة الصدقة فقط ، الا اذا كانت بنية سليمة ورحومة . اذ يوجد من يعطي ويوزع بكثرة ، ولكنه ليس محسوبا عند الله رحوما . ويوجد من ليس له ولايملك شيئا ، وفي قلبه يرحم الجميع ، فهذا معتبر عند الله رحوما تماما ، وهو كذلك حقا . فلاتقل اذن ليس لي شيئ ، تعطي منه للمحتاجين ، ولهذا لاتجهد نفسك لتكون رحوما . فان الرب لم يمتدح اولئك الذين كانوا يلقون مالا كثيرا في خزانة الهيكل ، كما مدح فلسي الارملة التي القتهما بنية سليمة في خزانة الله[2] رغم عوزها . ان الانسان الذي يشفق في قلبه على بني جلدته ، يحسب رحوما عند الله . وان نية مستقيمة واحدة ، وان لم تأت باي عمل ، لهي خير من اعمال كثيرة ملموسة تعمل بدون نية سليمة .

فالانسان يمكنه ان يكون رحوما ويمارس الرحمة ، وان لم يكن يملك شيئا . اي رحوما بالفكر .

في المحبة

المحبة هي الله ،[3] لان جوهره هو المحبة والمحبة هي جوهره . فالمحبة حركت خالقنا فاوجد خليقتنا . فالانسان الذي له المحبة انما هو اله بين الناس .

«فابذل مافي وسعك يابني لتقوم فيك محبة البشر ، وبها وفيها ترتفع الى محبة الله التي هي غاية الغايات كلها .

وايم الحق ان جميع الممارسات باطلة اذا لم تكتمل بالمحبة . لان جميع الفضائل وجميع الممارسات تصل بالانسان الى باب الملكوت ، اما المحبة فوحدها باقية وهي تجلسنا عن جنب المسيح .

«لاتكن محبتك يابني مقسمة وجزئية ومغرضة ، بل سخية ومن اجل الله ونزيهة . عسى المسيح يعطيك المعرفة لتعرف سر هذا الكلام : «احبب كل انسان مثل نفسك ، لابل احبب اخاك اكثر من نفسك ، ولاتطلب ماهو مفيد لك فقط ، بل ماهو خير لاخيك . ابذل نفسك في محبة قريبك ، ليحبك المسيح ويجعلك وارث محبته .

١- متي ٥:٤٥ .
٢- لوقا ٢١:٢-٤ .
٣- اولى يوحنا ٤:٨ .

«انتبه يابني لئلا تستخف بهذا (المبدأ) ، لان الله هو احبنا الاول ، [1] وبذل ابنه للموت من اجلنا ، كما قال (الرسول) الصادق : «لانه هكذا احب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد للموت من اجله» . [2] فمن سلك في سعيه سبيل المحبة هذا ، يصل بسرعة الى المحط الذي يقصده . فلاتعتقد يابني ان الانسان يمكنه اكتساب محبة الله التي تعطى باحسان ، قبل ان يحب ابن جلدته .

في المعرفة

«اعلم يابني ان جميع فضائل السيرة الرهبانية هذه مرتبطة كالسلاسل الواحدة بالاخرى ، وكلها (مرتبطة) بالمعرفة . وهذه الصغيرة مرتبطة بتلك الكبيرة ، وتلك بهذه الصغيرة ، وجميعها بالواحدة والواحدة بجميعها . فانتبه يابني لئلا ينفرط رباط سلسلة فضائلك . واهتم خاصة بتلك التي تبدو لك صغيرة ، ولاتستخف بها ، لئلا تتبلبل الفضائل الاخرى من جراء ذلك .

ان السيرة الرهبانية كلها متوقفة على المعرفة . ومن يمارسها عن معرفة يصبح هو معلما لنفسه في جميع تصرفاته . ومن يعمل بدون معرفة ، فعمله كله يكون باطلا ، وان كان جميع الحكماء مرشدين له . لان المعرفة هي سراج النفس ونورها ، وبها تسير في الصراط المستقيم وبلا كبوة . اما الجهل فهو ظلام دامس وجحيم معذِّب . يوجد من يأكل بمعرفة ويعتبر صائما ، ويوجد من يصوم عن جهل وهو شره ويعتبر كذلك . يوجد من هو صامت لكنه مشاجر ، ويوجد من يتكلم لكنه ساكت . ويوجد من يصلي ويرتل ويزمر وهو يتخاصم مع الله ، ويوجد من هو ساكت لكنه يرضي الله بذبائح قلبية يقرّبها بالخفية . وهذا هو دأبه في تفاصيل هذه السيرة الروحية .

فاحرص يابني على ان تسلك عن معرفة في سيرتك كلهاء وبها زاول جميع اعمالك ، لكي تسير متقيما بنورها الهادي على هذا الدرب الروحي . فانها تصل بك الى العلى حيث سبق ودخل بكر حياتنا . وهناك تصبح سيدا وملكا ومسلّطا وابنا ووارثا وشريك ميراث يسوع المسيح .

١- اولى يوحنا ٤ : ١٩ .

٢- يوحنا ٣ : ١٦ . (النص بتصرف) .

كلمة عامة حول مختلف المراتب التي فيها يمارس الراهب هذه السيرة التي تدهش الملائكة . ومواضيع اخرى تعرف من قرأتها ،

اعلم ايها الأخ ، ان المراتب التي فيها تُمارس هذه السيرة الرهبانية ثلاث . وفي كل واحدة من هذه المراتب الثلاث ، حالات ودرجات ومراق مختلفة . وبما انكَ طلبت مني أن احدثك عنها ، فها انني اطلعك عليها باختصار واقتصار . حسب امكان معرفتي الزهيدة ، وحسبما عرفت وسمعت من الربان (يوسف) .

فالمراتب الثلاث هي :

مرتبة الجسد ، ومرتبة النفس ، ومرتبة الروح .

اما مرتبة الجسد فان جميع ممارساتها هي جسدية ، وفي الجسد تُمارَس بغصب الذات . فمن لايغصب ذاته في البداية ، لايمكنه الاقامة في صومعته الشبيهة بالسجن ، ويمتنع عن مخالطة الناس ويبقى وحده . كما وهو محتاج الى غصب ذاته في ممارساته كلها ، سواء للصلاة وتأديتها ، او للسجدات والركعات ، اوالسهر ، والخ . . . وبدون غصب الذات لايمكن القيام ولابعمل واحد في المرتبة الاولى ، حسب تعليم مرشد الرهبان الانبا اشعيا .

فكان الربان (يوسف) يحرض الاخوة القائمين في هذه المرتبة ، على غصب ذاتهم الى اقصى حد في الصومعة ، ملقيا عليهم خوفا عظيما من الله ومن احكامه الرهيبة ، بالفزع من جهنم وعذابها ومافيها من اهوال . وكان ينصحهم قائلا :

«اتق الله يابني وارتعد من احكامه ، لانه يعذّب في جهنم لاتطفأ نارها ولايموت دودها ، حسب قول الرب ، اولئك الذين اثموا ولم يعملوا البر» .[1] فاغصب نفسك غصبا شديدا يابني وعذبها انت هنا في عمل البر ، لئلا تتعذب هناك عذابا ابديا . فان العناء هنا قليل وقصير جدا ولأيام معدودة . اما عذاب جهنم فأبدي ولانهاية له ، حسب حكم الرب القائل : [2] «والذين لم يعملوا البر يذهبون الى العذاب الابدي» .

١- مرقس ٩ :٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ .

٢- متي ٢٥ :٤٦ . (بتصرف) .

بهذه الاقوال ومايشبهها كان يخيف الاخوة ويشحذ همتهم ليغصبوا انفسهم على ممارسة تقوى الله .

وهذا الاسلوب الاول يسميه الحكماء «عامل الخوف» اعني خوف الله ، وهو الخوف الذي ينتج عنه عامل المحبة . وعلى سبيل المثال : كما ان العبد يعمل قدام سيده عن خوف وليس عن محبة ولا لأجل مكافأة ، بل فزعا منه ، كذلك شأن الاخ العامل بدافع الخوف هذا .

وبعدما يتقدم الاخ قليلا بوعيه الى امام ، كان (الربان) يغير اسلوبه معه ونصحه له قائلا : «لايليق بنا يابني ان نعمل قدام الله بخوف وعن خوف . بل علينا ان ننتظر الثواب عن عملنا قدامه ، مؤمنين بانه يعطينا في ملكوت السماء ثواب هذا العمل القليل ، أمجادا لاتوصف ، ويمتعنا بخيرات العالم الجديد ، ويقدّرنا للمجد والكرامة مع القديسين .[1]

وكما ان الاجير يعمل مع صاحب الاجرة من اجل الاجرة التي ينتظرها منه ، كذلك عمل الراهب في هذه الممارسة يدعى عامل المكافأة . لكن الاخ في هذا العمل لايحتاج الى غصب ذات كبير ، لانه قد تعود على الاعمال وسهلت عليه في الممارسة الاولى ، وهو متحمس لها ، وهي خفيفة عليه بسبب انتظاره المكافأة في الخيرات المقبلة . وهذا العمل اعظم من سابقه . وكلاهما يمارَسان في مرتبة الجسد .

اما الحروب التي يشنها الأبالسة ضد الاخ في هذه المرتبة ، فهم يشنونها مع الجسد وجسديا وهي : الملل ، الكسل ، الثقل ، النوم الكثير ، الطيش ، الخوف ، الشراهة ، الطمع ، النهم ، شهوة الاطعمة ، رغبة الزنى ، الدنس ، الثلب ، العناد ، وكثيرة مشابهة لها .

وفي هذه المرتبة يعطى للاخ تأمل الاجسام اعني ان يرى فكريا القوة والسر الخفيين في طبائع المخلوقات . فيسبّح الله الخالق على حكمته التي لاتدرك . وفي التأمل تستنير معرفته وتعلم كيف تميز كل شيء بوضوح ونباهة ، ولماذا هذا الشيء بهذه الصورة والآخر بصورة اخرى .

اما في مرتبة النفس ، فان افكار الراهب ترتفع عن الامور الجسدية ، لان نفسه تستنير بديمومة اعماله في الممارسة الاولى ، ويعرف ويفهم بمعرفته المستنيرة بان الله ليس ديانا لنخاف منه ، وباننا لانستحق الامجاد المقبلة باعمال ممارستنا ، بل احسانا ورحمة . ولهذا السبب لايحق لنا الظن بان (الله) مكافيء ، بل اب ومدبر .

١- الثانية قورنثية ٤ :١٧ .

فمن ياترى يمكنه القول اوالتفكير بان في امكانه ان يفي ولو دَينا واحدا مما لله عليه! وخاصة اذا كان ينتظر ان يكون ثوابه عن عمله أمجاد العالم الجديد . صدقني ياخي لو كانت الخليقة باسرها في مدى هذا العالم ، تعبد الله بكل الفضيلة ، لما قدرت على ان تفي ولاواحدةمن النعم التي يغدقها الله علينا في هذا العالم ، بالاضافة الى اننا الان ننتظر عن عملنا الامجاد المقبلة التي لانستحقها باعمالنا بل من فضل حنان المسيح ربنا .

في هذه المرحلة يتغير الراهب في سيرته كلها ، ويصبح آخر تماما . فمن جسداني يصبح نفسانيا ، ومن عبد واجير ، ابنا ووارثا وسيدا . وبدل عمل الخوف وانتظار المكافأة ، يعمل عمل المحبة قدام الله . وكما ان الابن لايعمل قدام ابيه عن خوف ، ولا لأنه ينتظر الاجر ، بل يقوم بعمله عن محبة ، ولأنه ابن ووارث وسيد كل مقتنى ابيه ، كذلك شأن الأخ في عمل المحبة هذا ، فانه يعمل في اشكارة حياته في الله بهمة عالية منزهة عن كل كسل العبيد والاجراء وتهاونهم .

غير ان هذه المحبة التي بها يتحمل الراهب كل الصعوبات بفرح ، قد وضعها في النفس عامل الخوف والغضب . لان المحبة تبرز من الخوف كما من غمد ، سيفا ذا حدين ، فتقطّع كل الصعوبات وتذللها . فما كان يعمله الاخ غصبا يمكنه الان ان يعمله بدون غصب ، ويمارس الصلاة ومافيها من جهود ، والقرأة والسهر وغيرها ، بشوق وبدون مشقة ، مضيفا اعمالا كثيرة مضاعفة على الاولى . وهذا الوضع يجري في نهاية المرتبة الاولى وبداية الثانية .

وبعدما يتقدم الاخ في هذه الثانية الى امام ، ينقطع عن الاعمال الخارجية التي تمارَس في الجسد . وبدل ماكان يصلي باللسان والشفتين ، فانه ينشد ويرتل بلسان النفس اعني بالفكر . ويمارس قرأته بالصمت ايضا . والصمت يستولي عليه من الخارج في سيرته كلها . وبهذا النهج الفكري يتمم عمله كله الذي يبدو غريبا ومتبدلا للكثيرين الذين ليسوا مطلعين عليه . لان الراهب لايمكنه ان يقرأ او يتلو المزامير بصمت الا بغصب ذاته لفترة قصيرة احيانا . وهذا ليس جزافا ، ولكن كما قلت سابقا ان الصلاة الحقيقية هي ذكر الله ، لذا وضع الأباء القديسون هذه الصلوات ورتبوها لكي نتلوها ، وكذلك القرأة والتأمل فيها ، فتكون لنا كآلة تحرك في ذهننا ذكر الله ، لان الفكر لايمكن ربطه بذكر الله بدون تلاوة المزامير وغيرها ، حيث يرد ذكره له السجود ؛ فتشد الفكر نوعا ما لكي لايتيه هنا وهناك . وعندما يكتمل الراهب في نهج الفكر ، يخلو الفكر حينذاك من كل تيه وكل شيئ ، ويرتبط بالله ويتحرك فيه دائما ابدا ، فليس بعد بحاجة الى مادة الكلمات لتحرك ذكره ، فيما انه مقيم في الله . فكلمات الصلاة من

الان وصاعدا لاتساعد الفكر فحسب ، بل وتشوشه اكثر. لان نصوص الصلوة تحتوي على افعال غريبة عن نهجه وتحَركه في الله الساكن فيه . فهذا هو حقا معنى قول الرب القائل : «ان ملكوت الله في داخلكم»[1] ، اعني : « انا في أبي وأبي فيّ»[2] اسكن في داخلكم بلاحد . فالمسيح يقيم في النفس وفي صميمها بلا حد حقا . ومادمنا لانقدر ان نعرف ونرى ذاك الذي هو في باطننا ، فلن نزال نستخدم الاشياء التي تذكرنا به من الخارج ، الى ان نجد برحمة الله الجوهرة التي لامثيل لها . وعندما نجد في حقل النفس اعني في داخلنا الجوهرة التي لأجلها نعتبر كل شيئ كالزبل ، فحينذاك لايتيه الفكر هنا وهناك بعيدا عنها ، لكن فكرنا يهذ دائما ابدا بالكنز الذي في داخلنا وهو المسيح ، حتى وقتما نرقد ونغوص في النوم . لان نوم الراهب في هذه المرحلة يعتبر صلاة تامة ، لان فكره لاينقطع عن مناجاة الله ، لامابين اليقظة والنوم ولااثناء النوم العميق .

وما اقوله يعرفه ذاك الذي راى بنفسه هذه الامور ، ويتذوق عذوبتها في حنك فكره . اما ذاك الذي لم يكن رائيا لها ، ولم تطأ قدم ذهنه هذا الموطن ، فانها غريبة عنه وخيالية ، لان الجسداني لايتقبل الروحيات ، كما يقول الرسول الطوباوي ،[3] لكنه يعتبرها جهالة وضلالة .

هذا هو نهج الفكر الذي يتكلم عنه الأباء الطوباويون . فعلى الراهب في هذه المرتبة ان ينتبه جدا على نفسه ، وان يطرق باب الشيوخ الذين سبقوه في هذا المضمار ، ليتعلم منهم كيف يسلك في هذا الموطن الذي لم يسلك فيه من قبل .

كما وان الحروب التي يشنها الأبالسةضد الرهبان في هذه المرتبة هي اقسى بكثير من الحروب التي يشنونها في المرتبة الاولى وهي : الضيق ، الكآبة ، الغضب ، الغيظ ، اليأس ، التجديف ، المجد الباطل ، الافتخار ، حب الظهور ، الكبرياء المضاددة لله ، وغيرها ، فهذه لاتقضي عل الممارسات فقط ، بل وعلى الراهب ذاته .

وفي هذه المرتبة يعطى للراهب التأمل اللاجسمي اعني رؤية الملائكة والنفوس التي يراها بعين فكره في طبيعة فطرتها ، وهي مرتبة آدم السابقة لتجاوز الوصية . واليها وصل

١- لوقا ١٧ : ٢١ .

٢- يوحنا ١٠ : ٣٨ ؛ ١٤ : ١١ .

٣- اولى قورنثية ٣ : ١ .

الانبياء القديسون ، ولكن جزئيا فقط ، لان الانبياء لم يصلوها بالكلية . اما الرهبان الطوباويون فقد بلغوا منها حد الكمال .

اما المرتبة الثالثة فهي مرتبة الروح : ان معرفتنا السطحية لقاصرة عن التحدث عنها . فهي المرتبة التي سما اليها الرسل القديسون والآباء العظام .

اننا في المرتبة السابقة لها نجد المسيح ربنا في نفسنا ونعرف انه ربنا والهنا ومدبرنا . اما في هذه المرتبة الاخيرة ، فيظهر الذهن انه هو المسيح ، وان المسيح ليس المسيح (كما يبدو لنا) **وانه ليس انسانا والله آلها ، بل انه هو الله ، والله لا الله** (كما يبدو لنا) .

فالراهب يحيا اذن في هذه المرتبة كلها على نمط العالم الجديد ، لانه قد دخل اليه في السر ، وها انه مقيم فيه سريا ، ويهلل ويرنم روحيا مع الملائكة .

فالاعمال التي كانت تمارَس في الجسد بطلت تماما ، والتي كانت تمارَس في النفس ، فالجسد يقوم بتأديتها ، والتي في الفكر ايضا ، النفس تنجزها ، والفكر يقوم باعمال الذهن ، لأن الذهن لم يعد بعد في هذا العالم ، لأن الجسد يلطف سريا ويقوم مقام النفس ، والنفس مقام الفكر ، والفكر مقام الذهن ، والذهن قد اضحى الها ، بل واضحى الله الحق ، واياه وحده يعبد الجسد والنفس والفكر . عفوك ياأخي ، ولاتضطرني الى اطالة الكلام عن هذه المرتبة اكثر من هذا! لان افكاري ، والمسيح الشاهد الحق يشهد لي ، قد انقطعت في هذا الموضع ، واخذ الدهش منها اي مأخذ ، فلاتقوى بعد على الحركة ، ويميني توقفت ولم تقدر على السير قدما كالمعتاد . ولهذا السبب ، ولان الحديث مستعص ، لم اتمكن من الاستغاضة في الكتابة اكثر مما كتبت . وقد حاولت جهدي للتبسيط في حديثي ، لكن عظمة معجزاته السامية لم تطاوعني ، ولدى ارتفاع الحديث قليلا ، كان عقلي يصاب بالذهول فيصمت .

فمن استحق هذه المرتبة برحمة الله ، لايحتاج الى علم من الخارج ، بل انه هو بالذات معلم نفسه .

واعلم ايها الاخ ، ان هذه المرتبة لاتصلها الاعمال ، ولايبلغ اليها المرء بالاعمال ، ولكن برحمة المسيح وبفضل حنانه ، كما لايوجد من يستحق مجد العالم الجديد الا برحمة الله .

في هذه المرتبة تعطى للراهب رؤيا الثالوث الأقدس ، رؤيا لا مثيل لها في هذا العالم ، بل انها الرؤيا التي تعطى في السر في العالم الجديد ، جزئيا وبحد الممكن . والثالوث له السجود هو الذي يكشف رؤياه الذاتية للذهن بدون وسيط . لان الذهن

يهتدي بالملاك الحارس في جميع الرؤى الأخرى . اما رؤيا الثالوث الاقدس هذه التي تعطى في هذه المرتبة بلا وساطة الملاك ، فان الذهن يشاهدها بالمسيح دليله ، ويسبح فيها عريانا ناسيا ذاته وكل شيئ تماما . حتى ان الملاك يوقفه احيانا ويقول له : تذكر ذاتك ياالنسان وتعقل ، واضبط زمام ذهنك قليلا لئلا تتيه وتغرق في هذا البحر الذي لاحد له ولاشاطئ . ايها المسيح قدّرني برحمتك لأحظى بنور معرفتك مع القديسين آمين .

ان هذه المرتبة هي الموطن الذي لاشيطان فيه ولاملاقاة شهوة لكن الذهن لايمكنه البقاء في هذا الموطن دائما ، لان الذهن فيه ، صدقني ياأخي ، لايعرف شيئا عن العالم بتاتا ، سواءً أقام فيه يوما او أياما . فانه يبقى بلا طعام وبلا نوم . وإن ظل الراهب واقفا على رجليه اوجالسا ، فان ذهنه ينجذب للارتفاع الى موطن الروح هذا ، ألا وهو السماء التي مافوق موطن الملائكة . وسواء مكث فيه يوما او أياما ، او مهما طال الزمن ، فانه يبقى كما هو بدون حس البتة . ولا يتحرك ولايتزعزع من مكانه ، الى ان يسترجع وعيه . وحينئذ يعرف انه في هذا العالم ، فيعطي لجسده الراحة والنوم للحفاظ عليه فقط . لان الانسان مادام في هذا العالم ، فلابد له من قضاء حاجة جسده . فالراهب اذن لايمكنه البقاء دائما في موطن الروح هذا ، بل احيانا ، حسبما تؤتيه النعمة مدبرته . وطالما هو في هذا الموطن ، فلاصراع يجابهه ، ولا اي شيئ آخر غريب عنه . ولكن عندما يعود الى عالمه ، فان حربا واحدة من بين جميع الحروب يمكنها ان تنازله ، ألا وهي شيطان الكبرياء ، بؤرة الشر ومثيرته . فلهذا السبب ينبغي للراهب ان يكون دائما على انتباه تام ، لان المرتبة التي هو فيها عظيمة . كما ان حرب الكبرياء التي يلاقيها شديدة وقاسية جدا . لان رئيس طغمة الأبالسة يتحارب معه . لذا يكتسب الراهب في هذه المرتبة ايضا التواضع الكامل والرفيع ، القادر على دحر ابليس الكبرياء هذا . لان التواضع يأتي مع المراتب وحسب درجاتها . فحينما يرتفع (الراهب) من واحدة الى اخرى ، يرى انه لم يكن حاصلاً على التواضع في سابقتها ، بل انما كان ظله وشكله .

وعليه يجاهد الاخ منذ البداية ليكون متواضعا في جميع تصرفاته : بمشيته الرزينة ، بخفت نظره الى اسفل ، بلقائه الوديع ، بطيب معشره ، بكلامه الهادئ ، بشكله وملبسه ، والخ . . .

غير ان هاجسا ما خبيثا يخطر له من الباطن موحيا بانه ها قد كمّل الوصية واضحى متواضعا حقا . واخيرا يعي الراهب ويعلم ان هذا الهاجس كان كبرياء وليس تواضعا .

وبعدما يسير الراهب قدما على هذا الاساس الذي وضعه ، يكتسب آنذاك في نفسه وبدون جهد ، ذلك التواضع الخارجي المرتبط بالتصرفات الظاهرة . وهنا ايضا يراوده ابليس بظن انه جاهد حسنا الى ان اكتسب التواضع الحقيقي بجهوده . وبهذا الهاجس الباطني يمكن لابليس الكبرياء ان يحارب الراهب . وكثيرون يسقطون عن هذا التواضع بعدم معرفة

فحينما تكتمل معرفة الراهب ويعرف ذاته وضعف طبيعته الشقية ، وبأنه لاشيء اطلاقا بدون معرفة الله ، ولايمكنه بقواه الذاتية ان يحمد الله مرة واحدة ويقول : سبحانك ! ، لكن الله هو الذي يقدّره ليذكر بشفتيه الدنستين اسمه له السجود ، وحتى لما يؤهّله لتمجيد اسمه القدوس ، لايمكنه من ذاته ان يسدي الشكر له عن نعمته عليه ، لكن معونة الله هي التي تؤتيه القدرة على اسداء الشكر الواجب ، لكونه استحق اسداء الشكر ، كما قال ملفاننا الكبير مار افرام :[1] «علينا ان نسدي الشكر لمن قدّرنا لأسداء الشكر له» : فيلاحظ الانسان هذا الشقي انه بقدر مايستحق الموهبة برحمة الله ، بقدر ذلك يزداد التزامه لأسداء الشكر عن النعمة التي نالها احسانا ؛ كما وان عليه ان يؤدي الحمد لانه ادى الحمد ؛ ولأنه كما قلت لايملك القدرة من ذاته بدون الله ، لاعلى ان يسبّح ولا ان يمجد ، وبمقدار مايحمد يتضاعف واجبه عليه ؛ فحينئذ يتضع اتضاعا حقيقيا وكاملا ، بحيث لايجرؤ حتى ولا على التفكير بأنه شيء البتة ، بل ان ماهو عليه انما هو بفضل الله . كما صرخ الرسول قائلا بانه بنعمة المسيح هو ما هو عليه[2] . وبهذه المعرفة والتواضع الصادر عنها ، تبطل جميع الحروب والصراعات . لأن الأبالسة لايجدون مجالا لمحاربة من لايعتبر نفسه شيئا بتاتا . وهنا ايضا ، صدقني ياأخي في ماأقوله لك ، وقد سمعته بدوري من أخ عزيز رواه لي بمودة ، كما احس به في نفسه ، وانا صدقت كلامه الذي تأكدت من صحته بعد تجارب عديدة وهو : عندما تتثقف نفس الراهب في هذه المعرفة ، ويستنير فكره ويتضع حقيقة ، يترسخ في ذهنه تماما انه حقا الوحيد الذي من بين جميع الناطقين ، يستحق عذاب جهنم الذي وُضع للتأديب ، وبأن الناطقين جميعا يفهمون به ذلك التدبير القاسي بآلامه والمدهش بشكله ، الذي يظهر فيه . لانه يعرف بأن الله بمحبته وحبه يؤهل الجميع على السواء لملكوت ابنه الحبيب ، وبانه لابد من تحقيق ذلك التدبير له

١–راجع ترجمة حياته في : ادب اللغة الآرامية ص ٧٩–٨٨ .

٢– اولى قورنثية ١٥ : ٢٠ .

السجود ، الخاص بجهنم ، وبانه بقدر مايزداد معرفة بذاته يجدها احقر واشقى الناطقين جميعا ، اذ لاخير فيه اطلاقا قبل ماينال ماناله سابقا بفضل الله . فلهذه الاسباب . ولصحة مافي نفسه ، يتأكد في ذهنه كل التأكد ، انه هو الوحيد الذي أُعد لذلك التدبير الخاص بجهنم .

ايها المسيح الرجاء ، والنور والمعرفة ، نجني انت من الجهل ، هذا الجحيم المعذِّب آمين .

«اذن يابني ، افهم ماقلته لك اعلاه وحتى الان ، ولاتستخف بكلمات شيخوختي . اعتن بشأن نفسك جيدا ، وأبدأ بالامور الصغيرة ، لكي تصل منها برحمة الله ، الى الامور الكبيرة . وانتبه لئلا تبدأ اولا بالكبيرة : لان القادم من السطح هو سارق وقاتل الانسان وذاته ايضا ؛ [1] وحصيلتك من ذلك انك تقضي أيامك بالبطالة ، لانك لاتنجح بالكبائر ، ولأن الصغائر لم تمارسها ، وقد فات اوانها ، وياليته باطلا ، بل انما بجهد فارغ فيه هلاك الأنفس .

«فلاتتصور لدى سماعك بعظائم القديسين ، انهم بلغوا هذا السمو كله بدون بذل الجهود في الصغائر . ولكن اذا بدأت جاهدا في الصغائر ، تأتيك ايضا تلك الكبائر منقادة من تلقاء نفسها .

وانتبه لئلا تضع رجلك الواحدة على الدرجة السفلى ، والرجل الاخرى على الدرجة العليا ، فتصاب بوقعة لاشفاء منها . لكن اصعد تدريجيا المصاعد الموضوعة قدامك ، فتنجو من كل الأَضرار وكل الوقعات ، وتصل برحمة (الله) في الوقت المناسب ، الى تحقيق هدفك . اذ لا يريد الله ان يصل الانسان منذ البداية ، بدون درجات ، الى مايبتغي ، بل بالتعلم والتدرج .

اذن اعمل على تنشئة نفسك بالمعرفة في هذا الميلاد الجديد الذي وُلدت لهذه السيرة الرهبانية .

وكما ان المربية تعتني بالرضيع وتربيه بمختلف اساليب التنشئة ، فمن الرضيع يصبح طفلا ثم صبيا فشابا ، الى ان يصل مرحلة الرجولة المكتملة ، وفي كل مرحلة تغذيه وتربيه بما يناسبه ، كذلك انت ايضا يابني ، ينبغي لك ان تستنير بالمعرفة في تنشئة ذاتك على هذه السيرة ، فتسلك في كل مرحلة حسبما يناسب درجتك . ولاتبلبل سيرتك

١- يوحنا ١٠ : ١

وتخلطها فتقوم تارة بهذا العمل وطورا باخر ، فلا يكتمل بنيانك بمواد غير متجانسة لان هذه السيرة لاتقبل الخليط . والارض التي يزرعها صاحبها خليطا من الحنطة والشعير والحمص والعدس ، لايحصد منها شيئا . بل ان تعبه كله يذهب عبثا . وكذلك الراهب اذا لايسلك بانتظام في هذه السيرة ، ويرتقي من درجة الى اخرى في حينها ، ويمشي في الطريق الوسط بتعقل ومشورة ، ولايخلط في السيرة شيئا نشازا ، والافانه يعمل سدى ، ويعتبرَ عبدا بطالا . وليس هذا فقط ،ولكن مرارا كثيرة يدع الأبالسة تجربه . ولعله ايضا يرتد الى الوراء اعني الى العالم . «فانت يابني سر في هذا الطريق حسب الخطة التي وضعتها قدامك . وحرر نفسك قبل كل شيئ من جميع القيود المعوقة . وحينذاك ابدأ بسيرك فيه ، دون ان تنظر الى الوراء . لان من ينظر الى الوراء كما قال المخلص ،[1] لايخد في الارض خدودا مستقيمة بل عوجاء .

«وليكن صمتك متواصلا لتفلح فيه . واحترص من الصمت المفتوق ، لان الراهب لايتقدم فيه الى امام . بل ان مايجنيه من صمته خلال الاسبوع يبدده في الاسبوع الذي يطيش فيه حينما يخرج من صومعته .»

«واجعل صيامك وزهدك مستمرين ايضا . لان القطرة المتواصلة خير من مياه كثيرة تأتي دفعة واحدة ثم تنقطع . فتلك (القطرة) بديمومتها تجمع مياها كثيرة ، وحيثما تسقط تفتح ممرا واسعا . اما المياه غير الدائمة فلاتفي بالحاجة المطلوبة ، لان الفترة التي تتوسطها ، تنشّف المياه الاولى .»

«اما صلاتك فلاتضع لها حدا . لاتسد فمك عن تلاوة المزامير . ورنّم مع نفسك سواء أكنت جالسا ام واقفا ، ام تزاول عملا ما ، ام كنت سائرا في طريق . ولااقول هذا فيما يخص صلاة الاوقات المعينة ، بل لكي توقظ شفتيك ، وتتلفظ كل حين وآن بتسابيح الروح القدس ، ولاتتعود على البطالة مابين صلوة وصلوة ، فينتهز العدو بطالتك فرصة ليشق السياج ويسلب فضائلك .»

«تذكّر قصة ذلك الشيخ[2] الذي صادفه ابليس مرسَل من قبل يوليانوس

١- لوقا ٩ : ٦٢ .(بتصرف) .

٢-نقرأ في حاشية المخطوط صحيفة ٤٩٩ : «الأنبا مار لولياني في جبل زامر» فهل كان مقيما في جبل زمار - سنجار -؟.
في حين ان شابو يرتائي قراءة اصح وهي : الانبا لولياني المرتل في الجبل (ترجمة شابو ص ٢٢٠ حاشية ٢) ، لان معنى : زامر ، السريانية ، هو : يرتل ، بالعربية ، والمتن يؤيد هذا الرأي .

الجاحد ،[١] لابادة المسيحيين . وبعد ايام من مكوثه هناك ، عاد بالخزي والعار الى من ارسله . فلما وبخه على انه لم يواصل طريقه طيلة تلك الأيام ، قال له ابليس : انني التقيت بشيخ في الطريق فوجدته يرتل ويصلي ، فاحجمت عن السير الى امام خوفا من القوة المرافقة له في صلاته . وانتظرته مدة تلك الأيام متربصا به لعله ينقطع عن صلاته فأجد مجالا لاتقدم في السير . لكن ذلك لم يحصل ، فعدت اليك لاطلعك عليه .»

«فانظر يابني الى عظم القوة التي ترافق الانسان المواظب على تلاوة المزامير والصلوات . اجتهد يابني في هذا ، لينهزم الأبالسة من مقرك .»

« اقرن يابني سيرتك بالفضائل التي وضعتها نصب عينيك ، وانتبه لئلا تفوتك واحدة منها في اوانها المقرر ، فتصاب سيرتك بالعرج . بل جاهد فيها جميعا جهادا حسنا ، حتى تشيّد قصر بنيانك جيدا وترفعه عاليا . واحفر الاسس : الصمت وعمّقه . ثم ضع حجر الاساس : التواضع والطاعة والفقر . وارفع بناء الجدران اولا بالايمان والرجاء والثبات وقهر الذات . ثم بالصوم والصلاة والقرأة والسهر وباقي المارسات . واعقد بنيانه بالرحمة ومحبة الفقراء وزيارة المرضى ، وماشابه . وكمل تسقيفه وانجاز بنائه بالمحبة النزيهة والكاملة والمتدفقة ، ليصبح قصرا لائقا بسكنى المسيح ربنا . فهو حينذاك يتخذ منزلا عندك مع ابيه والروح القدس .[٢]

ويودع اليك سريا السر الذي كان مكنونا منذ الدهور ان بنيان صرح هذه السيرة يشبه الجسم باقسامه الكثيرة . فكما ان جسم الانسان يتكون من اعضاء وباعضاء كثيرة ، ومتيا نقص منه عضو ، ينشل كله ، لان العين لايمكنها ان تقوم مقام الاذنين ، ولا الشم مقام اللسان ، ولا هذا مقام ذاك ، ولا اليدين مقام الرجلين ، او هذه مقام تلك ، كذلك جسم سيرة الفضيلة هذا المتعدد الاجزاء . فاذا نقصت عنه فضيلة واحدة يكون اعرج وغير مكتمل . وكما ان الجسم كله مستند على الرجلين اللتين تحملانه رغم ثقله ، وهو مرتبط ومشدود الى الرأس ، وبالعينين يرى ويفحص كل شيء ، كذلك جسم الفضيلة هذا، فكله مستند على التواضع ، وهو له بمثابة الرجلين ، وهو ملتحم

---

١ —يوليانوس الجاحد (٣٣١—٣٦٣) امبراطور تنصر ثم عاد الى عبادة الأوثان فلقب بالجاحد

٢ يوحنا ١٤ : ٢٣

ويفحص كل شيء ، ويعرف كيف يسلك .

«ليعطك المسيح ربنا والهنا يابني معرفة الروح وحكمته ، لتعرف كيف تسير مستقيما في طريق الفضيلة هذه ، ويقويك ونحن جميعا في بناء هذا القصر الفخيم ، واقامة هذا الجسم العجيب آميــن .

التماس الكاتب من القارئ

ايها الاخ ، انني اكرر التماسي كالمألوف طالبا منك بمحبة المسيح الاّ تلومني انا الشقي كما استحق ، لأني اطلت الكلام في هذين الفصلين . وهذا لم يكن بارادتي ، انما هكذا سمح لي اولئك الذين التمسوا مني ، بينما كان هدفي منذ البداية ان اكتب باختصار . لكن الاخوة الذين على طلبهم اقدمت على هذه الكتابة ، قدموا لي عدة طلبات لاطيل الكلام في هذين الفصلين حسب بغيتهم ، وحسبما كانوا يسمعونه مني عن تعليم الربان (يوسف) . فلبيت طلبهم لعلمي ان غايتهم هي لخير اولئك الذين ستقع هذه القصة تحت يدهم ، وان كان عملي فيها تأنيبا لشخصي التعيس ، لانني في حين لم اكن قط صالحا في ممارسة الحياة الرهبانية هذه ، فكيف بي انصح الآخرين واحرضهم وادلّهم على الطريق الذي لم تطأه قدماي البتة ، والذي لم اشاهد ولاسبله ولو من بعيد؟ . كان يجب ان أُخزى من قبل الذين يعرفونني ، ومن قبل ضميري ايضا الذي يقول لي كلمة الطوباوي الرسول (بولس) : «انت ايها الشقي الذي تعلم الاخرين ، ألا تعلم نفسك؟»[1] لكنك بعملك هذا صرت حقا شبيها بما ورد في نبوّة بلعام الساحر الذي اعتاد على مزاولة الاعمال السحرية الكاذبة ، ولم يعمل بالحق مطلقا ، فاضطر من قبل النعمة ليقول وهو لايريد ، ولايعرف ايضا مايقوله ، نبوّة النور عن الكوكب الذي اشرق من يعقوب لخلاص الجميع . كما ولما اراد ان يلعن شعب الرب ، وكان قد أُرسل لهذه الغاية ، تلا البركات، وهو غير راض عن ذلك الشعب الذي باركه الرب[2] . فانا الشقي واضعف الضعفاء ، الخالي من الخير والفارغ من كل فضيلة ، والمتعود على البطالة القتالة والطيش المفقر ، اضطرتني النعمة واجبرتني كما شاءت ، لأكون مشتكيا على نفسي بهذا الذي كتبته . وسيستفيد منه الآخرون بموجب سابق علم الله به .

١– رومية ٢ : ٢١ .

٢ – سفر العدد ٢٢ : ٢٤ .

اخوتي سامحوني اذن بمحبة ، ولاتلومني اكثر مما ألوم شخصي بالذات ، وعوض اللوم ، ارجوكم صلوا لاجلي لكي أشفى انا المريض .

الفصل التاسع

في وصول سفينة الربان (يوسف) الى الميناء الذي كان يقصده منذ البداية . وفي انتقاله الى جوار ربه ، الى الموطن الذي يسكنه القديسون أبناء النور . عونك يارب ، آمين .

كان آن لم يكن فيه مخلوق اطلاقا . ولم يكن آن لم يكن فيه خالق الكائنات الهنا له السجود . لان الله كائن بذاته بسرمدية وجوده الازلي المعجز الذي لايُدرك . وليس لوجوده بدء ولاحركة حدثت فكان . بل ان حركته بما هو ، هي بذاتها وجود جوهره له السجود . فهو كان كما حسن لحكمته التي لاتُدرك ، بوحدانية وحدانيته كما كان ، وكما هو الآن بدون زيادة ولانقصان ، مهما كان الزمن ، إن جاز لنا ان نقول : الزمن ، كلا ، بل لازمن ، اذ ليس متى وثَمّ وحينئذ زماناً لسرمدية زمان سرمديته .

ولما شأت حكمته التي لاتدرك ، خلق في الوجود كيان خليقة الناطقين هذا ، لا كأنه شيءٌ جديد ، الا بالوجود الظاهر ، لأن مع أزليته علمه السابق ايضا بما حدث . فلا زيادة في من هو منزه عن كل زيادة ، بل سرمدية بما هو وكما هو ، وهو هو قبل الخلق وبعد الخلق . اي ان الله لم يفكر من جديد بما حدث . بل ان مع ازليته الفكر بما حدث ايضا . اما ماحدث ، ووجودنا كذلك ، فهو جديد بالنسبة لنا . ونحن نتكلم حسب معرفتنا وليس طبقا لكيفية الفعل وسموه ، لانه مستعص على معرفة الناطقين جميعا . ولا يمكننا ان نعرف كيف نتكلم ولا كيف نفهم ونفكر ، انما نتكلم كما قلت ، حسب معرفتنا ومقدرتنا ، وإن كان جزءاً من الحقيقة وظل كيفيتها .

فآنٌ لم يكن كائن مخلوق على الاطلاق كما قلت ، تحرك ، وهذا حسب تعبيرنا ، الخالق له السجود ، فخلق بمحبته وجودته الخليقة الناطقة . وانما قلت تحرك ، حسب معرفتنا ، اذ ليس في الكائن خالقنا حركة كهذه . لان كلمة تحرك تقال لمن يتحرك حينا ويتوقف حينا اخر ، ومن السكون يأتي الى الحركة . ولاشيءْ في الله من هذا القبيل ، يوجد حينا وحينا لا ، بل انه هو هو بديمومة ديمومته بما هو ، دون تغير يطرأ عليه سرمدا .

ولكن ما المقصود من هذا الكلام؟ . اذ ليس هدفي التحدث فيه! انما اريد ان اتحدث عن علة خلقتنا التي لدى دنوي منها برهبة ، تختلج افكاري وتضطرب ،

شيئا امسك به . فلا أجد حتى ولا سبيلا واحدا اسلكه في بحر تدبير الله العجيب هذا الذي لايدرك . وعندما ابسّط الكلام بقدر ما نتمكن اليمين من ان تسطر على الورق ، يثور علي بغتة الحكم القائم في ضميري الموبخ الذي يؤنب وينخس ويحتج قائلا : اصمت ايها الترابي ! لماذا تتجرأ هكذا فتقول كلمات بسيطة عن الخالق الاسمى من كل عقل قولا وفكرا !

فها انني اتكلم كانسان ، بشريا وشعبيا ، وحسب مقدرة اليمين على الكتابة . وانت ايها القارئ الأريب افهم فحوى هذه الامور السامية ، الهيا وعلويا وروحيا ، وليس بشريا وجسديا وشعبيا واعتياديا كما قيلت وكتبت .

فالخالق كما قلت تحرك بمحبته ليخلق خليقتنا في الوجود ، فهل مرغما او لحاجة ما؟ حاشا ! . ولا ايضا كما يظن البعض عن غباوة ويقولون عن جهل ، بأن الله خلق الناطقين ليمجدوا اسمه القدوس ، ويقدموا له السجود ، ، كلا ! لان هذا ايضا يدل على نقص في الخالق . فهل ياصاح يتعظم الله ويتمجد بتسابيحنا وسجودنا؟ كلا ! لان الله ممجد بذاته منذ الازل بمجده له السجود ، قبل خلقنا وبعد خلقنا بدون ادنى زيادة . فلو كان جميع الناطقين وجميع المخلوقات فما واحدا بتمجيد اسمه المجيد ، لما تمكنوا من زيادة شيءٍ من عندهم على مجده له السجود . لا بل حتى ولو كانوا جميعا بالعكس يجدفون ويكفرون ، لما نقص مجده المجيد . لان مجده جوهره وجوهره مجده .

اذن ليست علة خلقتنا الا محبة خالقنا الذي شاء ان نتمجد نحن فيه ، ونكون ورثة مجده ، وننعم في ملكوته الذي خلقه وهيأه لنا . لان حكمة محبته لم ترض بأن نخلو ولانتمكن من النعيم الذي اعده في ملكوته . لكنه تحرك بمحبته فخلق وجودنا في هذا الكون . لان المحبة لاتريد الشر ولاتظن السوء[1] . المحبة الكاملة تلقي خارجا عنها ماليس شبيها بها ، عن كل التدبير الذي كان وسيكون . لان المحبة هي محركة التدبير بما كان وبما هو وبما سيكون . وهذا يقال عن كل الاشياء برمتها دفعة واحدة وبدون تمييز . لكنها في الظاهر تعطي عللا لتدابيرها لها السجود ، حسب غاية حكمتها منها ، وهي انها ارادت ان تعلمنا جميعا المعرفة والحكمة .

فما هو في الواقع نعيم ذلك الملكوت ، الا المعرفة التي بها يكتمل ذلك النعيم ويُنال[2] . اذ لانعيم بدون معرفة . وماهي متعة النحلة من العمل العجيب الذي تضعه

١- اولى قورنثية ١٣ : ٥ .

٢- يوحنا ١٧ : ٣ .

وهي عديمة المعرفة؟ لاشيء البتة . اذ ليس لها معرفة لتعرف ماتصنعه فتلتذ به وتنعم . وبمقدار ماتزداد المعرفة لدى شخص أيا كان ، هكذا يتضاعف تنعمه بذلك الشيء مهما كان .

فان الله لم يشأ بان يضع المعرفة في طبيعتنا بدون تعلم كالعجماوات ، لئلا يكون تنعمنا ناقصا . لكنه اراد بصلاح حكمته ان تزداد معرفتنا بالتجربة لكي يكون نعيمنا عظيما ورفيعا . ولهذا السبب لم يضعنا منذ بدء وجودنا في عالمنا الحقيقي اعني عالم المسرات الذي اعده لنا ، لكنه جعلنا غرباء في عالم الاختبار هذا ، لكي تتمرس معرفتنا وتزداد وتزدهر وتستنير فيه اولا ، ثم ينقلنا الى العالم الآخر حيث نعرف هذه الامور معرفة كاملة . وبحكمته التي لاتدرك جعلنا مائتين ، لكي نطرح عنا بالموت ثقل هذا الجسد ، فنصبح طيورا سريعة . وبخفتنا نطير ونرتفع الى الموطن الذي مافوق سماء السماوات ، ذاك الذي لايقدر الكاروبيم ذوو الاجنحة الستة[1] ، على الدخول اليه قبل ان تكتسب الطبيعة كلها بالموت ، صفة التحليق بالمسيح ، الذي بعدما ذاق الموت ، دخل اليه وصار فيه ربا وملكا . فليس الموت لعلة اخرى كما ورد الكلام عنه في الكتاب المقدس[2] ، وكُتب هكذا في عهد الجاهلية . فان الله لم يخلقنا لامائتين . وبسبب الخطيئة جعلنا مائتين . انما حسن لحكمته الازلية ان نكون اولا مائتين ونموت . لكي ينقلنا بالموت من هذا العالم الى ميراثنا المجيد . اما قول الكتاب باننا بسبب الخطيئة نصبح مائتين ، انما هو تدبير قاله من اجل تعليمنا . والا فكيف ياترى يغير الله ويقلب نظام خليقته كله ، بسسبب خطيئة صغيرة ارتكبها انسان واحد؟ كلا! فاين المحبة وصفاتها ، واين الصلاح وعظائمه! لا . انما محبة الله كانت علة تكويننا ، وبمحبته جعلنا مائتين لكي نموت . وبدون ذلك لامجال لما قلت اعلاه ، اعني لارتفاع طبيعتنا الى ذلك الموطن الجليل الذي ليس موطنا ولاشيئا شبيها بما في هذا العالم .

وبما ان القديسين ابناء النور يعرفون ذلك جيدا ، فانهم من بداية اعمالهم في ممارسة هذه السيرة المقدسة ، يتطلعون وينتظرون الخروج من هذا العالم . لأنهم يرون من بعيد ذلك الموطن الذي يشتاقون اليه . ويعرفون تمام المعرفة أنهم بالموت يصلون اليه ويرثون خيراته . لان غربتنا مادامت في هذا العالم ، فنحن متغربون عن الرب[3] ؛ فيشتاقون

١- اشعيا ٦ : ٢ .

٢- تكوين ٢ : ١٧ ؛ رومية ٥ : ١٢ .

٣- فيلبي ١ : ٢٣-٢٤ .

الى الرحيل ليكونوا مع ربهم مثل بولس . وبما ان الله اراد ويريد خلاص جميع البشر . فهو لاينقل القديسين من العالم حالما يتمنون الخروج منه . بل يمكثوا في العالم لصالح الكثيرين لكي يخلصوا .

ولما كان هذا الرجل العجيب الذي نتحدث عنه ، واقفا على هذه الامور كلها . وكان يشتهي ان يكون مع سيده ، ويريد ان يبقى في هذه الحياة لخير الاخرين . وكانت كلتا الحالتين تتجاذبانه مثل بولس ، فقد بلغ الى شيخوخة عميقة ، ومدد الرب أيامه بايام طويلة الى عمر مئة وعشر سنوات . فانجز عمله قدام الرب بكمال جميع الفضائل طيلة ايام حياته . وامتلك نفسه لله تماما . واتى بالكثيرين ايضا الى معرفة المسيح ومحبته ، وجعلهم بتعليمه الالهي ورثة في ملكوت السماء . ونال دالّة واثقة خالية من كل تحفظ . حتى يمكنه بكل ثقة وفرح ان يقول لله : «ها انني والأبناء الذين اعطيتنيهم انقياء وقديسين بلاعيب ولاغضن البتة»[١] .

بعد ذلك المرض الشديد الذي تكلمت عنه سابقا ، عاش اكثر من ست سنوات . وانا عارف ومتيقن بان ذلك كان برحمة المسيح لخير الكثيرين ، ولي خاصة انا الشقي ، وإن لم استفد شيئا . لانني حين اقامتي في الابتداء ، كان الربان يقول لي مضطرما بمحبته تجاهي : يابني كنت ارغب الى الله ان يطيل حياتي ريثما تنتهي الابتداء ، فارتب اقامتك في صومعتك وافرح بك ، فترتاح نفسي براحتك فيها .

ولما خرجت من الحياة المشتركة ، وبعدما شفي من مرضه ذاك كما قلت ، كان يقول لي مبتسما : ها ان الله قد شفاني يابني ، واضاف اياما على ايام شيخوختي لكي أفي بوعد محبتي لك .

وبعد مرضه بزمان طال اقل من سنة بقليل ، حرك الشيطان مهلك نفوس البشر ، اناساً جهلاء ، فتوقحوا واقدموا على عمل مؤلم جدا ، ويقبح سماعه ايضا ، والتحدث عنه موجع ، ومن ذا الذي يمكنه سماعه! لو لا ان يقيننا ثابت على الرجاء بالايمان القويم ، **فاجرؤ على التحدث** قليلا عن هذا العمل .

لم يكن في النظام الذي وضعه الله من البدء ادنى شر او سوء مطلقا . والشاهد الصادق على هذا هو الكتاب المقدس القائل : «ورأى الله جميع ماصنعه واذا هو

١- **اشعيا ٨:١٧-١٨** .

حسن جدا»[1] . لكن عنصرا واجدا نما وطلع في قلب الصنف الآخر من الناطقين ؛ وهو صار بادئ الشر والسوء كله ، اعني به الحسد الذي صار رأسا وبادئا ومحققا ايضا للشر كله . فالشر لم يكن موجودا لو لا ذاك الذي حسد الخير . والحسد اعمى تمييز رئيس الرئاسات والسلاطين ، فحسد رئيس جبلتنا وغار عليه واخرجه من الفردوس . فاستحكم الشر شيئا فشيئا وتفاقم . واقول اجمالا بان الحسد بذاته هو علة كل الشرور المختلفة المنتشرة في هذا العالم . لان الانسان الذي يحسد اخاه يخلو من كل معرفة ، ويتغرب عن الله ، ولا يميز الواجب بعد ، وان كان ذاك الذي يحسده من اهل البيت ومعروفا بين اهل الايمان ، وهو بدوره كذلك ايضا واكثر منهم . وها انني اذكر حادثتين مما فعله اهل البيت تصديقا لقولي هذا .

فمن الذي رمى بمار حنا نيشوع الجاثليق[2] في الجب حيث كان ملقى لاهلاكه ، الا حسد أهل البيت او البارزين في الكنيسة ، الذين حسدوه واسلموه لذلك الموت المرير الشنيع ، والذي انقذه المسيح منه برحمته العظيمة ، كما ذكر ذلك ، القديس نفسه للراعي الذي وجده في الجب قائلا : انا هو حنا نيشوع الجاثليق الذي القاه الحسد للموت في هذا الجب . ومن الذي وضع لمار ايشوعياب الارزنّي الجاثليق[3] ، سم الموت في كأس الخلاص ، كأس دم ربنا ، الا حسد اهل البيت الاغبياء ، فاقدموا على هذه الفعلة الشنعاء التي لايحتمل سماعها ! ولما تقدم السيد الجاثليق لتناول الحياة من كأس الخلاص قال : انني اتناول للحياة الابدية دواء الحياة الذي مزج الحسد فيه سم الموت . فتمت فيه كلمة الرب[4] ، ولم يضره سم الموت .

ولما كانت جميع الآيات التي قال عنها الرب انها تتبع الذين يؤمنون[5] ، قد ظهرت فعلا في هذا الرجل المدهش الربان يوسف ، فانه باسم الرب اخرج الشياطين ، وفسر الروحيات بلسان جديد في تعليمه المذهل ، ووضع يديه المقدستين على المرض فشفيوا ، وداس برجليه الطاهرتين كل قوة الحية الخبيثة الشيطان اللعين .

١- تكوين ١ : ٣١ .

٢-هو الاول بهذا الاسم ، دبّر كنيسة المشرق من سنة ٦٨٦ والى سنة ٧٠٠ . (راجع كتاب المجدل لماري صحيفة ٥٦ ؛ ادب اللغة الارامية صحيفة ٢٩٩ - ٣٠١) .

٣-هو اول بطريرك بهذا الاسم ، دبّر كنيسة المشرق من سنة ٥٨٠ والى سنة ٥٩٥ (ادب اللغة الارامية ص ١٧٧-١٧٩) .

٤- مرقس ١٦ : ١٨ .

٥- مرقس ١٦ : ١٧-١٨ .

ومع ان الطوباوي الربان اجرى هذه الآيات بالمسيح ربنا الذي آمن به ، لكنه كان ناقصا بواحدة من الآيات الخمس التي قال الرب انها تتبع المؤمنين ، ولم يجترحها لانها ليست متوقفة على ارادة الشخص ، ولا توجد لدى كل انسان ، الا عند اولئك الذين يثور عليهم الحسد من قبل الناس الاشرار.

كان في الدير اناس جهلاء يحسدون كثيرا محاسن الربان ، للشر وليس للخير ، ويغارون عليه غيرة عمياء . فبذلوا كل الجهود ليتمكنوا من مقاومة الروح الساكن فيه ولم يقدروا . واخيرا أسرّ لهم ذاك الذي دفع الاسخريوطي ليسلّم ربه[1] ، كما دفع اولئك الذين دسوا سم الموت في الكأس للسيد الجاثليق ، ليتوقحوا ويفعلوا نفس الفعلة بالقديس . فتمكر ذلك الانسان الذي ملأ الشيطان قلبه شرا ، ودس للربان سم الموت في رغيف الخبز ، ووضعه قدامه في الطعام بينما كان يأكل مع الاخوة من مائدة الجمعية . وهذه الفعلة لاتختلف بشيء عما جرى للسيد الجاثليق . فالحسد سكب له السم الزعاف في كأس سر دم ربنا . ولرفيقه هذا وضع الحسد نفسه سم الموت في سر مائدة الرب ؛ فحالما وضع الربان ذلك الخبز المسموم في فمه ، احس به بقدرة النعمة التي هي اطلعت الجاثليق عليه ؛ فاراد ان يتقيأ ويقذفه من فمه ، لكنه تذكر قول الرب القائل : [2] «واذا شربتم سم الموت فلا يضركم ولا يؤذيكم» . فقال لنفسه ما قاله السيد الجاثليق المحسود : انني ايمانا بربنا يسوع المسيح ، اتناول دواء الحياة ، الممزوج فيه سم الموت بايدي الحساد ، في سر مائدة الرب للحياة الخالدة في ملكوته الابدي . وتمسك برجائه الصادق وغير المتزعزع ، فابتلع ذلك الخبز مع السم ، دون ان يخامره ادنى شك . لكنه تيقن وآمن بان يحصل على الآية الوحيدة التي كانت تنقصه ، اخزاءً لاولئك الذين ظنوا ان قدرة الله ضعيفة لتأيده كما ايدت الرسل القديسين.

ولما عاد الى صومعته من مائدة الجمعية ، اغلق بابه كالمعتاد ، وكان ذلك في بداية (سابوع) البشارة[3] . ولم يكشف لاحد منا ماجرى له . وحينما كنت اذهب عنده في الليالي كالمألوف ، كنت ألحظ فيه تبدلا غريبا عما ألفته فيه . فأساله ليقول لي ماذا جرى ، لكنه لم يقل شيئا عما حدث له . بل كان يتنهد تنهدا عميقا ويقول : اسكت يابني ولاتسأل ، لان قضيتي جريمة نكراء ، ولايمكنني الافصاح عنها لئلا يمنى الكثيرون باضرار .

١- يوحنا ١٣ : ٢ .

٢ - متي ٢٢ : ٣-٦ .

٣-هو الاحد الاول من شهر كانون الاول .

وفي تلك الأيام تمرض قليلا ، الى ما بعد عيد ظهور الرب [1] . فلما فتح الباب ودخلت اليه ، طلبت منه ثانية ليخبرني بعلته ، لكنه رفض . وفي يوم من تلك الايام ، بينما كان الاخوة مجتمعين لديه وملتفين حوله ، تنهد بغتة كعادته تنهدا شديدا ، وقال بصوت عال : مجدوا الله ياابناء الايمان ، فها إنّ الرب قد اظهر خلاصه ، ولم يعط للخصم تحقيق بغيته الشريرة ونيته الخبيثة .

ومن تلك الساعة طرأ عليه تحسن ما ، وخفت عنه وطأة المرض . اما انا فبعد زمان اضطررته بالتماسات ملحة ، حتى اطلعني على ما جرى ، وكشف لي القضية كلها كما حدثت .

ماذا كان المقصود من قوله : فقد اظهر الرب خلاصه؟ . فان النعمة عملت فيه مفعولها ، فشفي تماما من الوعكة البسيطة التي كان يعانيها . فتعجبت بهذا ومجدت الله شاكرا رحمته ، لان المسيح ربنا كرّس بجميع العجائب إناء الاعجوبة هذا ، آخر القديسين وخاتمهم . فانه جدد وأظهر فيه آيات الرسل القديسين والآباء الطوباويين جميعا ، في زماننا هذا الاخير والمضطرب والمقفر والخالي من مثل هؤلاء الرجال .

وعاش بعد هذه الحوادث خمس سنوات تقريبا . ولكن الى متى أعنّي النفس بهذه البواهر التي لهذا الطوباوي الجليل المبارك الشيب ، والتي ليس بامكان معرفتي الزهيدة التحدث عنها كما يحق لها . لقد سعيت مع المشاة بجمع هذه الصغائر ، فثقلت عليّ ، فكيف اذن اجرؤ على العدو مع الفرسان بعظائم تفوق هذه! فمن الافضل لي ان اسكت ، واحث السير بكلامي الواهي ، نحو ختام سعيه ونهاية جهاد صراعه مع الاهواء والأبالسة .

فعقب خمس سنوات لما اوقع به الحسد ، اصيب الربان فجأة بمرض عضال نهار جمعة آلام الرب . ولاحظت فيه علامات تدل على ان مرضه مميت . لانه كان يقول لي سابقا لدى تحدثه عن مرض الربان موسى : اعلم يابني ان القديسين في نهاية حياتهم ، لما يحين رحيلهم من هذا العالم ، تعطى لهم رؤيا فريدة من نوعها ، بالكشف عن العالم الجديد ، فيأخذهم فيها الرعب والقلق ، حتى انها تبدو للغير وكأنها جنون ، لان الذهن يُسبى برؤية المجد المدهشة التي لذلك العالم المجيد ، فينسى ذاته وكل ما في هذا العالم ، ولايبقى لديه من الامور كلها الا شئ واحد وهو الحب المحض . ومن يستحق هذه الرؤيا يتقد بحب الناس جميعا وبمحبتهم ، ويضطرم بمحبة من هو قريب منه في تلك

---

١ -هو عيد الدنح ويقع في ٦ كانون الثاني من كل سنة .

الساعة ، ولايمكنه ضبط زمام نفسه ، اذ لاشيء حاجز قدام عيون فكره مما في هذا العالم ، لكي يعيقه ويضبطه .

بالحقيقة اخوتي ، ان هذه المحبة شبيهة بالمحبة التي تعطى للقديسين في عالم الكمال ، عربونا لتلك التي تعطى لهم هنا لدى دنو اجلهم ، وإن كانت تعطى للراهب من حين لاخر ، وليس بكليتها ، في عمق صمته . وليس من يشعر بها ، اذ لايوجد احد قريبا منه في ذلك الحين . ولكن لما يحين اجله كما قلت ، ولقرب الناس منه ، فانهم يرون فيه شيئا غريبا ، حتى ان الكثيرين يصابون بخيبة عن جهلهم بتلك الرؤية المدهشة ، كما حدث ذلك ايضا لأناس بسطاء ، في رؤية الربان موسى ، حسبما روى لنا الربان (يوسف) نفس الرؤية والتغير اللذين شوهدا على الربان موسى ، ورايناهما في الربان (يوسف) أثناء هذا المرض الذي اصيب به . فاستغرب الجميع هذه الظاهرة ، لانه كان يلتي بيديه ويبسط ذراعيه هنا وهناك ، على الذين كانوا ملتفين حوله . وكان يدنيهم منه ويعانقهم ويقبلّهم خلافا للاصول . ثم يترك هؤلاء ويجذب غيرهم . وظل على هذه الحال من المساء وحتى منتصف الليل . اما انا فعلى ماسمعته منه عن الربان موسى ، كنت اظن انه في تلك الليلة ينتقل الى جوار ربه .

وبما ان ساعته لم تكن قد حانت بعد ، فقد هدأ الوضع الذي كان عليه ، واستعاد وعيه الطبيعي ، وعاد بمعرفته الى عالمنا ، واحس بما جرى . والبعض لم يفهموا ما جرى .

ثم شرع يوجه كلام تعليمه الى الحاضرين جميعا ، وشرح لهم هذه الرؤيا التأملية التي ذكرتها . وكشف في حديثه عما جرى للقديس الربان موسى . وازال الشك عن اذهان الذين لم يصدقوا ، ورسخ ايمان الذين لم يشكّوا . وبعد ذلك طرأ عليه تبدل آخر مدهش من نوعه . فقد ظل مدة تزيد على خمسة اشهر ، مطروحا على الارض ، ووجهه مغطى ، دون ان يحس بشيء مما حوله . ولو تركناه نهارا وليلا ولم نوقظه لما احس قط . ولما كنا نوقظه ، كان يتحدث الينا بصعوبة ، وكنا نلح عليه ، فيأكل بعد عناء كثير شيئا زهيدا ، فيمضغ الطعام وهو لايحس به . ولو بقي أياما على الطوى لما طلب شيئا . وكان احيانا ينبهنا لئلا نوقظه . فيمكث أياما بلا طعام ، ولا مرض او ألم البتة ، انما مستكينا ومنطرحا على الارض كمن لاحس فيه . لانه عندنا بجسده فقط . اما بنفسه فكان في موطن اخر .

وهذا هو حقا الكمال الذي يبلغه القديسون في نهاية حياتهم . لانهم وان كانوا خامدين بجسدهم ، لكنهم بافكارهم يعبدون ربهم في اوطان الروحيين .
وبعدما ظل على هذه الحال قرابة خمسة اشهر ، اصيب من جديد بمرض آخر . وفي احدى الليالي اراد القعود لحاجته ، فوضعت يديّ على ساقيه لاجلسه ، فلما احس بهما صرخ بوجهي قائلا : انتبه يابني واحرص لئلا ترى جزءًا من جسدي . وبعدما اعدته الى مكانه قال لي : اعلم يابني انني من يوم اقتبلت هذا الثوب المقدس ، لم ار جزءا من جسدي ، عدا يديّ ورجليّ والى ركبتيّ . فانتبه يابني لئلا تكشف جزءا من جسدي ساعة تغسلني . لكن غسّل بانتباه رأسي ويدي ورجلي فقط . وانت يابني كن منتبها الى نفسك واحرص على هذا الانتباه جميع ايام حياتك . فسألته طالبا منه ليوضح لي ماذا كان يعمل لما كان يبدل قميصه . فقال لي : كنت اغمض عينيّ الى ان أخرج رأسي من عنق القميص . فاخذني الدهش من حرص القديس . وشكرت الله على شدة الحرص الذي كان عليه ، ولم يتخل عنه حتى في شيخوخته العميقة . واذا كان حريصا الى هذه الدرجة على جسده ، فماذا نقول عن بقية الامور؟ .

قبيل النهار الذي فيه انتقلت نفسه الزكية بثمانية ايام ، راى احد الاخوة رؤيا عن موته . فقد رأى مارواه لي قائلا : بعدما رتلت مزامير الصباح ، وجلست هنيهة قدام الصليب . رأيت وكأنني واقف في مكان ماازاء صومعة الربان . واذا بجمع غفير واقفين ينظرون الى السماء منذهلين وهو يسبحون الله بصوت جهير ، فسألت احدهم كان قريبا مني : ما لهؤلاء ينظرون الى السماء متعجبين وهم يسبحون الله؟ . فقال لي : لانهم يرون الشمس قد اظلمت ونورها لايُرى . فنظرت الى السماء ، فرأيت الشمس متوشحة بظلام دامس كثيف ، وكواكب قليلة تبدو متناثرة في السماء . وكان ذلك نحو الساعة الثالثة (من النهار) . فانتفضت من نومي مذعورا جدا . وبينما كنت افكر في الرؤيا ، نخسني الملاك الحارس وقال لي : ان الشمس التي رأيتها قد اظلمت ، ترمز الى الربان ، يوسف المرتحل الى جوار ربه . وبعد هذه الرؤيا ثبت لدي ان القديس سيرحل بعد قليل .
وعقب ثمانية ايام اشتد مرض القديس ، ومن مساء تلك الليلة التي في صباح اليوم التالي توفي الطوباوي ، غاص فكره في التأمل والرؤيا اللذين ذكرتهما سابقا . وطرأ عليه التبدل المدهش المذكور آنفا ، حتى الساعة الثالثة من النهار . وفي الساعة الثالثة كما راى ذلك الاخ ان الشمس قد اظلمت ، اسلم نفسه الطاهرة بيد الملاك الذي كان يدبره . واحتفى الملاك مع اجواق اجناد العلى ، بتلك النفس البارة الى ان صعدت فوق

الموطن الذي يقيمون فيه ، ومن هناك فما فوق ، طارت بالاجنحة التي زودها بها الروح القدس ، مرتفعة متعظمة . الى الموطن الذي ليس موطنا . والذي سبق فدخل وملك فيه بكرنا .[1] وهاهي الان هناك مع انفس القديسين ابناء النور ، الى يوم ظهور المسيح ربنا من السماء . وحينئذ تلبس جسدها وشريكها الحقيقي . فينعمان هناك في ملكوت المسيح بالنعيم الابدي .

وفي هذه الليلة عند الفجر ، بينما كان احد الاخوة جالسا ، وقد غلبه النوم هنيهة ، رأى وكأنه في بيت الشهداء ، واذا بنسر كبير وعجيب طار ودخل الى بيت الشهداء ، واخذ يحوم فيه الى ان حط فوق الضريح حيث كان مسجى مار ابراهيم سابقا ، واذا بخادمي الهيكل يخرجان من المذبح وبايديهما مباخر وعطور ، فاقبلا ووقفا بالقرب من النسر ، الواحد عند الرأس والاخر عند الرجلين حيث وضعنا الربان (يوسف) .

فاجتمع الاخوة جميعا وهم يبكون وينتفون شعرهم ، لفراقهم عن ابيهم الروحي وملاّح سفن انفسهم .

كما واقبل الى الدير اخوة كثيرون من دير الربان هرمزد ، والربان يشوعياب ، والربان يوسف الذي في اينشكي . ودير شمرخ ، ودير الربان قيوما .

وسمع اهالي القرى المحيطة بالدير ،فتهافتوا بجموع غفيرة رجالا ونساء للتبرك بجثمانه المبارك . وشيع ذلك الجثمان الطاهر من قبل الجمهور المحتشد تكريما له ، بترانيم الروح القدس والتسابيح من الصباح وحتى المساء . ودفن في بيت الشهداء . في الضريح الذي ذكرته اعلاه ، حيث كان جثمان مارابراهيم .

وبعدما دفن هناك ، روى لي الربان جبرائيل الوافه ، مندهشا برؤية القديسين البعيدة المدى ، انه في يوم الايام ، اقبل القديس الربان موسى بصحبة الربان يوسف الى بيت الشهداء . وبعد تأدية الزيارة ، وقفا في الوسط ، فقال الربان (موسى) للربان (يوسف) : اعلم ان وقت رحيلي من هذه الحياة قد حان ، وها انني منتقل الى المسيح ، اما أنت فاهتم بارشاد النفوس التي يعهد بها المسيح اليك . فقال له الربان يوسف : انا لااحيا هنا من بعدك! .

فقال الربان موسى : ولما لا؟ فقد طلبت من المسيح ليعطيك الصبر ، فتثبت به على ممارسة الموهبة التي اتتك منه ، فانك في هذا الدير تنهي سعي اعمالك ، وجسدك يوضع

١- كولسي ١:١٨ .

مقابل جسدي في هذا المكان . وها ان نبؤة القديس قد تحققت الان وتمت فعلا ، كان في الدير اخ اسمه بولس ، وكان اعرج ومقعدا ، وجسده كله مضروب بالقروح والاورام ، والحروق في بعض اجزائه ، لكن وان كان جسده مصابا بالعاهات ، الا ان نفسه كانت نقية تماما ، وزاهية مشرقة بطهارتها فكريا ، كقرص نور الشمس ، في ذلك الجسد المريض والسقيم . فان محياه لم يتقطب ولم يكتئب قط رغم كل تلك العاهات . بل ان طلعته كانت دائما تطفح بشرا واشراقا ، على مثال نقاوة نفسه واشراقها . ولم يكن ينقطع عن الحمد والشكر البتة . بل كان على الدوام يشكر الله بالخفاء والعلن . ومهما كانت قروحه وعاهاته المتنوعة تتفاقم ، لانه بالحقيقة كان يظهر يوميا مرض جديد في ذلك الجسد المصاب اكثر من جسد لعازر ،[1] كان هو يكثر من الحمد والشكر لله على ذلك . ورغم هذه كلها كان فقيرا جدا ومعوزا . ولما كنت اخذ له هبة مامن المؤمنين الوافدين الى الدير ، كان يأخذها مني ويعطيها للمبتدئين والفقراء . ولايقتات منها ولو كواحد منهم . فكنت ألومه على ذلك ، اما هو فيقول لي : أليس ان المؤمنين يعطون هبة للرهبان لكي يصيبوا خيرا منهم؟ وانا الذي لاخير فيّ البتة ، فماذا يصيبهم مني؟ لذا اعطي هذه الهبة لمن يصلي من اجل اصحابها لكي يلقوا خيرا .

وكان يمارس الفقر مع والدته الراهبة التي كانت تقوم بخدمته ، مكتفيا بحصة الخبز الذي كان يعطى له من الجمعية ، لأبل ويضطر نفسه مع والدته ، على الجوع ، موفرا من حصة الخبز تلك .

وكان يأخذ من الحنطة التي وفرها ، ويعطيها دقيقا للوافه قربانا لله . واحيانا سمعت الربان (يوسف) يشهد بحقه قائلا : انه رفيق مار كيوركيس الشهيد ،[2] في ملكوت السماء .

فهذا (الاخ) كانت والدته تحمله وتضعه بالقرب من ضريح الربان . فيقضي الليل مع والدته في بيت الشهداء ، باكيا بجانب ضريح الربان ، لان وفاة الربان سببت له حزنا وألما اكثر من كثيرين . فهذا الشاهد العيان الذي كان هذا دأبه كل يوم ، حكى لي انه في احدى الليالي ، بينما كان يبكي بجانب الضريح ، انطفأ القنديل الذي كان يضيئ فوقه ، فازداد غما لانه لم يكن قادرا على ايقاده ، واجهش في البكاء وخفض

١- لوقا ١٦ : ٢٠ .

٢-عن مار كيوركيس الشهيد (راجع كتاب الديورة رقم ٥٧ ، الأب يوسف حبي ، دير مار كيوركيس ١٩٧٧) .

رأسه الى الارض . وبعد ساعة واحدة ، رفع عينيه ، ورأى فاذا القنديل مضيءٌ اكثر مما كان يضيءُ سابقا . فتعزى من كربته ومجد الله الذي يعتني باوليائه كل هذه العناية ، حتى انه بعد وفاتهم ، يوصي الملائكة بخدمة ذخائر عظامهم .

عاش الربان يوسف طوال أيام حياته في هذا العالم ، عيشة مرضية لله قرابة مئة وعشر سنوات ، منها ثمانين سنة في الرهبنة . وارتاح نهار الخميس من عمله الدؤوب قدام الله ، ومن صراعاته المظفرة ضد الشياطين ، ومن حروبه المستمرةوالمنتصرة ضد الاهواء . ووضع في بيت الشهداء ، في (دير) مار ابراهيم باصيارّي ، عصر ليلة الجمعة السادسة من سابوع «حلليني»[1] وفيها يُحتفل بتذكاره ، وترنيمته هي : «ياعارف بافكار الناس جميعا» ، وفيها يحتفل ايضا بتذكار القديس مار شمعون برصباعي الجاثليق ؛[2] في الرابع من شهر ايلول سنة ١٤٩٦[3] يونانية وهي سنة ٥٨١ هجرية . وها ان المعونات تنبع من ذخيرة رفاته المقدسة ، لجميع الملتجئين الى صلواته . طيّب الله ثراه . وصلواته على العالم كله باسره ، وعلى الكنيسة وابنائها ، وعلى الدير الذي فيه سجيت ذخيرة رفاته ، وعلى الكاتب الضعيف والخاطئ والشقي اكثرمن جميع البشر ، وعلى القارئ والسامعين ، وعلينا جميعا امين .

والمجد والاكرام والشكر والسجود لله الذي نصره ورفع شأنه ، وعلينا رحمته وحنانه في الدارين آميـــــن .[4]

١-هو سابوع القيظ في تقويم كنيسة المشرق .
٢-راجع بشأنه : ادب اللغة الارامية صحيفة ٦٦-٦٩ .
٣-ان في هذه التواريخ اخطاء سها عنها النساخ . لان سنة ١٤٩٦ يونانية بدأت في ١ تشرين الأول سنة ١١٨٤ ميلادية وانتهت في ٣٠ أيلول سنة ١١٨٥م . وسنة ٥٨١ هجرية بدأت نهار الخميس ٤ نيسان سنة ١١٨٥م . فالصحيح ان الربان يوسف توفي في ٤ أيلول سنة ٩٧٩م . هذا ما تؤيده معطيات تاريخية اخرى وردت في الكتاب ، كرسامة الجاثليق عبد يشوع الأول سنة ٩٦٣ (ص ٣٦) ، وغزو ما بين النهرين سنة ٩٧٧م ، ووفاة الربان موسى سنة ٩٤٧م (ص ٥٧) . ويذكر المؤلف ان الربان يوسف توفي نهار الخميس ، وهذا الخميس كان يوم ٤ أيلول سنة ٩٧٩م .(تصحيح شابو ، صحيفة ٢٤٠ الحاشية ٣ من ترجمته) .
٤-يتبع هنا في الأصل اعتذار اخر للكاتب الى القارئ لم نجد فائدة في نشره .

فهـرس الاشخاص

أ ـ صحيفـة

غ

ف

ق

ك

م

ن

هـ

ي

فهرست الاماكن والبقاع

أ صحيفة

ج

ح

خ

د

فهـــرس الكتـاب

السعر : ديناران

